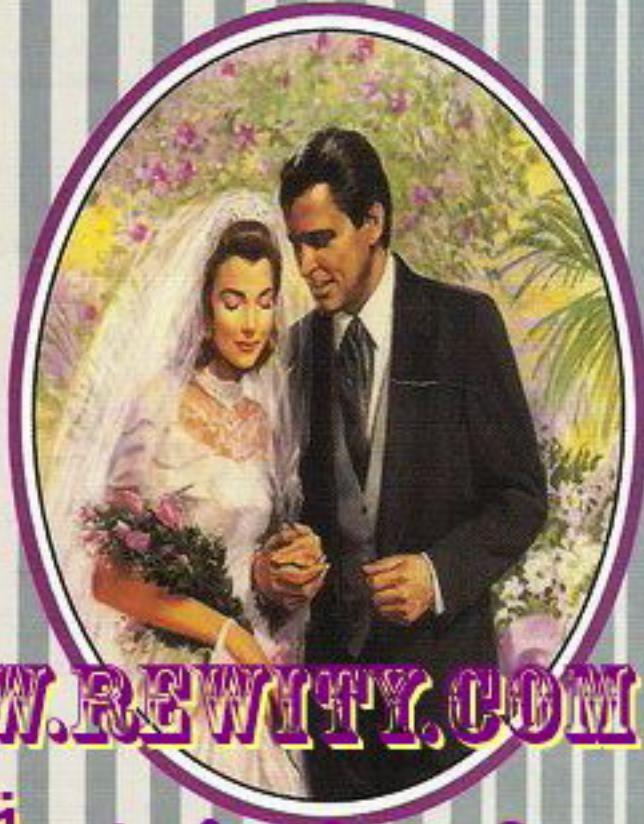




رِبْلَه

١

الأصلية



[www.REWLYY.COM](http://www.rewlyy.com)

مرمورية

Edwina Peake

الكشف  
عن الحقيقة

# روايات عبير



## «الكشف عن الحقيقة»

بلا لقاءٍ أو رؤية عرفت «فانيسا» أنَّ جدَها فُظَّ المشاعر غليظ القلب... طَرَدَ ابْنَه (أباها الراحل) لأنَّه أحبَّ من لم يختارها له - كما أخبرها والدها - فامتلأ صدرُها عليه حقدًا وتولَّت الرغبة في الانتقام منه، وانطلقت ببوئية ليست هوبيتها.. وكان الانتقام مُرادها.

وفي الطريق تُصادِف «كال غرين» ضيفَ جَدَها الذي يوصلها إلى بيت جَدَها، وفي قلبهما منه شيءٌ، وتنتعرف إلى جَدَها. وترى أن الواقع غير ما أخبرها به والدُها. والسرد مخالف للأفعال.. وتكشف ما يُؤلِّها؛ فتحيا في ليل من الكآبة، ولكن في الأفق تباشير شروق شمس تنهَّلُ بها أساريرها.. فماذا يحدث في طيَّات هذه الرواية؟

### ثمن النسخة

ISBN 995338058



لبنان	3000
سوريا	100
الأردن	1.5 دينار
السعودية	10 ريال
الكويت	750 فلس
الإمارات	10 دراهم
البحرين	1 دينار
قطر	10 ريال
مسقط	1 ريال
مصر	6 جنيه
الغرب	30 درهم
ليبيا	5 دينار
تونس	2.5 دينار
اليمن	300 ريال

9 789953 380582

## الكشف عن الحقيقة

( 723 )

الناشر

المركز الدولي للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

الإدارة العامة والتوزيع

تليفون: 00 961 9 212 665 - فاكس: 00 961 9 212 666

ص.ب 374 جونيه - لبنان

Email: info@inter-press.org www.inter-press.org

وكلاًء التوزيع  
دار ميوزيك - دار البشير - دار إي بي سي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع منعاً باتاً نقل أي جزء أو قسم من هذا الكتاب وبأية وسيلة مرئية أو صوتية... إلخ  
إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

العنوان الأصلي لهذه الرواية  
**Kigfisher Morning**

تأليف

**Edwina Peake**

الغلاف بريشة الفنان  
**Patrice Gordon**

أسقطت «فانيسا» مكعب السكر في فنجان القهوة وراحت تراقب فقاقيع الهواء، التي أحدثتها. لا، لم يكن هذا خيالاً، فالشابان اللذان يركبان الدراجة النارية كانوا يراقبانها باهتمام واضح. إنها معتادة ذلك التصرف. لكن الأمر يختلف هذه المرة، فنظراتهما أشعرتها بالانزعاج. المقهي كان صغيراً. وخلف الآلة الحاسبة جلست فتاتان تقهقحان وتتهامسان. وإلى إحدى الطاولات في الزاوية جلس رجل يحتسي فنجان قهوة، وإلى جواره كان الشابان. أنهيا لتوهما تناول بعض الساندويتشات. نظرت «فانيسا» إلى الرجل الذي كان مستغرقاً في النظر إلى الصحيفة الموجودة إلى جواره أكثر من أي شيء آخر. ماذا يمكن أن تقول إذا ما ذهبت إليه لتحادثه؟ من الأكيد أنه سيعتبرها مجونة، ولكنها كانت قلقة، فما تيقن من الطريق موحش ومنعزل، هذا ما تؤكده خريطتها وبؤكده الطريق الذي قطعته قبل قليل. هناك ما لا يقل عن خمسين كيلومتراً للوصول إلى «دينستون هاوس». خمسون كيلومتراً من القيادة فوق أراضٍ جبلية منعزلة قبل أن تصل إلى مقصدتها! التفت إليها الرجل ليبرهه وكأنه أحمس بنظراتها، ثم نظر باتجاه الشابين وأخيراً إلى صاحفته. خفق قلب «فانيسا» بشدة. ليس هناك أمل يرتجي منه. لعله اعتقاد أنها أحببت تصرف الشابين اللذين أخذوا الآن يصدران أصواتاً وكأنهما يتحدىان إلى قطة، وهما يبتسمان، لقد أصبح طعم القهوة كريها. نهضت فجأة. حان وقت الذهب، وكلما بكرت كان أفضل.

رأسها مصاب بالصداع منذ أن قطعت «بيرث»، والطريق حتى «دينستون هاوس» - المنطقة المجهولة - طويل وصعب، ومن الأفضل لها أن تسرع في الوصول إلى هناك. حملت سترتها وحقيبة يدها وغادرت المقهي دون أن تلتقت إلى الخلف. في الخارج، كان الطقس بارداً وبوادر غيوم ممطرة في السماء. التلال المرتفعة كانت تبدو منعزلة في ضوء المساء الخافت، وكل شيء هادئ. في موقف المقهي، شاهدت الدراجتين الناريتين وسيارة «جا جوار» أنيقة وسيارتها «الكورتيينا»

الرمادية. جلست في مقعدها ورمت السترة وحقيقة اليد في المعدن المجاور... وأدارت المحرك. فكرت في أنها ستكون سالة إذا ما أفلعت وغادرت المكان قبل أن يخرج الشابان. وما إن تحركت باتجاه الطريق حتى شاهدت باب المقهي يفتح، ورأت الشابين يقفن للحظة على العتبة فأعطيا ظلاً أسود انعكست على ضوء المقهي الساطع. ما زالا يضحكان. وبحركة غريزية أغلقت أبواب سيارتها من الداخل ثم ضغطت بكمال قوتها على دواسة البنزين.. فاستجابت «الكورتيна» على الفور. نزلت الطريق المنحدر بأسرع ما يمكنها. ربما كانت السرعة غير كافية فالدراجات النارية قوية وسريعة جداً على الرغم من مظهرها المضحك. انطلقت الدراجتان الناريتان خلفها، وأصابها شعور غريب بأن ما يحدث قد يكون عقاباً لها على الخطأ المقصودة التي جاءت لأجلها، لكن الآن ليس وقت محاسبة الذات، المهم أن تبقى في المقدمة، متقدمة على الشابين، وكل شيء سيكون على ما يرام. الطريق الأسفلتي يمتد كشريط ضيق متعرج، «فانيسا» تتبعه بترقب وسرعة، ويداها الرابطتان ممسكتان بعجلة القيادة. لم تكن إنسانة عصبية، وهي تعرف كيف تسيطر على نفسها. لكن شيئاً ما كان في نظرات الشابين، اللذين لم يتجاوزوا العشرين من العمر، جعلها تشعر بالخوف. فكرة خاطفة ألمحت على ذهنها عن الرجل الآخر الذي كان في المقهي. لقد كان جذاباً بشكل قاس وغامض... وفجأة سمعت هدير صوت محركي الدراجتين خلفها تماماً، كان المنعطف قد حجبهما عنها. الآن أصبحا مرئيين... ويفتريان، شابان يبحثان عن المشاكل، يرتديان سترتين جلديتين سوداءين على سروالين من الجينز. أصبحا أقرب. يا الله أين السيارة الأخرى، أو أية سيارة أخرى؟! من الأول مسرعاً فاهتزت السيارة بعنف. كان أسلوبهما فعالاً. تمهل الأول حتى وصلت السيارة إلى منعطف ضيق فخفف سرعته بحيث اضطررت «فانيسا» بدورها إلى تخفييف السرعة، في حين كان الثاني خلفها يمنعها من محاولة الرجوع. أحست «فانيسا» برغبة جامحة في أن تطلق لسيارتها العنوان، لكنها أدركت أن ذلك لن يفيد. كانت الدراجة النارية ضخمة بحيث لا تؤثر فيها السيارة، والطريق لا يسمح بالتجاوز. وسرعان ما حل الصمت عندما سكتت المحركات.

تلقت حولها في محاولة يائسة للبحث عن سلاح. عبشت أصابعها المحمومة في حقيبة يدها، فاصطدمت بجسم ذاتي بارد... إنه عطر بخاخ، القارورة صغيرة، لكنها أفضل من لا شيء. كم من الوقت سيمر قبل أن يحطما الأبواب؟ اقترب الشاب الأول من النافذة ومسح الزجاج وهو يبتسم. كانت أسنانه متأكلة ووجهه مصاباً بحب الشباب... وفي عينيه رغبات تتجاوز سنوات عمره.

- أرجوكما، اتركياني لحالى. كلمات لا معنى لها في هذا الموقف، أطلقتها كانها ابتهال.

عندئذ، ومن حيث لم تتوقع، سمعت صوت آلة التنبية سيارة طويلاً وعالياً يأتي من الوراء. التفت، فجز قلبها من شدة الارتجاج. في الوقت المناسب تماماً. كانت سيارة «الجاجوار» التي تخص الرجل الغامض في المقهي الصغير، والسائق يطلق آلة التنبية؛ لأن دراجة الشاب الأول تلقي الطريق أمامه. وفي اللحظة التي توجه فيها الشاب لإزاحة دراجته فتحت «فانيسا» الباب بسرعة. لم يكن الشاب يريد أي تدخل، بل يريد أن يفسح الطريق للسيارة «الجاجوار». وكان أمام «فانيسا» ثوان معدودة. وبينما كانت تحاول الركض متوجهاً نحو الشاب الثاني وزراعيه المعدودتين، ترجل سائق «الجاجوار» من سيارته وأغلق الباب خلفه، وحاولت «فانيسا» أن تهدى قدميها المرتجفتين عندما شاهدته متقدماً نحو سيارتها. قالت له:

- أرجوك ساعدني... هذان الشابان...

- أعرف، لقد شاهدتهما. جاء، صوته عميقاً. ربما كان صوتاً عذباً في الأوقات العادلة، لكنه الآن غاضب ومنفعلاً. هذا ما لفت انتباه «فانيسا» للوهلة الأولى وهي تنظر إليه كوسيلة إنقاذ. وسرعان ما أدركت شيئاً أعاد الخوف إلى نفسها. إنه شخص واحد وهما اثنان وقويان، ولا يبدو عليه أنه قوي، على الرغم من أنه طويل القامة وعربيض المكفين ويمشي واثقاً الخطوة. لقد لاحظت هذه الأمور كلها عندما دخل المقهي وهي في منتصف وجيتها، وقبل أن يبدأ الشابان تحرشاتها بدا عليه أنه من النوع الذي يفضل تجنب المشاكل لكنه لن يفعل ذلك الآن، أم هل يفعل؟ هل يتركها وحيدة ويتبع رحلته؟ وأخيراً تكلم، أزاح

الشاب الأول دراجته بعيداً عن الطريق واضعاً إياها قرب سيارة «فانيسا» بحيث تستطيع «الجاجوار» أن تمر. قال وهو يبتسم:

- هنا أيها الفتيان، اذهباً من هنا. وقف الشاب الأول، وهو القائد على ما يبيدو، في مكانه مبعداً بين ساقيه وواضعاً يديه في حضره في وقفة تحدّ.

- اسمع، لقد أزاحت دراجتي عن الطريق فلماذا لا تتابع رحلتك، فنحن لا نتعرض لك؟

- كلا، لكن هذه الشابة ترفض اعترافكم لطريقها، وأنا شخصياً لا ألومها على ذلك... لكنه لم يستطع إكمال جملته. استدارت «فانيسا» نصف التفاتة، لأن الشاب الثاني كان حتى ذلك الحين صامتاً، ولذلك شاهدته أولاً فصرخت:

- انتبه... ولكن تحذيرها لم يكن ضرورياً. كان الشاب يحمل زجاجة في يده، ولو أنها أصابت هدفها لفقد الرجل الغامض وعيه. لحسن الحظ خابت الضربة. وراقبت «فانيسا» بإعجاب مشوب بالدهشة كيف أن الرجل استطاع أن يقيس على معصم الشاب ويلويها بشدة مع انحساره خفيفة من جسده هو. كان مدحشاً أن ترافق المعركة؛ لأنها جرت كما لو كانت في التصوير السينمائي البطيء، وكانت تشاهد وجه الشاب وقد علت الدهشة، إذ سقطت الزجاجة من يده المتشنج ثم تبعها هو في السقوط.. هنا تدخل الشاب الأول وتقدم مهاجماً. وقالت «فانيسا» لنفسها: «هذه هي النهاية». والتفتت لتبثث عن عصا أو أي شيء للمساعدة. حدث كل شيء بأسرع مما تتصور حيث وصل الشاب الأول مسرعة نحو الرجل الغامض رافعاً قبضة يده للوصول إلى وجه خصمه وواضعاً قوته كلها في هجومه، وشاهدته «فانيسا» وهو يقفز من فوق الرجل الذي انحنى قليلاً إلى الخلف ثم عاد ليجلس على صدر الشاب بسهولة وسرعة. أدركت «فانيسا» أنه يتقن رياضة الجودو، وعرفت الفرق بين مشاهدة اللعبة على شاشة التليفزيون وبين ما جرى الآن... إنه الفرق بين الرياضة والواقع. انتبه كل شيء. نقض سائق «الجاجوار» الغبار عن سترته، وهو ينظر باشمئزاز إلى الجسددين المرميين اللذين يحاولان الوقوف على أقدامهما، ثم خاطب «فانيسا» قائلاً:

- أصعدني إلى سيارتك وتابعي السير. سأتعいく أنا بسيارتي. هيا بنا بسرعة. لم يكن هناك مجال للكلام. أطاعتني دون أن تن فهو بكلمة وأدارات محرك السيارة بيدها المرتعشة، ثم هدأت قليلاً عندما أدركت أنه هو الذي يجب أن يرتجف إذا ما كان هناك سبب لذلك، وليس هي. على بعد ثمانية كيلومترات، وبالقرب من مفترق طرق، أعطى سائق السيارة إشارة ضوئية طالباً منها التوقف، ففعلت وترجلت من سيارتها. الشيء الأول الذي يجب أن تفعله هو أن تشكّره. اقترب منها، ودون أن يفسح لها المجال سألها بلهجة آمرة:

- ما اسمك؟ فماتت كلمات الشكر على لسانها فوراً.

- «فانيسا»، بدأت كلامها، لكنها لم تستطع أن تذكر اسمها الثاني فقالت بصعوبة:

- آآه... «سميث»، قال بنغمة ساخرة وهو يرفع أحد حاجبيه:

- يبدو أنك تجدين صعوبة في تذكر اسمك الثاني! لمعت عيناه بالغضب لبرهة وقالت:

- إنني مضطربة... كانت تجربة مخيفة. وافق قائلاً:

- صحيح. حسناً يا آنسة «سميث» -مشدداً على كلمة «سميث»- أنا لا أتصحّك بالسفر وحيدة في المستقبل... على الأقل في مثل هذه الأماكن. أنت تعرفيين المتاعب التي كنت ستواجهينها لو أن أحداً لم يصل في الوقت المناسب. ووجدت أن عرفانها له بالجميل بدأ يزول بسبب طبعه الحاد، لكنها تمسكت بالجملة الأخيرة التي نطق بها لتنطلق منها وتقول:

- نعم، وأنا شاكرة لك ما فعلته من أجلي.

- عرفت في المقهى ما ينويان فعله، وتبعتكم طول الطريق مع أنني لم أكن أقصد هذه الناحية أساساً.

آه، لقد بدأ يترك تأثيراً غريباً فيها. كان من النادر أن تعجز عن إيجاد الكلمات المناسبة، ومن النادر أيضاً أن تجد رجلاً مغلقاً إلى هذا الحد، بأنه لم يكن يراها على الإطلاق. كان طويلاً القامة بحيث سبب لها إزعاجاً، خاصة أنها طويلة أيضاً، ولم تتعود أن تنظر إلى الأعلى لتخاطب الآخرين، لكنها معه اضطررت إلى

ذلك فقد كان أطول منها، عريض المنكبين، أسمر الوجه، وذا عينين لامعتين بشكل غير عادي حتى خيل إليها أنهما تسخران منها.. لكن هذا غير معقول! وأنهى كلامه قائلاً:

- فاما أن تحضري معلم رفيقة طريق أو أن تتعلمي بعض الكاراتيه. أجبت برد حاسم بدا لها جافاً:

- سأسلم وظيفتي على بعد خمسين كيلومتراً، ومن الصعب في هذه الحالة أن أحضر معي مرببي، أليس كذلك؟ أما بالنسبة إلى الكاراتيه، فقد كنت أعتبر الاسكتلنديين محبين للضيوف... لكنني يجب أن أعيد التفكير في هذا يا سيدى. عليه أن يتقبل رأيها في الاسكتلنديين كما يشاء. بدأت أعصاب «فانيسا» تتوتر، وكلما أسرعت في مغادرة المكان، كان ذلك أفضل لها. فقال لها:

- «كال غرين» يا آنسة «سميث». وشدد على نطق الاسم الذي يؤكد كونه اسكتلندياً.

- أليس من الأفضل لنا أن نواصل السير. واستدارت نحو سيارتها وهي تقول:

- والشابان...؟ أجاب مبتسمًا:

- سوف يستمران في البحث عن مقاتيح المحرك لمدة غير قصيرة بين الأشجار. ليس هناك ما يضحك، ليست سوى ابتسامة كشفت عن أسنان لامعة. ثم تابع قائلاً:

- وحتى لو وجداها فسيتدمان إذا ما حاولا اللحاق بها. ولم يكن متوجحاً، كان يقول الحقيقة. لم تستطع «فانيسا» أن تمنع الكلمات:

- من الجميل أن تكون واثقاً إلى هذا الحد بنفسك. ابتسمت أيضاً وهي تدرك تأثير ابتسامتها في الرجال. إنها الابتسامة التي تسرّ، ولكنها لم تسرّه هو.

- هذا صحيح -ونظر إليها بكربياء- إنك ذات مزاج عصبي يا آنسة، أليس كذلك؟ ربما كنت تفضلين أن أتركهما في مصيبتي بالزجاجة؟

- لم أقصد ذلك. وبدأت تشعر بالارتياخ. من يعتقد نفسه هذا الوحش

المتعجرف؟

- قصدت... لكنها لم تكون متأكدة مما تقدمه الآن. وأنهت كلامها بنبرة حزن:

- يبدو أنك تعتقد أنها غلطني. نظر إليها مجدداً. تعبر غريب جداً منلحظة على ذلك الوجه الأسرع الجذاب:

- ألم يعلمك أحد بأن تغضي طرفك الساحر عندما تكونين في بعض الأماكن؟ - ماذا؟ قالت في نفسها «من الأكيد أنه لم يفكر...» كيف تجرب على هذا القول؟ وماذا تقصد من ورائه؟ وجهها في العادة أبيض اللون وناعم بشكل يتناقض مع شعرها الأسود، أما الآن فقد احمر خداها والتمعت عيناهما البنيتان العامتان بشوارط الغضب.

- دعك من هذه الأقوال. كان يتكلم بهدوء، وكأنه يخاطب طفلًا ثم أضاف:

- لا تقولي لي إنك لم تعطهما نظرة تشجيع حتى ولو غير مقصودة. ورفع يده مسترضاً عندما قال العبارة الأخيرة:

- لكنك لا تستطيعين تجنب الأمر، أليس كذلك؟ فأنت مدركة لجمالي، أنت كاذبة أو مغفلة إذا أنكرت ذلك، وكان يجب أن تعرف أنك ستسببين المتاعب فوراً... صرخت بانفعال:

- لن أقف هنا لحظة أخرى لأستمع إلى أقوالك يا سيد «غرين». ثم استدارت عائدة إلى سيارتها وهي تقول:

- لست أدرى من هو الأسوأ فعلًا. وداعاً. خيم صمت ثقيل. لم ينبع ببناتها شفة ولم يحاول إيقافها. ترى ما الذي كانت تتوقعه؟ نظرت إلى مرآة سيارتها تراقب الطريق خلفها وهي تندحر مسرعة نحو هدفها. وأنه يدخل السيارة بسهولة على الرغم من ساقيه الطويلتين. لم يكن ينظر إليها، بل لم يكن مهمّاً قط. زمت «فانيسا» شفتيها بغيظ. لقد كان شخصية بغية مع أنه أتقذها من وضع لا تحسد عليه. ألقت نظرة أخرى قبل أن تتحجب الطريق سيارته عنها.

شاهدت بصיהם احتراق سيجارة من خلف الزجاج، انقبض قلبهما، هل ينتظر فعلًا حتى يتأكد من عدم وجود أية مشاكل؟ هذا ممكن. لكن مع مواصلة السير،

طفت أفكار أخرى ملحة على ذهن «فانيسا».. أفكار حول المكان الذي تقصده والأسباب التي دفعتها إلى القدوم.

حدث شيء غريب جداً قبل بضعة كيلومترات من «دينستون هاوس». توقفت للحظة حتى تراجع خريطةها وتأكد المنعطف الحاد الذي برب إلى اليمين، والذي يقود إلى طريق يبدو وكأنه ينتهي إلى جبل منعزل موحش. عليها أن تتأكد قبل أن تتبع سيرها، لثلا تجد نفسها في طريق لا يمكنها العودة منه إلا بعد كيلومترات عديدة.. خاصة أن الظلام أصبح حالكا، والغيوم الداكنة تطبق على الأرض متذرة بالطير الغزير. إنه طريقها بالفعل. لقد أشرت على الخريطة بعناية في مكتب المحامي بعد تلقي التعليمات منه. لا يمكن أن تكون مخطئة، فالمنعطف الحاد هو الدرب الذي يجب أن تسلكه. أعادت «فانيسا» الخريطة إلى مكانها وتأكدت خلو الطريق من السير ثم انعطفت يمينا. ومن بعيد، لاحت بشكل غير واضح سيارة تنهب الأرض على الطريق نفسه الذي تركته «فانيسا» قبل لحظات... وتساءلت «فانيسا»، عما إذا كانت هذه السيارة هي سيارة «الجاجوار». من الممكن ذلك، لكن الأمر مستبعد. ثم انشغلت عن التفكير في ذلك «الفارس الأرعن» وهي تتجاوز منعطفا حادا ضيقا يربز أمامها فجأة... وما هي إلا دقيقة حتى كانت «الجاجوار» وراءها. لم يكن أمام «فانيسا» مجال كي تفسح له الطريق لتجاوزها، فالдорب المتعرج الضيق كان يجعلها حذرة وبطيئة. هل هو مستمر في ملاحظتها؟ ربما يريد أن يقول لها شيئا. عند المنعطف التالي، وكان هناك متنع للتجاوز، أعطته إشارة كي يعبر. لكنه توقف، ولم يعد أمامها إلا التوقف. أنزلت زجاج شباك سيارتها. قالت في نفسها «ترى ماذا يريد؟، قال لها:

- هل أنت في الطريق الصحيح؟ كان صوته عميقا وهادئا، وكأن شيئا لم يحصل بينهما.

- نعم. اعتدت أنك ت يريد سؤالي عن شيء ما. أنا متوجهة إلى مكان يدعى «دينستون هاوس»... توقفت عن الكلام عندما لاحظت تعابير وجهه التي تنم عن الدهشة والاستغراب. قالت في نفسها: «ماذا حدث؟ ماذا قلت له؟».

- أنت ذاهبة إلى «دينستون»؟ سؤال بدهشة - لا تقولي لي إنك الآنسة التي تريد تنظيم المكتبة هناك! يا إلهي! وفعلت الكلمات الأخيرة فعلهما. فتحت «فانيسا» باب سيارتها ودفعته بقوة. ابتعد الرجل عن طريقها وهو يساعدها على إمساك الباب. ترجلت ووقفت أمامه متهدية...

- لقد سمعت ورأيت ما فيه الكفاية. أنا لا أعرف ماذا ومن تكون، لكن المكان الذي أقصد لا يعنيك أبداً.. وإن كنت أندمتي من الشابين.. لم يتركها تكمل كلامها. كان ينظر إليها وبسمة استغراب مشوهة بالدهشة على شفتيه قاطعاً بها بصوت صخري كلامها وجهه:

- هدفي من روحك، بذلك لن يفيدك معنـيـ، ولن ينفعك أيـضاـ..  
- أيـهاـ الـ...

- أـرأـيـتـ ماـذاـ قـصـدـتـ؟ـ العـيـنـانـ تـخـرـجـانـ الشـرـ غـضـباـ،ـ وـالـوجـنـتـانـ مـحـقـقـتـانـ..ـ هـدـشـيـ نـفـسـكـ أـيـتـهاـ الـقـطـةـ الـمـتوـحـشـةـ وـأـنـصـتـيـ.ـ أـحـسـتـ «ـفـانـيـساـ»ـ بـأـنـ صـدـرـهاـ يـكـادـ يـنـفـجـرـ وـهـيـ تـحـاـولـ ضـبـطـ نـفـسـهـاـ أـمـامـ هـذـاـ الـمـخـلـقـ الـمـجـنـونـ وـالـمـتـعـرـفـ.ـ كـمـ تـتـمـنـيـ أـنـ تـصـفـ ذـلـكـ الـوـجـهـ الـقـاسـيـ!ـ لـمـ يـعـرـفـ كـمـ كـانـتـ قـرـيبـةـ مـنـ الصـفـمةـ..ـ

- هذا أـفـضلـ.ـ لـيـ كـاـمـلـ الـحـقـ فيـ سـوـالـكـ عـماـ إـذـاـ كـنـتـ ذـاهـبـةـ إـلـىـ «ـدـيـنـسـتـونـ»ـ،ـ فـأـنـاـ أـعـيـشـ هـنـاكـ حـالـيـاـ.ـ نـظـرـتـ «ـفـانـيـساـ»ـ إـلـيـهـ لـلـحـظـاتـ.ـ وـقـالـتـ فـيـ نـفـسـهـاـ «ـهـذـاـ

غير مـعـقـولـ؟ـ هـذـاـ غـيرـ مـعـقـولـ!ـ وـقـالـتـ بـصـوـتـ أـكـثـرـ هـدـوـءـ»ـ:

- الـمنـطـقـةـ الـتـيـ أـقـصـدـهاـ مـلـكـ شـخـصـ يـدـعـيـ الـسـيـدـ «ـمـاـكـلـيـنـ»ـ،ـ وـحـسـبـ عـلـمـيـ هوـ يـقـيمـ.ـ أـجـابـ بـنـعـومـةـ:

- إـنـهـ يـقـيمـ وـحـيدـاـ،ـ باـسـتـشـاءـ الـخـدـمـ وـمـدـبـرـيـ الـبـيـتـ.ـ وـأـنـاـ حـالـيـاـ..ـ ضـفـهـ.ـ لـمـ تـلـاحـظـ «ـفـانـيـساـ»ـ فـيـ اـرـتـيـاـكـهاـ تـرـدـ الرـجـلـ قـبـلـ الـكـلـمـةـ الـأـخـيـرـةـ.ـ مـنـ أـينـ جـاءـتـ كـلـ هـذـهـ الـتـعـقـيـدـاتـ؟ـ نـظـرـتـ إـلـيـهـ.ـ عـلـيـهـ أـنـ تـكـوـنـ شـدـيـدـةـ الـحـذـرـ،ـ فـأـشـيـاءـ كـثـيـرـةـ أـخـذـتـ تـحدـثـ فـجـأـةـ.ـ يـجـبـ أـنـ تـهـدـأـ فـذـكـ سـيـعـطـهـاـ وـقـتـاـ لـلـتـفـكـيرـ،ـ لـكـنـهاـ أـدـرـكـتـ أـنـهـاـ لـاـ تـمـلـكـ مـقـسـعاـ مـنـ الـوقـتـ لـلـتـأـمـلـ وـالـتـفـكـيرـ.

- لـقـدـ فـهـمـتـ.ـ وـحـاـولـتـ أـنـ تـضـعـ عـلـىـ شـفـتـيـهاـ اـبـتـسـامـةـ كـبـيرـةـ،ـ لـكـنـهاـ آثـرـتـ الـابـتسـامـةـ مـؤـقاـتاـ.ـ وـعـنـدـمـاـ جـاءـتـ كـلـمـاتـهـ أـحـسـتـ أـنـ مـخـيـلـتـهاـ هـيـ الـتـيـ أـوـحـتـ إـلـيـهـ بـذـلـكـ.

المسألة لن تستغرق طويلاً - مجرد أسبوع - ثم أخبره بالحقيقة. إنها أشبه بـ. لعنة. ورددت في سرها: «وليس محنن الله على هذه الكذبة» لكن يجب ألا يعرف أحد أسبابها الحقيقة، الرغبة في رؤية ذلك الرجل العجوز الذي دمر حياة والدها.. إنه جدتها «أندرو ماكلين» الذي أنفق الألوف حتى الآن من أجل العثور على الولد الوحيد لابنه المتوفى حديثاً. أعادتها إلى الحاضر سيارة «الجاجوار» التي أخذت تخفف سيرها، فضقطت على الفرامل بسرعة. مر من أمامها قطيعي من الماشية متوجهة إلى أحد القلال. عبرت الخراف المثقلة بالصوف متباطئة عبر الطريق العام، فأسرع الرجل بسيارته وتبعته «فانيسا» دون تردد. نظرت إلى مرآة سيارتها لحظة. كانت عيناهما سوداويتين وواسعتين. تساءلت في نفسها: «هل أخطأت من الأساس في المجيء؟ إلى هنا؟ هل كان والدي سيوافق على ما أفعل؟، لن تستطيع أن تعرف أبداً. لقد كان السيد «مورتون» قلقاً للغاية من خطتها. وارتكتب خطأ أساسياً عندما أخبرها بأنهم طلبوا منه إيجاد شخص مناسب -، جلاً كان أو امرأة - لتوريث مكتبة «دينستون هاوس».

- ها قد وجدتها. أجبت «فانيسا»، موجة عارمة من الارتياح تجتاح جسمها:

- ألا ترى؟ أنا سأذهب. ستقول لهم إنك وجدت شخصاً مناسباً، و... قاطعها السيد مورتون بخفة:

— وماذا سيحدث عندما تكتشفين شخصيتك الحقيقية؟ كيف سأبدو أنا آنذاك...  
المتأمِّل الشريك؟ وفقت «فانيتا» بحزم وقالت:

- كلا، حذرتك أساسا، وأنت تعرف جدية كلامي من أنك إذا أبلغت جدي... - ووقفت عند الكلمة الأخيرة باشمئزاز - إذا أبلغته بال Thur على فسوف أرحل على الفور، وتأكد أنك لن تجدني أبدا. شعر المحامي العجوز بالحيرة، وأحسست هي بالأسف لوضعه. لكن الرغبة في الانتقام كانت أكثر قوة... وأدركـت أنها ربحـت... أصبحـت الآن «فانيـسا كوليـنز»، مع قصة حـيـاة كاملـة أعدـتها لنفسـها إذا ما سـأـلـها أحدـ. ستذهبـ لرؤـية المـكان حيث ولـدـ أبوـها وأمضـي طـفـولـته الأولى، وستـرى الرـجـلـ الذي سـمعـتـ عنهـ الكـثـيرـ منـ الكلـماتـ

- استغربت كثيرا في البداية؛ لأن اسم الوظيفة الجديدة حسب ما أعتقد هو -وفرك مقدمة جبينة ياصعيده وهو يحاول التذكر- أجل اسمها الآنسة «كولينز». وقطع كلامه مبتسمًا وكأنه يقول: «والآن ما هي الحقيقة؟». فأعطتها الابتسامة الأخيرة وقتاً هي، بأمس الحاجة إليه للاستعداد والاحاجة.

- هذا صحيح - قالت موافقة - عندما أخبرتك أن اسمي هو «سميث» ، كنت ببساطة غير راغبة بإعطاء اسمي الحقيقي لشخص غريب . رفع أحد حاجبيه وقال : - بالتأكيد .. بالتأكيد . وأفاف بصوت ناعم :

- أنا لا ألومك، فهناك نوعيات غريبة من الناس أخذت تتردد على هذه المنطقة مؤخرًا. لكنها كانت متأكدة أنه لم يصدقها. الشيء الوحيد الذي فكرت فيه هو: هل من الضروري أن يصدقها؟ أتاحت «فانيسا» لنفسها بعض الراحة كي تقلب المشكلة من كافة جوانبها، عندما كانت تتبعه بسيارتها على الطريق الذي أخذ يضيق ويتعرج أكثر. قاد سيارته «الجاجوار» ببروية آخذاً بعين الاعتبار عدم معرفتها المسبقة بالمكان. وكانت قيادته هادئة و Maherah بحيث تتبعه «فانيسا» بثقة وارتياح. إذن، هو ضيف في «دينسنون هاوس»، لكن إلى متى؟ أحسست بضيق. وعاد إلى ذاكرتها الحوار الذي جرى في مكتب السيد «مورتون»، واتضحت لها الأمور بشكل لم تكن مستعدة له بعد. هي تعرف أن عليها التفكير في الأمر.. لكن ليس الآن، ليس الآن. والحق عليها صورة السيد «مورتون»، الفرق وهو يقول بصوت متوتر:

- لا أستطيع أن أوفق على الخدام بأى شكل من الأشكال!

- لست أساك المموافقة على أي شيء، كانت «فانيسا» قادرة حتى على تذكر  
رنة صوتها في ذلك الوقت: هادئة وعملية ومصممة على إزاحة أي اعتراض؛  
لأنها حسمت أمرها سلفاً.

— لكن الأمر يبدو لي... — ورفع السيد «مورتون» مجموعة أوراق— وكانت ذاهبة إلى هناك لانتهاء شخصية أخرى.

- لقد شرحت لك الوضع. وأعطيته ابتسامة طويلة. لم يكن قادرًا على مقاومة مثل هذه الابتسامة وسمعته يسعل بارتباك، فأضافت:

القاسية. ستجعله يحبها ويتعلق بها، بعد ذلك ستختبره بشخصيتها الحقيقية وترافق تعابير وجهه... ثم ستغادر منزله ولا تعود إليه أبداً. عددهُ ستعرف راحة البال لأول مرة بعد سنتين كاملتين من العذاب. فمنذ سنتين أخبرها والدها — وهو على فراش الموت — قصة الرجل القاسي الذي طرده؛ لأنَّه أراد أن يتزوج الفتاة التي أحبَّ ولن يستطع ذلك التي اختارها هو له. والآن، مات الأب والأم معاً. أمها ماتت مكسورة القلب بعد قليل من وفاة زوجها، وجدها يتحمل المسؤولية كاملة... شاهدت الرجل الذي يقود السيارة أمامها وهو يشير إليها للاتجاه بينما داخل طريق محفوف بالأشجار الكثيفة، فتبعته. هذا الشخص استطاع الإيقاع بها عندما سألاها عن اسمها، فخلال ثوان معدودة نسيت الشخصية التي يجب أن تتلبيها، وهذا ما يجب ألا يتكرر أبداً. عليها أن ترافق «كال غرين» هذا الرجل الأسمري القوي الذي أعطاها انطباعاً بأنه يستطيع قراءة أفكارها أيضاً. كان الطريق ضيقاً، والأشجار العالية الكثيفة تظلل كل شيء بظلام طاغٍ لا يتغير. ماذا ستجد هنا؟ إنها لا تملك صوراً فوتوغرافية يمكن أن تعطيها انطباعاً عن المكان، فقد أتلف أبوها كل ما يمكن أن يذكره بالماضي. وهي لا تعرف كيف سيكون مظهر جدها، وإن كانت الصورة الخيالية التي تحملها عنه لاتسر القلب. عما قريب ستعرف كل شيء، وسيقتفي زمن الخيالات والتوقعات. عبرت بوابة حديدية واسعة بيضاء اللون. القسم الأول من الطريق مرصوف بالحجارة، ثم يأتي قسم معبّد بحبيبات صغيرة من الحصى. أعطت سيارة «كال غرين» تنبيهاً متقطعاً، فاعتقدت «فانيسا» أنه يشير إلى إنسان ما، لكنها شاهدت مجموعة من الأرانب الصغيرة تفر من وسط الممر. الغرفة شقتها قليلاً. على الأقل هو لا يحب دهس الحيوانات، وهذه نقطة صغيرة لصالحه. إنها لم تعجب به، وهذا الشعور كان متبدلاً، فتصرّفاته معها عكست هذا الأمر. لقد كان فطا، هكذا تخيلت. لم يكن من المناسب أن يكشف هويتها ويفسد خطتها، عليها أن تعامله بحذر بالغ خلال الأسابيع القليلة المقبلة، وبعد ذلك لن يعود بذات الأهمية أبداً. وأخيراً شاهدت البيت فاملاً قلبيها بالحزن العميق. إذن هذا هو بيت أبيها. كان جميلاً جداً بحجارته

الرمادية البارزة ونوافذها الواسعة ورواقه ذي الأعمدة الرخامية. عدة درجات تؤدي إلى الباب حيث الطلام الخفيف يخطي المدخل المنسوب. وعندما وقفا أمام الباب أثير البيت بضوء ساطع هو مزيج من الأبيض والأزرق. أوقفت «فانيسا» محرك سيارتها. ولبرهة من الزمن أحست برغبة عارمة في الهرب.

— هيا بنا إلى الداخل. وفتح الرجل باب سيارتها معيناً إياها إلى أرض الواقع:

— ستمطر خلاً دقات. أين حقائبك؟

— في الصندوق. سحبت المقابض من محرك السيارة وناولته إياها. أخذها وتوجه إلى الخلف وفتح الصندوق وحمل حقيبتيها. كانت «فانيسا» محترارة بين الرغبة في شكرة وبين الانزعاج من الطريقة الباردة التي تناول بها المقابض، كأنه فقد صبره معها وأصبح غير مهمٍ يتبرير تصرفاته. حملت سترتها وحقببت يدها، وقررت أن تترك الأمور على علاتها، على الأقل حالياً. قادها إلى المدخل عبر سلم حجري، ثم فتح باباً ضخماً.

— أهلاً بك في «دينستون هاوس» يا آنسة «كولينز». كان من الصعب عليها أن تعرف معنى رنة صوته، لكنها أكيد خالية من الترحيب الفعلي.

— شكراً لك يا سيد «غرين». قالت ذلك مبتسمة، بدأ التحفي في الآن، فلقد فات أوان التراجع، وعليها أن تستمر في خطتها مهما كلفها الأمر. هزت رأسها وكأنها تطرد التعب عن وجهها وسألت:

— ماذا علي أن أفعل الآن؟

— سارشدى إلى غرفتك أولاً فترتبين أغارشك، ثم نتناول العشاء.

— ولكن أليس من الأفضل لقاء السيد «ماكلين» قبل أن أصعد إلى غرفتي؟ رفع حاجبه الأسود قائلاً:

— ألم أقل لك إنه خارج البيت الليلة؟ سيمعد ظهر غد على ما أعتقد، وحتى ذلك الوقت سأهتم أنا بوجودك. أحست بنبرة سخرية في صوته. هذا خيالها بالتأكيد، لكنها لم تكن مررتاحه. وتساءلت بنعومة:

— وماذا كان سيحدث لي لو لم أصادفك في الطريق؟

- المشرفة على البيت وزوجها السيد «بانكس»، كانا سيهتمان بك. رفع حقيبتيها وسار نحو السلام المنتصبة في منتصف القاعة الكبيرة، وصلا إلى ممر تخطيه النوافذ الزجاجية الملونة، وعلى الجانبين ثريات من الذهب والعنبر. وبينما هي سائرة إلى جانب الرجل، أضاء البرق النوافذ فأحست بالخوف والغربة. لعلها ارتجفت، إذ لاحظت نظرته إليها قبل أن تهدأ.

- هل أنت خائفة من العاصف؟ سألها بعطف.. لو أن هذا العطف حقيقي؟ لكنه بدا مسروراً أكثر منه قلقاً. أجبت:

- لا، أبداً... وأنت؟

- أنا أقدر البرق تقديرًا عاليًا، فقد شاهدت ما يمكن أن يفعله، لكنني لا أخافه.

- من الصعب عليك أن تعرف حتى لو كنت تخاف. ثم قالت «فانيسا» بنعومة وطراوة:

- أقصد، هل تخاف من أي شيء؟

كانا قد وصلوا إلى أعلى الدرج. وعلى الجانبين معوان واسعن غطيت أرضيتها بالبسط التميمية. وقف «كال غرين» ووضع الحقيبتين على الأرض بحركة بطئية مقصودة. قال بصوت منفعل:

- علينا أن نجد أسلوبنا للتعايش إذا ما كنت ستقضين وقتاً هنا. لو كنت في مكانك لرأيتك لسانياً جيداً، فهو سليط جداً بالنسبة إلى آنسة رقيقة مثلك. أحسست وكأنه صفعها. وبصعوبة كبيرة استطاعت أن تجيبه بهدوء:

- هل تهددني؟ بدت عليه الدهشة وقال:

- أبداً... إنني أبدى ملاحظة فقط هل أبدو كمن يهدد امرأة؟ كانت السخرية واضحة في صوتها.

- لا أعرف ما فيه الكفاية حتى أحكم على ذلك. ردت على هجومه بسرعة وقالت:

- في الواقع لا أريد الحكم عليك، لكنك تستطيع أن تكون فطا حتى بدون أن تحاول. فهذا ما فعلته فعلاً بعد إنقاذي. فقد حاولت أن تقول إنني شجعت الشابين على معاكستي. قاطعواها بحدة:

- لم أفعل ذلك، فقط افترحت عليك أن تغضي عينيك الساحرتين عندما تكونين في مكان ما.. ردت عليه بسرعة:

- وكأنني كنت أحاول استعمالهما، أو أي شيء من هذا القبيل. كان موقفاً غريباً أن تكون هناك. هو وهي فقط في ذلك البيت الضخم. تناقش الرجل الغريب وتحاول أن تنتصر عليه ولو لمرة واحدة. تنفست بعمق لستعيد رباطة جأشها. ضحك وقال:

- ألم تحاولي استعمالهما؟ فاندفعت «فانيسا» إليه رافعة يدها إلى ذلك الوجه البارد:

- كيف تجرؤ.. ولم تستطع أن تكمل. أمسكتها وجمدها دون جهد يذكر. نظر إليها بعينين لامعتين بينما كفاه تمكّن ذراعيها بقصوة وبرودة وهو يقول:

- أنت قطة متوجّحة بالفعل، ثم قال بهدوء:

- ما هذه الطياع التي تحملينها؟ أنت تدركين أنني قادر على ترويضك... صرخت بصوت مخنوّق:

- اتركي

- سأتركك عندما أكون جاهزاً. أريدك أن تستمعي إلى لدقّيقـة، فأنت بين يدي الآن.. وحاولت «فانيسا» أن تخلص نفسها، لكن قبضتيه كانتا قويتين للغاية.

قالت وهي تتنفس بصعوبة:

- إنك تؤذيني. كانت دون حيلة على الإطلاق. كم تكرهه الآن! كيف يتجرأ على ذلك؟

- إذن أهديه قليلاً. لن أدعك تصفعيني، وأعرف أنك ستتعلمين ذلك إذا ما أطلقت ذراعيك. وإلى أن تهداً أعمابك، سأظل ممسكاً بك.

- إذا لم تتركي فلسوف أركّل يقديمي. وكانت تعني ذلك تماماً. أجابها بصوت ناعم وصلب:

- جرببي ذلك. أريدك أن تجريبي ولو لمرة واحدة، وأعدك بأنك بعدها لن تتورى بسرعة أبداً. أصابتها كلماته الباردة بما يشبه الجمود، وأحسست برعشة تسرّي في أوصالها. ماذا يمكن أن يفعل؟ وتندركت كيف استطاع أن يواجه الشابين

الذين هاجماها... فشعرت بالخوف. ودون أن تعي خففت من توتر جسمها. فكرت في أنه من الأفضل عدم مقاومته كي لا تعطيه المجال لمارسة بعض ضربات الجودو ضدها.

- هذا أفضل. لقد توقفت عن المقاومة. خلف «كال غرين» قبضتيه عن ذراعيها وأصبح وجهه أقل قسوة.

- تذكرني دائماً أنت لا تستطيعين مقاتلتي، ولذلك لا تجربني! قالت بصوت ضعيف:

- أنت مقرئ. ألن تطلق سراحني؟

- هل تريدين ضربي؟

- كلا. اختفي الضغط. ذلكت «فانيسا» ذراعيها حيث كانت قبضتها، ونظرت إلى حقيبتتها. خانتها قواها في حملهما. ولسبب غير معروف شعرت بأن ذراعيها ضعيفتان كما لو أن عضلاتها ترفض العمل. سالت بجزء:

- ماذا فعلت بي؟ إنني لا أستطيع...

- لم أفعل شيئاً. مادمت ضعيفة إلى هذا الحد، أقترح عليك تعلم بعض وسائل الدفاع عن النفس. وهكذا إذا ما هاجمك أحد المتشددين في المستقبل، تستطيعين القضاء عليه. قالت بسخرية واضحة:

- سأذكر أن التحق بإحدى مدارس تعليم الجودو عندما أعود إلى «لندن». نظر إليها بحزن:

- لا حاجة إلى الانتظار. يمكنك المباشرة الآن. سأكون مسروراً عندما أدركك شخصياً. وابتسم. ولم تعرف «فانيسا» كيف تتقبل كلماته وابتسامته. نظرت إليه ببرود وقالت:

- هل أذهب إلى غرفتي الآن؟ أريد إبدال ملابسي.

- بالتأكيد. من هنا الطريق. حمل حقيبتها وسار أمامها. وفيما هي تتبعه، أخذت تفك في العرض الذي قدمه لها. لا يمكن أن تسمح له بتلقيتها أي شيء... فجأة خطرت على بها الفكرة التالية: سيكون الأمر مثيراً للاهتمام بالفعل.. لكنها سرعان ما طردتها.

أصيبيت «فانيسا» بصدمة قوية عندما شاهدت الغرفة المخصصة لها، لكنها أخفت مشاعرها حتى غادر «كال غرين» المكان كي لا تعطيه فرصة الشماتة من دهشتها البالغة. كانت الغرفة جميلة جداً، عالية السقف وواسعة تماماً، وتطل على مقدمة المنزل من خلال نافذتين عريقتين تكشفان الحدائق والسهول التي قطعتها «فانيسا» قبل قليل. اتجهت إلى إحدى النافذتين لتأتمل المناظر البدعة الممتدة. وقفت صامتة أمام الستائر الخملية الخضراء. الليل أصبح أكثر حلاوة، والعواصف الرعدية تزمرج من بعيد... انهرت الطر غزيراً بحيث أحسست أن أخضرار الأرض انعكس على الضوء الخافت في الخارج. تركت «فانيسا» النافذة لتأتمل أثاث الغرفة المصنوع كله من خشب السنديان المصقول. كان هناك مقعدان وثيران وسريرها المفروش بقطا، مزين بالورد. وفي إحدى الزوايا استقرت ساعة حائط أثرية وإلى جانبها طاولة عليها زهرية... وكلها قديمة وغالبة الثمن. ووجدت حتى جهاز تليفزيون احتل الزاوية المجاورة للنافذة. أثاث الغرفة يدل على ذوق راق واهتمام ملحوظ. فجأة شعرت ببعض الذنب، لكنها تخلصت منه بسرعة. من غير المناسب أن تشعر بذلك ولم يمض على وجودها في المنزل أكثر من خمس دقائق. لقد اتخذت قرارها نهائياً، وعليها أن تستقر في مهمتها... من أجل أبيها. خطت وجهها براحة يديها عندما أحسست بالم حاد. إنه الألم الناشئ عن إدراكها بأنها مهما فعلت، فإن كل شيء قد فات الآن. تنفست بعمق واتجهت إلى مرآة تغطي خزانة بالقرب من السرير. فتحت الخزانة، فإذا بها أمام حمام متكملاً. لا شك في أن «كال غرين» تعمد عدم الإشارة إلى الحمام من أجل دفعها إلى سؤاله وبالتالي إحراجها، لكنها أسقطت هذه الفكرة من رأسها فوراً. كان الحمام بمثابة جمال غرفة النوم. المرأة تغطي معظم الجدران، ماعدا النافذة التي تطل على غابات كثيفة. تلقت «فانيسا» حولها بارتياح. كم كان جميلاً لو أنها فقط! يجب ألا تفكر بهذه الطريقة، خرجت من الحمام

بحزم وأغلقت الباب خلفها. سوف ترتب ملابسها وتستحم ثم تتهيأ للعشاء، خيم جو من الهدوء والروعة على الغرفة عندما أضاءت الأنوار الموزعة بشكل مناسب. أغفلت «فانيسا» الستاير، وفتحت حقيبتها وبدأت عملية الترتيب. عندما نزلت إلى القاعة الكبيرة لم تسمع أي صوت سوى حركات رقصان ساعة الحائط. أضيئت ثريا واحدة فأعطت نوراً برتقاليّاً انعكساً على الجدران والمقاعد الخشبية الثقيلة. كانت العاصفة الرعدية قد انتهت، ولم تتبق سوى بعض حبيبات من المطر تضرب النوافذ بين حين وآخر؛ لذلك تشجعت وتوجهت إلى الباب الخارجي وفتحته. ألت نظرة متأملة على الحديقة المشبعة بال قطر.

احسنت بقشعريرة خفيفة عندما جاءها صوت من الخلف:

ـ لا أعتقد أنك تفكرين في نزهة في مثل هذا الوقت؟ استدارت بيده. عرفت صاحب الصوت على الفور. لم تسمع في حياتها صوتاً يشبه صوته الهادئ العميق مع تلك الرنة الساخرة التي تبدو واضحة عندما يخاطبها... وهذا ما كان يزعجها، لكنها لن تظهر ذلك. أجبت:

ـ كنت أتأمل فقط. عادت إليها صورة شجارها الأخير. ما زالت تحس بالوخز في ذراعيها حيث أمسكتها بقبضتيه القويتين. عليها أن تكون حذرة تماماً مع السيد «كال غرين»، الآن وكل أوان. كان قد غادر ملابسه إلى سترة مريحة مع سروال مناسب وقميص مفتوح عند الصدر. وأدركت عند رؤيته -على الرغم من شعورها نحوه- بأنه جذاب للغاية، فالسترة أظهرت منكبيه العريضين، واستغرقت كيف جاءها الانطباع الأول في المقامي بأنه من النوع الذي يهرب من المشاكل. كان يبدو واثقاً بنفسه تماماً. نظرت «فانيسا» إلى نفسها، لقد بدللت هي أيضاً ملابسها إلى زي أزرق اللون كان يشعرها بالارتياح دوماً. كانت مشوقة القامة بغير امتلاء، وقد أبرز اللون الأزرق نضارتها بشرتها الوردية. أرادت أن تبدو في أحسن صورة كي تستعيد ثقتها بنفسها، خاصة أمام ذلك الرجل الذي ما لبث أن سألاها:

ـ هل أنت جائعة؟ السيدة «بانكس» تريد أن تعرف.  
ـ أجل، لكنني لا أريد أن أشغلها... قاطعها قائلاً:

ـ لن تشغليها، فالعشاء جاهز. أجبت بنعومة واضحة مع أنها لم تكن تريد ذلك:  
ـ قل لي، هل ترك أحداً يكمل كلامه؟ أجاب ضاحكاً:  
ـ ليس هناك وقت للكلام الفارغ، إذا كنت تعصدين ذلك، فأنا أريد أن أطرق لب الموضوع مباشرة. وافتقت بهزة خفيفة من رأسها:  
ـ فهمت ماذا تعني، وعلىي أن أتذكر ذلك. لكنني سأرى كيف تكون ردة فعلك عندما يقاطعك أحد ما. رفع «كال» حاجبيه مستغرباً:  
ـ لا شك في أن الجوع يجعلك عصبية المزاج. هيا بنا إلى غرفة الطعام، فستشعررين بالراحة بعد الأكل. ولمن ذراعها خفيها وهو يدخلها على الطريق.  
ـ أبعدت «فانيسا» ذراعها بهدوء وقالت:  
ـ شكر لك، فأنا لست طفلة. سأتبعك إلى المائدة إذا ما تقدمت الطريق. أغلق الباب خلفه بسرعة:  
ـ حسناً، من هنا الطريق. سار أمامها متوجهًا إلى يمين القاعة، وعبر عدة أبواب مغلقة حتى وصل إلى غرفة طعام واسعة فيها طاولة تكفي لحوالي خمسة وعشرين شخصاً. غاص قلبها بين ضلوعها: هنا ستتناول عشاءها، بالنسبة إليها كان يكفي طعام خفيف في غرفتها. لكن الأسوأ على الطريق، فعلى أحد طرفي الطاولة شاهدت كرسيين فقط.  
ـ كرسيان؟! ونظرت إليه. ابتس و قال:  
ـ نعم، كرسيان. وأضاف متتابعاً:  
ـ لم أكن لأسمح لك بتناول الطعام وحيدة.. أليس كذلك؟ أجبت بلهجة غير مبالغية:  
ـ لا تستطيع فعلاً؟ كنت أعتقد أن الأمر سيروق لك!  
ـ أنا مضيقك الآن وحتى عودة السيد «ماكللين». تنبهت لرنة سخرية خفيفة في صوته العميق. تنفست بعمق ورددت ببرود واضح:  
ـ أي كرسي لي؟ سحب الكرسي القريب منها وقال:  
ـ تفضلي واجلسي. وما إن استقر بها المكان حتى دخلت امرأة قصيرة القامة

هدرها بالفعل عندما حذرته من أنها ستتركه بقية. لعله كان على حق. وشعرت بشيء يرتعش داخل جسمها... شيء من الحقيقة، مع شعور آخر لم تستطع تحديده جعل قلبها يخفق بسرعة. ومهمها يحدث الآن فقد حذرها سلفاً. عليها ألا تحاول التورط معه أبداً. ومع أنها وصلت إلى هذه القناعة، إلا أن سؤالاً آخر ألح عليها: هل سيكون الأمر صعباً؟

- وهذه غرفة زجاجية خاصة للنباتات. كان «كال غرين» يربها أحياء المنزل. لم تجد في تصرفاته ما يمكن أن يعطيها مجالاً للشكوى. رددت الغرفة صدى صوتيهما وهما يدخلان فيها. كان الجو دافئاً ورطباً. شاهدت العديد من النباتات الغربية الموضعية في أحواض فخارية مختلفة الأحجام، وكذلك كومة عنب كبيرة تتسلق الحائط وتتمتد على امتداد مساحة السقف الزجاجي. نظرت إلى أعلى فللمح عنقوداً من العنب يختبئ تحت الأوراق الخشنة. فقالت بصوت خافت:

- إنه رائع. وافقها قائلًا:

- رائع جداً. كنت متاكداً من أن المكان سيعجبك. سخرية خفيفة في صوته، لكنها شعرت بها على أي حال. يا له من رجل كريه! نظرت إليه. عليها أن تحافظ على هدوئها؛ لأنها إذا اضطربت فسوف... قالت بضموره:

- أتفنى أن أرى المكتبة، ألن تقدوني إليها؟ كان العشاء ممتازاً على الرغم من بطء الخدمة. وقبل أن يتناولوا القهوة في الصالون الكبير أصر «كال» على أن يأخذها في جولة داخل البيت.

- بالتأكيد المكتبة هي خطوتنا المقبلة. شاهدوا معاً الصالون الكبير والمطبخ الفسيح، والعديد من الغرف الصغيرة... إحداها تستعمل كمكتب عمل وأخرى تضم آلة كاتبة وأوراقاً مختلفة. منعها «كال» بأدب من البقاء طويلاً في هاتين الغرفتين، فحبست في نفسها عدة أسلحة سترطرحها في وقت لاحق. انبعث هواء، حار عندما فتح باب غرفة النباتات وخرج منها إلى الممر. سمعته يغلق الباب خلفه ثم يقول:

- سنتوجه شمالاً عند آخر الممر، غريب كيف يحس الإنسان تجاه شخص

ذات شعر أشيب، ترتدي فستانًا أسود اللون، وهي تدفع عربة الطعام أمامها.

حدقت إلى «فانيسا» قبل أن تخطأب «كال»:

- هذا هو الحساء، من الأفضل أن تتناوله ساخناً.

- إنني أعرف ذلك. ابتسما لها بعذوبة أدهشت «فانيسا»، ثم قال:

- هذه «فانيسا كوليفرز» التي ستشرف على ترتيب المكتبة. هزت السيدة «بانكس» رأسها وعلى شفتيها ظلال ابتسامة:

- حسناً جداً. لقد مللت من الكتب التي تملأ المكان. حدقت مرة أخرى إلى

«فانيسا»، قبل أن تضع الصحن على المائدة ثم تغادر الغرفة. ولاحظت «فانيسا» أن لهجتها عامية واضحة. كان الحساء المصنوع من عصير البندورة (الطماطم)

طيب الطعم للغاية. انتظراها «كال» حتى بدأت قبل أن يتناول ملعقتها:

- إن كلامها أقسى من أفعالها. قال وكأنه لاحظ استغراب «فانيسا»:

- إنها لم تقصد الملل من الكتب بل من عدم ترتيبها.

- بالتأكيد... بالتأكيد. ورفعت حاجبيها بدهشة مصطنعة فلم يكن وحده قادرها على افتعال الاستغراب.

- أنا لم أتصور عكس ذلك. وانحنت مجدداً نحو الحساء. تناولت «فانيسا» قطعة من الخبز المحمص الذي أحضرته السيدة «بانكس» مع الحساء. كان

الخبز طازجاً وساخناً، والرائحة الشهية تبعثر منه. وأدرك كم هي جائعة، وقررت في نفسها لا تدع «كال غرين» يفسد عليها وجبتها مما قال أو فعل.

في الحقيقة كان «كال» منشغلًا بنفسه بحيث لم يرفع نظره إليها. استطاعت أن تراقب بحذر وجهه وهو منحن نحو الحساء، وقد انعكس ضوء الشمعدان الناري على شعره. هناك شيء مؤثر في ذلك الوجه. ولم تستطع «فانيسا» أن

تفسر لماذا لم تره قوياً من قبل. لعل النظرة الأولى خادعة دائمًا، وهذا بالفعل ما حدث. فالطريقة التي تعامل بها مع الشابين تؤكد قوته. ووجأة خطر على

باليها شيء جعلها تضطرب. إنه لم يكتف بعدم الخوف منها بل كان يستمتع بالقتال معهما. عادت إلى صحن الحساء لتخفي اضطرابها، إذ تذكرت ما

حدث لها معه في المر العلوي. أين فرصتها في التغلب على رجل مثله؟ لقد

لا يحبه؟ كان خلفها تماماً، أحست بذخالت في ظهرها وكأنها تتوقع منه أن يهاجمها. ثم قفزت وهي تصرخ عندما أحست بلمسة على ظهرها. أخذ يضحك:

- هل أفرعوك؟ أنت ذاهبة في الاتجاه الخاطئ. رجاء من هنا. تجاوزت وهو يمسك بذراعها ليدلها على الطريق. استدارت بخضوع. قالت لنفسها: «صرت أضطرب كهرة صغيرة كلما كان قريباً مني. يجب أن أوقف هذه المهللة وأسيط على نفسي... ولا سيعرف الحقيقة»، فتح أحد الأبواب. دخلت إلى المكتبة ونظرت إلى كل اتجاه. أحسست بقلبه يغرس من شدة التقزّز. ماذا توقع هنا، مكتبة منظمة حيث الكتب تحتل رفوفاً جميلة؟ الأمر ليس كذلك في هذا البيت. مئات ومئات من الكتب المعثرة في كل اتجاه، والتي تصل الأرض بالسقف بفوضى مرعبة.

- هذه هي المكتبة فماذا كنت تتوقعين؟ كان يراقبها، ولا حظت في عينيه اللامعتين شعاعاً من السخرية والتشفي. هزت «فانيسا» رأسها باستسلام واعترفت:

- كنت أعتقد... الواقع أنها أكبر قليلاً مما تصورت. بدت ابتسامة خبيثة على شفتيه:

- الحقيقة أنها أكبر بكثير. على كل حال يبدو أنك قادرة على التعامل معها، لكنك محتاجة إلى ملابس قديمة لأن بعض الكتب مغطى بالغبار منذ سنوات. كان هناك نوع من التشفي في نبرته. نظرت إليه بحدة. إنه يستغل قرارها بعدم الانجرار إلى مواجهة معه كي يثير أعصابها، وهو يدرك تماماً أن تصرفاته تجعل الأمور أسوأ... ومع ذلك بلعت ريقها بصمت، ثم أجبته بثقة:

- سوف أبدأ غداً، أؤكد لك أن بعض الغبار لن يزعجني أبداً. ابتسمت وهي تنظر إليه من أسفل إلى أعلى، وتتصوره غارقاً في غبار مئات الكتب. سيدو شيئاً للضحك... لكنها لم تجرؤ على ذلك.

- حسناً جداً -رفع أحد حاجبيه وتتابع قائلاً- هيا بنا، ساريك القبو الآن ثم نتناول القهوة. يجب ألا نترك السيدة «بانكس» تنتظر أكثر.

- القبو؟ هل يعتقد أنها تريد رؤية الفحم أو مواد التموين؟ وأمسكت ضحكة كادت تفلت منها.

- صدقيني، سيعجبك المكان جداً. هيا بنا من هنا. تقع السالم المؤدية إلى القبو في الجهة الخلفية من المنزل. وكانت «فانيسا» تشعر بالضياع طيلة جولتها في البيت الكبير... فهذا بيت أبيها... هنا ولد وترعرع ولعب...

- سأسر في المقدمة. فالسلام ضيقة وشديدة الانحدار. هل ترين طريقك؟ - نعم، شakra لك. الجدران مطلية بلون أبيض. والسلام حجرية مغطاة ببساط سعيف بحيث لا تقاد تسمع وقع خطواتهما. سارت «فانيسا» خلف «كال» حتى وصلت إلى معر تُضيّنه أنوار خفيفة شاحبة، وتطلّ عليه عدة أبواب كلها مغلقة. تلفت حولها بسرعة عندما خطّرت في ذهنها فكرة أنه قد يحتاجها في القبو. الفكرة غير معقوله بالتأكيد، لكن مع مقاجآت مثل هذا الرجل كل شيء محتمل.

- من هنا. هذا ما أردت أن أريك إياه. فتح «كال» الباب البني الواقع إلى الشمال. وترددت «فانيسا» في الدخول. لكنها عندما فعلت أصيّبت بدهشة شاملة، إذ ما إن أشهي الغرفة حتى شاهدت شيئاً لم تكن تتوقعه قط، ولم تجد إزاءه سوى الدهشة. وجدت نفسها في غرفة رياضة واسعة مزودة بالحجال والقضبان الحديدية وأحصنة القفز وأدوات رفع الأثقال. وفي إحدى الزوايا دراجة ثابتة للتمارين البدنية. استدارت «فانيسا» نحو «كال» وقد زالت من نفسها للحظات كل العداوة تجاهه، وقالت:

- إنها رائعة جداً.

- السيد «ماكلين» رياضي مداوم. يأتي إلى هنا مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً. تقدم «كال» نحو فراش إسفنجي في أحد جوانب الغرفة وقال:

- هذا فراش لرياضة الجودو. السيد «ماكلين» يجيد هذه اللعبة أيضاً. نظرت إليه وتساءلت:

- هل أنت مدربه؟ هز رأسه نافياً وقال:

- كلا. أنا لم أدرّبه. لكننا نتمنى معاً. إنه في حالة ممتازة بالنسبة إلى سنه.

«فانيسا» تعرف كم يبلغ جدها من العمر. عرفت ذلك من أبيها. إنه في السادسة والستين. لكن من المفروض أن تجهل ذلك، وقد تكشف هويتها الحقيقة إذا لم تكون حذرة في مثل هذه الأمور.

- كنت أعتقد أن السيد «ماكلين» عجوز جداً. نقلت نظرها بين الفراش وبين «كال»، ولاحظت الحدة في نبرته عندما أجابها:

- إنه في منتصف الستينيات على ما أعتقد، وهذا لا يعني أنه عجوز جداً. لماذا نظر إليها بهذا الشكل؟ لقد بدأت تشعر بعدم الارتياح. هل هو شعور المجرم بأنه سينكشف بين لحظة وأخرى؟ وغيرت «فانيسا» مجرى الحديث لإخفاء اضطرابها فقالت:

- الآن فهمت عرضك بتدربي... فكل شيء موجود هنا! لكنها ندمت على كلامها لأنها كانت تحاول نزع تلك الفكرة من رأسها.

- أما زلت تتذكرين العرض؟ هل تريدين الدرس الأول الآن؟ تجاوزت الأمور الحد. حاولت «فانيسا» أن تبتسم بصعوبة وهي تقول:

- بالتأكيد لا.. فأنا لا أتوقع.. قاطعها بهدوء:

- خائفة؟

- لقد شاهدتك خلال قتال حقيقي، وهذا يكفي. لربما شئت بك حماستك بعيداً. أقصد، لا أريدك أن تشعر بالذنب إذا ما حدث... إن كسرت ذراعي مثلاً. ابسم برقه وهدوء وقال:

- أؤكد لك أنني سأكون حذراً جداً.

- أنا متأكدة من حرصك، لكنني لا أريد الآن. استدارت «فانيسا» متوجهة نحو دراجة التمرин. فوجئت بدـ«كال» يمسك بذراعها ويوثقها بسحولة. نظرت إلى أصحابه القوية حول ذراعها وقالت بحزم:

- ارفع يدك عنني!

- أجبريني على ذلك. رمقته باستغراب شديد، فيما كان يتبع قائلاً:

- لو كنت أحمل نيات سيئة تجاهك لما صمدت لحظة أمامي. عليك بتعلم بعض أسس الدفاع عن النفس، وسيكون هناك عنصر مفاجأة يكفي الإنقاذ

مني. ظلت «فانيسا» جامدة في مكانها للحظات، ثم قالت:

- لماذا أنت مصمم على تدريبي؟

- لأنك واجهت وضعاً خطيراً جداً في طريقك إلى هنا؛ إذ ليس لديك أية فكرة عن سبل المواجهة... وأيضاً فأنا لا أحب النساء اللواتي لا يستطيعن الدفاع عن أنفسهن. ورفع قبضته عن ذراعها تاركاً لها حرية الذهاب، لكنها لم تتحرك. ففي كلامه كثير من الحقيقة. وعلى الرغم من عدم الإعجاب المتداولاً بينهما إلا أنه يعني ما يقوله. قالت بعد تردد:

- إنني أستطيع حماية نفسي. إذا هاجمتني الآن فسوف أرفع قدمي وأركلك بشدة... قاطعها قائلاً:

- ... سوف تجدين نفسك ملقاة على ظهرك قبل أن تصل قدمك إلى هدفها. ولما رأها متربدة وغير مصدقة تابع قائلًا:

- تريدين إثباتاً؟ إذن هيا جربي... هيا. اندھشت وقالت باضطراب:

- ربما... ربما أؤذيك. أجابها ضاحكاً:

- سوف أغامر... هيا جربي. هزت رأسها موافقة لأنها تدرك أنه يقول الحقيقة:

- لا أريد أن أجرب. إنني أصدقك. والتقت إلى الخلف حيث فراش الجودو. وارتجمفت عندما فكرت في أنه سيرميها إلى الفراش بلمحات البصر. قال لها وكأنه يقرأ أفكارها:

- لن أرميك بقوة. بل لن تشعري بذلك أبداً، وهذا شيء آخر يجب أن تتعلمي، أن تتقني طريقة السقوط دون التعرض للأذى.

- سوف أفكر في الأمر جدياً. وابتعدت بإصرار عنه. الفكرة كلها سخيفة. لن تسمح له بأن يعلمها كيف تدافع عن نفسها، بل لن تسمح له بأن يلمسها... ولكنها شعرت برعشة خفيفة عندما خطرت هذه الأفكار في ذهنها. طردت الفكرة من رأسها ووقفت تتأمل دراجة التمرين وعدادي السرعة والمسافة الملحقين بها، واللذين يشيران إلى المسافة التي قطعها الراكب والسرعة التي سافر بها. سيكون من المتع بعد نهار طويل من العمل بين الكتب والفايبر أن

تنزل إلى الغرفة لتسافر عدة كيلومترات بالدراجة. اغتصبت الابتسامة التي أوجدتها الفكرة عندما رأت «كال غرين» يراقبها.

- هل هناك شيء آخر تريد أن تريني إياه؟ قالت ذلك بسرعة، لأن نظراته تلك أشعرتها بعدم الارتياح.
- الحمامات هنا، وغرف تغيير الملابس إلى جوارها... هذا كل شيء.
- حسناً، هل يمكن الآن أن نذهب لتناول القهوة؟ إنني متعبة جداً من جراء السفر وأريد أن آوي إلى فراشي باكرا إذا أمكن!

- بالتأكيد.. فالقيادة الطويلة متعبة جداً. سارا معاً باتجاه الصالون. التوتر كان مخيماً عليهما، ومن الممكن أن ينفجر في أية لحظة إذا لم تكن حريرصة، خاصة أن شعورهما بعدم الإعجاب المتبدل يجعل الأمور أكثر خطورة. وتساءلت عن السبب في هذا الشعور وهما لم يلتقيا إلا منذ ساعات قليلة. قبل أن تأوي إلى فراشها قررت «فانيسا» أن تنظر إلى الأمور من زاوية مختلفة في صباح الغد، إنها متعبة، ولم تكن كاذبة عندما قالت لـ«كال غرين» إن السفر قد أنهكتها، فالحادث المشووم الذي كاد يقع لها خلق ردود فعل عديدة.

هناك أشياء كثيرة يجب أن تشكره عليها، لكنه جعل الأمر صعباً للغاية. رتبت وضع وسادتها ودخلت إلى فراشها بعد أن أغلقت الباب بإحكام. كانت القهوة بانتظارهما في الصالة عندما عادا من غرفة الرياضة، ولم يكن هناك من أثر للسيدة «بانكس» أو زوجها. لعلهما لا ينامان في القصر. يعني... ضحكت «فانيسا» في سرها وهي تسحب الغطاء إلى كتفيها. فـ«كال غرين» غير معجب بها، ولن يحاول وبالتالي أن يتسلل إلى غرفتها. استلقت على ظهرها وحدقت إلى السقف طويلاً. رأت شقوقاً متعددة تتفرع في كل اتجاه. حاولت أن تتصور أشكالاً في هذه السقوف، لكنها لم تستطع لأن الخطوط بدأت تغيب عن ناظريها. رفعت يدها وجذبت الخيط الذي يتحكم في الأنوار... أطفأتهما ونامت. استغرقت «فانيسا» عندما استيقظت باكراً، ما الذي جاء بها إلى هذا المكان الغريب؟ لكن سرعان ما عاد إليها سيل الأحداث التي وقعت بالأمس. نقلت عينيها في أنحاء الغرفة تستكشفها على فوه الفجر المبكر. كل شيء.

يبدو مختلفاً، والنور المنكب من خلف ستائر أظهر اتساع الغرفة وتناسقها الجميل. غادرت فراشها واتجهت إلى النافذة. كان الضباب الكثيف يغطي الأرض، فظهرت الأشجار والزهور وكأنها غارقة في بحر من الدخان الأبيض. السكون يلف المكان. عادت إلى سريرها واستلقت عليه ببرهة. في هذه الأثناء، كان الضوء يشتد في الغرفة، وأدركـت «فانيسا» أنها لن تستطيع العودة إلى النوم مجدداً خاصة أن عقلها مليء بالأفكار المتضاربة.

بلغت الساعة السادسة والنصف، وقد أبلغها «كال» أمس أن طعام الإفطار سيقدم عند الساعة الثامنة والنصف، وهذا يعني أن هناك متسعـاً من الوقت للاستحمام وارتداء ملابسها والذهبـ في نزهة قصيرة. ملأت «فانيسا» المغطس بالمياه الساخنة وهي تفكـر في نزهة قصيرة حتى الأبواب الخارجية لحدائق المنزل تساعدـها على فتح شهيـتها للإفطار وتـعدـها للعمل المتـعبـ في غـيـارـ المكتـبةـ. ولكنـ منـ الأفضلـ أنـ تـأخذـ حـامـهاـ السـاخـنـ بعدـ عـنـاءـ النـهـارـ، لـعـلـ حـامـ المـسـاءـ يـكـونـ أـفـضلـ! عـلـىـ كـلـ حـالـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـسـتـحـمـ مـرـأـةـ أـخـرىـ، فـقـدـ أـخـبـرـهاـ «ـكـالـ»ـ منـ ضـمـنـ مـاـ أـخـبـرـهاـ أـمـسـ أـنـ المـيـاهـ السـاخـنـ جـارـيـ بشـكـلـ دـائـمـ فـيـ الـنـزـلـ...ـ فـالـمـجـرـىـ المـاثـيـ الـذـيـ يـنـبعـ مـنـ سـفـحـ الـجـبـلـ يـؤـمـنـ لـلـنـزـلـ اـحـتـيـاجـاتـهـ مـنـ المـاءـ،ـ بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ أـنـ يـدـيرـ الـمـحـرـكـ الـذـيـ يـوـلدـ الـكـهـرـيـاـ،ـ أـيـهـاـ.ـ وـعـنـدـمـاـ اـسـتـلـقـتـ «ـفـانـيـساـ»ـ فـيـ الـمـغـطـسـ السـاخـنـ،ـ اـسـتـعـادـتـ ذـكـرـيـ السـهـرـ الـقـصـيرـ الـتـيـ أـمـضـتـهـ مـعـ «ـكـالـ»ـ أـمـسـ حـولـ فـنـجـانـ الـقـهـوةـ.ـ وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ كـلـ شـيـ،ـ لـاـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـنـكـرـ أـنـهـ كـانـتـ هـدـنـةـ سـلـمـيـةـ وـسـطـنـهـارـ مـلـيـ،ـ بـالـواـجـهـاتـ.ـ لـقـدـ حـاوـلـ قـدـرـ جـهـدـهـ أـنـ يـكـونـ سـاحـرـاـ وـلـطـيـقاـ،ـ رـبـماـ تـعـدـ ذـكـرـهـ لـكـنـهاـ لـيـسـ مـتـأـكـدةـ.ـ وـاسـتـطـاعـتـ أـنـ تـشـاهـدـ جـانـبـاـ آـخـرـ غـيرـ مـتـوـقـعـ مـنـ شـخـصـيـتـهـ.

ارتـدتـ مـلـابـسـهاـ وـهـيـ تـفـكـرـ كـيـفـ سـيـكـونـ نـهـارـهاـ الـأـوـلـ هـنـاـ.ـ وـلـأـنـهاـ خـافـتـ مـنـ الـبـرـودـةـ فـيـ الـخـارـجـ بـعـدـ حـامـهاـ السـاخـنـ،ـ وـضـعـتـ عـلـىـ كـتـفيـهاـ مـعـاطـفـ الـفـروـ،ـ الـفـارـيـ اللـونـ وـتـسـلـلتـ بـهـدوـءـ مـنـ غـرـفـتهاـ إـلـىـ الطـابـقـ الـأـسـفـلـ.ـ وـحـدـهاـ كـانـتـ سـاعـةـ الـحـائـطـ الـأـثـرـيـةـ مـسـتـيقـظـةـ مـنـ خـلـالـ دـقـاتـهاـ الـرـتـيبـةـ.ـ وـمـاـ عـدـ ذـكـرـهـ لـمـ تـسـمـعـ «ـفـانـيـساـ»ـ أـيـ شـيـ،ـ فـيـ الـبـيـتـ الـذـيـ بـداـ مـهـجـورـاـ.ـ إـنـهـ السـابـعـةـ وـعـشـرـ دـقـائقـ مـنـ

بحيث شكل لها أسلوبه الفظصدمة عنيفة. كم كان مرعياً معها. وفجأة، عادت «فانيسا» إلى الواقع على صوت عواه حاد... شاهدت أمامها كلب حراسة ضخماً وقد تحفز للهجوم. تجمدت «فانيسا» في مكانها. تعرف من خيرتها أن عليها عدم القيام بأية حركة. فجأة سمعت صوت رجل موجود في مكان ما بين الأشجار:

- لا تتحرك يا «شيبا». اجتاحتها موجة عارمة من الارتياح، ولم تعد قدماءها قادرتين على حملها وهي ترى رجلاً طويلاً في ثياب سوداء يتجه نحوها. كان في مقتبل العمر، قوي القامة له ملامح الفجر السمراء. ابتسם عندما التقت نظراتها، وقال بلهجة مؤدية:

- صباح الخير. لوجهته الاسكتلنديّة كانت مليئة بالاحترام ولاحظت «فانيسا» نوعاً من الخجل في تعابيره وتصرفاته.

- صباح الخير. هل هذا كلبك؟

- نعم. ثم خاطب الكلب قائلاً:

- الآن يا «شيبا» عد إلى البيت. نظر الكلب إلى صاحبه ثم أطاع الأمر وسار بعيداً. تنفست «فانيسا» بارتياح عميق. اعترفت قائلة:

- كنت... متورطة إلى حد ما.

- أنت تعرفي أن «شيبا» لم يتوقع أن يرى أحداً. فهذه المنطقة خاصة.. كان يستعمل لهجة مؤدية للغاية في محاولة لإيقاف الموقف دون اتهامها بالتلسل إلى البيت.

- أعرف ذلك. إني أقيم هنا. فجأة شاهدت في عينيه نظرة تحدّ.

- إذن أنت... الآنسة التي جاءت لتنظيم المكتبة؟

- نعم. واضطررت إلى مواجهته بغضب عندما انفجر ضاحكاً. لكنه استدرك بسرعة وقال:

- أنا اعتذر. إنني أضحك؛ لأنهم طلبوا مني أن أعطي بعض الوقت للمساعدة في تنظيم المكتبة... وقد حاولت التملص من ذلك. ثم أضاف مبتسماً:

- لكتني تأكيد الآن أنتي أخطأت بالرفوف. كان هناك شيء جذاب في

صباح أحد أيام يونيو (حزيران)، واليوم ستري جدها لأول مرة. سوف تراه وتتحدث إليه كأنه غريب. هو لن يعرف الحقيقة حتى اليوم الأخير، وعندئذ يكون الأول قد قات لأنها ستغادره. أحسست بالعرق البارد يتتصيب من راحتي يديها، فأسرعت تغادر البيت إلى الهواء الطلق. وقت لحظة أمام الباب تستقبل الهواء البارد المشبع بالرطوبة وهو يلحف وجهها. لقد انقض الضباب قليلاً وأصبح الطريق العبد مرنّياً إلى حد ما، على الرغم من أن الأشجار كانت ما تزال في بحرها الأبيض الساكن. ابتسمت بعطف وهي تشاهد الأرانب تهرّب من الطريق عائدة إلى الأشجار. لو أن هذه الأرانب الجميلة تعرف أنها لا تزيد بها شرّ؟

من الواضح أن الجو ينبع بطقس مشمس جميل هذا النهار. شعرت «فانيسا» بعشيريرة تسري في جسمها. ها هي هنا الآن ملتزمة بإنتهاء ما عزمت عليه -بغض النظر عن النتائج- ولا يمكن أن تتراجع أبداً. هل هي نادمة لأنها تركت عملها؟ الزمن وحده سيجيب. كان عليها أن تترك العمل على أية حال خاصة أن رئيسها أصبح مزعجاً ومضجراً، وباتت لا تحب أن تدخل إلى مكتبه لتلقى التعليمات منه. أطبت عينيها قليلاً. إن «كال غرين» على حق فيما يتعلق بمسألة الدفاع عن النفس. منذ أن بلغت السادسة عشرة، وتحول جمالها الطفولي إلى فتنة نسائية طاغية، والرجال يحومون حولها دائمًا مما سبب لها الكثير من المقاوم. صحيح أنها ترتاح لقدرتها على التأثير في الجنس الخشن، لكن هناك جانب آخر للجمال فشل جميع من عرفتهم في فهمه والتعامل معه. فالجمال يسبب التعasse والغيرة والشك لدى المعجبين، وأيضاً لدى صديقاتها اللواتي أخذن يتجنبنها ويحاولن إبعاد رجالهن عنها مهما كلف الأمر. والآن، لأول مرة في حياتها وجدت الرجل الذي لم يقع تحت تأثيرها... بل هو معاذ لها، حتى إن أحداً من الذين عرفتهم لم يعاملها كما عاملها «كال غرين». معاملته ليست فقط مزعجة بل متحدية أيضاً... وأشياء أخرى كثيرة لم يجرؤ أحد من قبل على التعامل معها بهذه الشكل، خاصة عندما واجهها بعنف في المرأس. لقد هددتها بالفعل. فهي اعتادت الإعجاب العميق من الجميع

- لقد قلت ما فيه الكفاية. إلى اللقاء يا آنسة «كولينز». رفع يده مودعا، وقبل عائدا من حيث جاء... واحتضن بين الأشجار. سارت عائدا إلى البيت وهي أكثر فضولا من ذي قبل. راقت «فانيسا» «كال غرين» على مائدة الفطور. أرادت أن تشير إلى لقائها بـ«لوري ماكينزي»، لكنها خشيت أن يعرف «كال» أن «لوري» سوف يأتي لمساعدتها في المكتبة، لذلك التزمت «فانيسا» الصمت. أرادت أن تعرف لماذا يكره «لوري» «كال» إلى هذا الحد؟ وهل المشاعر متباينة بين الرجلين؟ ولم تكن لندرك أن الجواب سيأتي قريبا جداً، وبطريقة غير متوقعة.

بعد الساعة التاسعة بقليل، دخلت «فانيسا» و«كال» في المكتبة. وكانت الشمس تملأ الغرفة من خلال النوافذ الواسعة ذات التصميم الفرنسي. حاولت «فانيسا» جاهدة مقاومة الشعور بالانزعاج. إنها مهمة صعبة، لكنها هي التي قررت المضي فيها بغض النظر عن كل الاعتبارات الأخرى. شاهدت على الطاولة الخضراء في منتصف الغرفة رداء واقيا. رفع «كال» الرداء وقدمه لها. قال لها:

- السيدة «بانكس» أحضرت لك هذا الرداء الذي سيحمي ثيابك من الأوساخ والغبار. كان صوته هادئا وحاليا من أي معنى، لكن «فانيسا» شعرت -مرة أخرى- بشيء مزعج يحيط بهما... نوع من التوتر الحاد الذي لم تفهمه ولم تحبه.

- شكرا لك ولها.

كان الرداء مصنوعا من النايلون ولا يصل إلى منتصف الساق، ومع ذلك فهو يبني بالحاجة. نظرت إلى الطاولة وقالت:

- ساعي الكتب عليها تمهيدا لفهرستها، فهل من مانع؟ سار «كال» إلى إحدى الزوايا وأشار بيده إلى مجموعة من الصناديق وقال:

هذا الرجل... وشيء آخر بدا لها مألوفا. لكن «فانيسا» استبعدت الأمر. لقد ارتأحت؛ لأنها التقت رجلا لا يتعبد أن يكون فظا.

- أنا مقاومة أيضا. ثم أضافت باستغراب:

- فيم تساعدني؟ لا أعتقد أن الأمر يحتاج إلى... قاطعها قائلاً:

- أساعدك في الكتب. أقصد إنزالها عن الرفوف العليا. فهناك أماكن يصعب على المرأة الوصول إليها. هزت رأسها موافقة:

- آه... لم أفك في ذلك.

- إذن متى ستبدئين العمل؟

- اليوم. لكن أليس عندك عمل آخر؟

- بالتأكيد. أنا البستانى، وأعمل هنا مع أبي وعمي... وهما سيتدبران الأمر من دوني. لم يكن في طول «كال غرين»، لكنه كان أضخم بنية وأقوى مظهرا. اقترب من «فانيسا» ووقف أمامها قائلاً:

- أنا «لوري ماكينزي». من الواضح أنه ينتظر سماع اسمها، ومع ذلك لم يسأل مباشرة. ليس مثل «كال» الذي طالبها باسمها. لكن لماذا تعود هذه الأفكار لترتعجها الآن؟ مدت إليه يدها مصافحة وهي تقول:

- أنا «فانيسا كولينز». كانت يده دافئة قوية.

- سوف أذهب الآن يا آنسة «كولينز»، لكنني سأعود إلى البيت الكبير في وقت لاحق... سوف تباشرين العمل في حدود الساعة التاسعة، أليس كذلك؟

- أعتقد ذلك، فالسيد «ماكلين» لم يحضر بعد، والسيد «غرين» هو المسؤول في هذا الوقت. لم يكن هناك سبب لقول هذه الجملة، لكن لعلها أرادت أن تعرف شيئاً ما عن الرجل الذي ستقابله هذا النهار.

- آه.. إنه هو. رنة صوته كانت غريبة، وللحظة اعتقدت أنه يقصد جدها، لكن كلامه اللاحق بين لها خطأها.

- سوف آتي مباشرة إلى المكتبة وأساعدك، فذلك الرجل سيطلب مني مغادرة البيت إذا ما شاهدني. وكان على وشك أن يضيف شيئاً آخر، لكنه توقف.

- السيد «غرين»؟ لماذا؟ ضحك «لوري ماكينزي»:

- الأوراق والبطاقات وكل ما تحتاجين إليه موجود هنا، ثم سأها:  
 - سوف تحتاجين إلى مساعدة عندما تصلين إلى الرفوف العليا، أليس كذلك؟  
 لم تكن تريد أن تتطرق إلى هذه النقطة، ولكن من الغباء لا تفعل الآن. أجبت  
 وهي ترافق وجهه:  
 - هناك شخص سيأتي لمساعدتي. قطب حاجبيه وقال:  
 - ماذا تقصددين؟

- ذهبت في نزهة عند الصباح، فالنقيت برجل يدعى «لوري ماكينزي» فقال  
 لي إنهم طلبوا منه مساعدتي.. لم يتركها تكمل جملتها.  
 - «لوري»؟ ولاحظت أنه ذكر الاسم بالطريقة التي ذكر فيها «لوري» اسمه.  
 واتسعت عينا «فانيسا» وسألت ببراءة:

- هل هناك شيء غير طبيعي؟ نظر «كال» إليها ملياً. لم تكن هناك أية تعابير  
 على وجهه، لكنها أحست بالغضب الشديد يعصف به وهو يحاول السيطرة  
 على نفسه. قال:

- لا شيء. لو كنت مكانك لرأيتها جيداً.. فقد تواجهين المتاعب معه.  
 - المتاعب؟ ماذا تقصد؟ ظهر عليها الاستغراب، بالإضافة بالتأكيد. إلى  
 محاولتها تمثيل دور المغلق البريء... لكنها تناست ما يمكن أن يفعله هذا  
 الرجل. رد بجهة:

- اتركي هذه الألعيب، ولا تمثلي دور البريء، المسكين، فذلك لن ينطلي علي.  
 أنت تعرفي تماماً ما أقصد، بل يجب أن تعرفني. أنت بالغة بما فيه الكفاية،  
 أم هل تعتقدين أن الشابين اللذين هاجماك بالأمس كانوا يريدان تقديم الاحترام  
 والطاعة لسيادتك؟ جاهدت «فانيسا» للاحتفاظ بهدوئها. لم ترد أن ترفع  
 صوتها لثلا ينفعض اضطرابها، فقالت بصوت خفيض:  
 - أنت مقرئ.

- إذا كانت تصرفاتي المقرئة ستفضع بعض الحس في رأسك.. فلا بأس. أنا لن  
 أكون موجوداً دائماً للدفاع عنك. المسألة كلها أن «لوري ماكينزي» ذئب حبيب.  
 وأأمل أن تقدري على التعامل معه.

- أنا قادرة على ذلك تماماً. عندي من التجارب ما يكفي لأعرف كيف  
 أتصرف مع كل الرجال. التمعت عيناه السوداوان بالغضب وقد استعادت  
 ثقتها بنفسها.  
 - ستقول بعد قليل إن علي ألا أشجعه... هذا ما أوحيت به أمس أيضاً.  
 - حسناً، إياك أن تشجعيه. أشغالى تكفينى، ولا أريد أن أسمع صراخك طلباً  
 للمساعدة. ردت بغضب وهي تجمع قضتي يديها بشدة:  
 - لماذا لا ترحل وتتركني وحدي؟ يا له من رجل عنيد ومغرور!  
 - وفري لكماتك له. كان يراقب يديها وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، ثم  
 قال:  
 - لقد حذرتك مما سيحدث لك إذا ما تعرضت لي.  
 - اذهب من هنا فوراً.  
 - أنا ذاهب. الغداء سيكون في الواحدة ظهراً، والصيحة «بانكس» ستقدم القهوة  
 عند الساعة الحادية عشرة. راقبته «فانيسا» وهو يغادر المكتب بهدوء. تشاربت  
 الشاعر في صدرها. لم تلتقي بأحد من قبل يشبه «كال غرين». إنه يخيفها  
 بالفعل. ظلت صامتة للحظات ثم استدارت تتحمّس رفوف الكتب المتراسة.  
 بعض الكتب كانت قديمة للغاية وقد اصفرت أوراقها وتفتت الجلد الذي  
 يغلفها. رفعت كتاباً عن الأرض وفتحته بعد أن نفخت طبقة الغبار التي كانت  
 تعلوه. كان مجلداً يجمع أعداد إحدى المجلات للعام 1767، وكانت أوراقه  
 مصفرة بعامل الزمن ومتشققة في عدة أماكن، لكن الطباعة كانت واضحة على  
 الرغم من صغر حجم الحروف. حملت «فانيسا» المجلد بعنابة، فاحسست  
 - كالعادة - بأنها عادت إلى تاريخ سحيق. شعرت برغبة في تصفح المجلد،  
 لكنها أبعدته مباشرة، لعلها تستطيع ذلك عند الساعة الحادية عشرة، وقت  
 تقديم القهوة. كانت على وشك أن تضع الرداء فوق ملابسها عندما سمعت  
 الباب يفتح، ومنه دخل «لوري ماكينزي». عادت إليها على الفور كلمات  
 «كال» عن «لوري»، لكنها استبعدتها بسرعة وافتسبت ابتسامة عاجلة. فمن  
 السخاف أن ترك أعصابها نهباً لذلك الرجل. حيث قائلة:

- أهلا بك، كنت على وشك المباشرة في العمل. رد على تحبّتها مبتسمًا، كانت ابتسامة ناعمة خجولة، ولم يُستأدا ابتسامة ذئب. قالت:

- كنت أتأمل الرفوف هنا، وسأكون ممتنة للمساعدة التي ستقدمها. كان ينظر إليها بتأمل. ومع أنها اعتادت هذه المواقف، إلا أنها أحسست برعشة تسري في أطرافها. هل من المعقول أن يستغل وجوده معها؟ كل شيء ممكن حتى مع أكثر الرجال هدوءاً وخجلًا. ولذلك وجدت سلوك «كال غرين» محيراً، إذ لم يبد عليه أنه يفكّر في التقارب إليها على الرغم من أنه رجل طبيعي بكل معنى الكلمة. لكن «لوري» يختلف عن «كال». إنه هنا لمساعدتها، وسوف تعتقد الأمور إذا ما أمضت الوقت في مراقبته؛ لذلك قررت «فانيسا» أن تتجنب كل ما يمكن أن يساء تفسيره بحيث لا تدع مجالاً لأحد. ابتسعت له ببرود وقالت مشيرة إلى ناحية محددة:

- سأبدأ من هنا، ومن الأفضل أن نجمع الكتب على الطاولة ثم أقوم بالتسجيل.

- سأناولها من فوق وأضعها على الطاولة. نزع سترته الجلدية الرقيقة فكشف عن قميص داكن الزرقة. كان صدره عريضاً وكانت ذراعاه قويتين. وضع سترته على كرسي قريب وتوجه إلى إحدى الزوايا وعاد يسلم خشبي. أمضى ربع الساعة الأولى في عمل متواصل ينزل الكتب عن الرفوف ويحملها إلى الطاولة. عمل بسرعة ونشاط، وعندما وصل عدد الكتب الموجودة على الطاولة إلى حوالي مائة كتاب، توقف عن العمل ونظر إلى «فانيسا».

- هذا كافٍ على ما أعتقد! ثم أضاف:

- فأنت تحتاجين إلى مساحة من الطاولة للكتابة.

- نعم، وشكرا لك.

- سوف أساعدك. نظرت إليها «فانيسا» باستغراب. ماذا يقصد؟ شاهد نظرتها وابتسم:

- سأساعدك على ترتيب الكتب حسب التسلسل. أليس هذا ما ستفعلينه أولاً؟

- بلى، ولكن..

- بهذه الطريقة تسير الأمور بسرعة أكبر بالنسبة إليك وإليّ. هزت رأسها موافقة:

- هذا ممتاز، لكنني لا أتصور...

- ماذًا؟ إني أعرف القراءة أيضاً.

- لم أقصد ذلك. اعترضت بسرعة قبل أن ترى ابتسامته وتدرك أنه يمزح.

- أعرف أنك لم تقصدي شيئاً. على كل سيكون الأمر متثيراً، خاصة مع الكتب القديمة.

- إذن من الأفضل أن نبدأ الآن. في الواقع ربما تكون لديك أفكار أفضل مني. كنت سأشغل كل عناوين الكتب مع أسماء المؤلفين والمراجع الأخرى، ثم أعيد ترتيبها مع إشارة محددة عند كل عشرة كتب أو...

- لكن عندي فكرة أفضل. لنفترض أنتا... وأخذ يشرح خطته بهدوء وتفصيل وهو يحمل كتاباً من هنا ويقلب صفحات كتاب آخر من هناك. وكانت «فانيسا» تفكّر وهي تراقبه: إنه شاب لطيف. فلماذا لا توجد علاقات طيبة بينه وبين «كال»؟ لعل الأمر ليس سوى عداء طبيعي، وهو كثيراً ما يحدث دون أسباب.. وقد حدث بالفعل بيني وبين «كال». ولم يكن هناك متنفس من الوقت للحديث أو التفكير؛ إذ غرقاً في دوامة العمل. ومضى الوقت بسرعة بحيث فوجئنا بالسيدة «بانكس» تدخل علينا بالقهوة عند الساعة الحادية عشرة.. وعندما شاهدت السيدة «بانكس» «لوري» قالت:

- سأحضر لك فنجانًا آخر. ابتسمت «فانيسا» التي كانت تراقب قهوتها وتنتسّأ عما إذا كان سيعتبرها غير مهذبة إذا ما أخذت رشقة من فنجانها. قال:

- لا أظنك تعتقدين بأنها تحبني؟ كان «كال» قد قال شيئاً ما عن أن أقوال السيدة «بانكس» أكبر من أفعالها. لعله على حق. هزت رأسها وقالت:

- كلا.. هل تكرهه؟

- أجل، بطريقتها الخاصة. يجب أن تتعرّفي إلى زوجها، فهو لا يفتح فمه بكلمة إذا استطاع ذلك، ومع ذلك فهي ظاهية ممتازة، وللهذا السبب لا يتركها الرجل العجوز ترحل. هذه هي الفرصة، واستغلّتها «فانيسا» بسرعة:

- يا إلهي ! هل هو كذلك؟ ورافقته وهو يخرج علبة السجائر. قدم لها سيجارة، فرفقتها قائلة:

- لا أدخن، شكرا.

- هل تتعاطين في أن أدخن؟

- لا أبدا! لماذا تقول إنه ثعلب؟ فأنا لم أره كذلك. بدا الغضب واضحًا على وجهه عندما أجاب:

- لأنه ذكي جدًا في إخفاء احتياله. لكن عليك أن تسألي أخي عن الحقيقة فهي تعرفه أكثر من أي إنسان آخر... أجل أخي. لقد رحلت الآن إلى «أبردين»... إنها تستطيع أن تخبرك بأشياء عديدة عن «كال غرين».

- متى رحلت؟

- منذ أكثر من شهر تقريباً. إنها تعمل الآن في فندق خالي، وتقول إنها لن تعود ما دام «كال» هنا.

كان ينظر إلى الباب وكأنه يتمنى أن يدخل الشخص الذي يتحدث عنه. تناولت «فانيسا» جرعة كبيرة من القهوة لترطب فمها الجاف. وتناظرتها رغبتان: الأولى في أن تسمع المزيد، والثانية أن تقول لـ«لوري» إنها لا تريد أن تسمع شيئاً آخر. لكن «لوري» حل المشكلة عندما وقف وأطفأ سيجارته في المنفحة وشرب قهوته دفعة واحدة.

- حسناً، لقد قلت ما فيه الكفاية. يجب أن أعود إلى عملي بعد تناول الغداء.

قبل ذلك سأجهز لك من الكتب ما يكفي لعملك هذا اليوم.

- شكراً لك، هل تعرف متى سيعود السيد «ماكلين» إلى البيت؟ أجاب قائلًا:

- أنا لا أعرف، لكن السيدة «بانكس» يمكن أن تخبرك. لماذا تسألين؟

- إنه صاحب العمل.. وأعتقد أنه.. قاطعها بابتسامة صفراء:

- حاولي الاستفادة من الوقت قبل أن يحضر. لكنه استدرك قائلًا:

- كنت أمزح فقط. إنه ليس سيئًا على الإطلاق. فقط—تردد قليلاً ثم تابع—من الصعب شرح ما أقصده بكلمات قليلة، فهو يبدو في بعض الأحيان وكأنه ينظر

- لم ألق بعد بالسيد «ماكلين»، هل تعتقد أنه شخص مناسب للعمل معه؟

- بالتأكيد. إنه رجل ممتاز. عندما يعرف الإنسان بشكل عميق. لكن النيرة التي حيرت «فانيسا» من قبل ما تزال موجودة في كلامه.

- ماذا تقصد بالتحديد؟

- حسناً. إنه ظظ في البداية. قد لا يكون ظظاً معك لكونك امرأة... لكنه قادر على ذلك مع الرجال. حفق قلب «فانيسا» بشدة. ما الذي دفعها إلى هذا الموقف؟ لكن ما الذي كانت تتوقعه؟ بالتأكيد لن تقابل رجلاً طيفاً، خاصة بعد الذي سمعته عنه من أبيها...

- حدثني عنه قليلاً! فكر «لوري» قليلاً:

- إنه طويل القامة، نحيف بعض الشيء، مهوس بالمحافظة على رشاقته، يمشي عدة كيلومترات يومياً.. ولا شك في أنك رأيت غرفة الرياضة.

- شاهدتها بالفعل. «كال غرين» أخذني إليها مساء أمس. ووجدت نفسها مدفوعة إلى أن تضيف قائلة:

- لقد وعد بإعطائي بعض الدروس في الجodo. احتقن وجه «لوري» بالغضب، وكان على وشك أن يقول شيئاً عندما انفتح الباب ودخلت السيدة «بانكس»، حاملة فنجان القهوة الثاني.

- هذا فنجانك. وضعته على الطاولة ونظرت إلى «فانيسا» قائلة:

- الغدا، يقدم في الساعة الواحدة... ثم غادرت الغرفة. تسأليت «فانيسا»، عما كان سيقوله «لوري»؛ إذ أنه حاول جاهداً خلال وجود السيدة «بانكس» أن يطرد من نفسه مشاعر الغضب. لكنه عاد إلى طبيعته الآن وقال:

- لو كنت مكانك لابتعدت عن مضايقاته.

- لماذا؟ نظر إليها بحده.

- لأنه ثعلب. عرضه لك ليس سوى عذر... قطع حديثه فجأة ورفع فنجان القهوة إلى شفتيه. استقررت «فانيسا» كيف حافظت على طبيعتها. «كال» حذرها أولاً من «لوري»، والآن «لوري» يحذرها من «كال». القصة كلها مضحكة، لكن الاثنين جاذبان في مخاوفهما.

- إذن لماذا لا تفك في عملك بدلا من الأفكار الأخرى؟ طغت ابتسامة كبيرة على شفتيه وهو يقول:

- إنك قوية بالفعل. أنا أحب الفتاة التي تتاجج بالنار. ابتعدت «فانيسا» عنه باتجاه الطاولة. وضعت الكتاب الذي كان بيدها ثم عادت نحوه وهي تقول:

- اسمع. يبدو أنك خرجم عن حدودك. أناأشكر لك مساعدتك في الكتب، لكنني متأكدة من قدرتي على الاستغناء عن خدماتك إذا كنت سأضطر إلى مراقبتك طوال الوقت. هل كلامي واضح؟ التمعت عينها بالغضب وامتلاً خداها بالدم، وهي تقف بتحدة وثقة بالنفس بينما كان «لوري» يقترب نحوها. في هذه اللحظات بالذات دخل «كال» الغرفة. فخيم جو من الصمت المتوتر لثوان معدودة. قطعه «كال» بصوته العميق قائلاً:

- جئت لأرى إن كان كل شيء على ما يرام. استدارت نحوه قائلة:

- الأمور ممتازة، شكرا لك. حاولت الابتسام، لكنها لم تستطع. في حين كان «كال» يوجه نظرة حديدية إلى «لوري».

- هل واجهت أيّة متابعة مع الكتب؟ قابل «لوري» نظرة «كال» بقصبة أشد... وفكّرت «فانيسا» التي كانت تراقب المشهد بأنهما أشيه بكليبين في شارع مهجور، كل منهما يزن قوة الآخر ويستعد للهجوم في آية لحظة.

- لا متابعة على الإطلاق، وأمورنا تسير على خير ما يرام. وحاولت أن تضع ابتسامة معبرة على وجهها. فقد قررت بينما وبين نفسها أن تثبت في موقعها وتنتظر ما سيحدث، لأن ما يجري الآن لا يعنيها لا من قريب ولا من بعيد.

هز «كال» رأسه دون أن يعبر وجهه عن مشاعره.

- حسناً، سأترككما تكملان العمل. ثم غادر المكتبة وهو يحاول أن يسيطر على أعصابه الثائرة. وعندما أغلق الباب التفت «لوري» إلى «فانيسا» وأفلت صفيرًا متقطعاً. قال «لوري»:

- حظنا جيد أنه لم يدخل قبل ثوان. ترى ماذا كان سيفعل لو رأني وأنا أغازلك؟

- لست أدرى. ثم أضافت وهي تحاول إخفاء دهشتها:

من خلال الإنسان، أي كانه لا يراه أبداً أو أنه بعيد عشرات الكيلومترات.. إنه غريب جداً. أنتصت «فانيسا» بإمعان. أين يكون عندما يذهب بعيداً؟ هل يسترجع الأحداث الماضية ويقدم على ما فعله؟ هل يعرف أن ما فات قد مات؟ ربما لن تعرف أبداً. شيء ما خرق في داخلها. إنها تريد أن تلتقي هذا الرجل.. جدها، ولكنها في الوقت نفسه ترغب في الهرب وأن تنسى كل شيء عن «ديفينستون هاوس». أطرق تنظر إلى يديها. كلا، يجب ألا تفعل ذلك أبداً. عليهما أن تستمر حتى النهاية.

- هل أنت على ما يرام؟

- ماذا؟ آه، أنا متأسفة. هزت «فانيسا» رأسها واابتسمت بعمق لـ«لوري» ناسية قرارها بابقاء مسافة بينها وبينه.

- كنت أذكر. وشاهدت وجهه يتغير، التمعت في عينيه السوداويين ملامح دافئة.. فتحولت نظرها عنه وشققت نفسها بأحد الكتب. بعد عشر دقائق وقع المحظوظ. كانت قد توجّهت إلى أحد الرفوف للتأكد من كتاب وضعته هناك قبيل قليل، وعندما رفعت رأسها، شعرت به خلفها تماماً حتى قبيل أن تلتقط إليه. تنفست بعمق، ثم أحسست بيده اليسرى على ذراعها فاللتفت بهدوء وقالت:

- نعم، ماذا؟.. ماتت الكلمات إذ انحنى نحوها وعائقها بمل، ذراعيه. دفعته بعيداً عنها بدون غضب وقالت:

- لماذا فعلت ذلك؟ ابتسّم «لوري»، قائلاً:

- أحمسست برغبة في ذلك. كان وجهه شاحباً عندما نظر إليها. قالت بحزن:

- أرجوك ألا تكررها. يجب أن تذكر أننا نعمل معاً فقط، وليس أكثر من ذلك.

- سأحاول أن أتذكر. هل كنت سترحبين بالأمر لو كان «كال» مكاني؟ كيّبت «فانيسا» موجة عارمة من الغضب وقالت:

- بالتأكيد لا. وعلى كل فإن الأمر لا يعنيك إطلاقاً.

- هذا أفضل، فأنا لا يمكن أن أتصورك بين ذراعيه. أجابتني ببرود شديد:

- كنت تفضل ذلك! فعندئذ سيقع الشجار بينكما وهذا ما تريده! انقضت عجلات وجهه وهو يقول:

- أتمنى الفرصة المناسبة لضرره... إذا كان هذا ما تقصدين! عقدت «فانيسا» حاجبيها وقالت:

- إذن من الأفضل أن أحذرك، لقد تعرضت وأنا في طريقني إلى هنا لشكلة مع شابين يركبان الدراجات النارية، واستطاع «كال» أن يطير بهما أرضاً في لمح البصر مع أن أحدهما كان يحمل زجاجة فارغة. لم أر مثل ذلك المشهد في حياتي، وأتمنى لا أرى مثله في المستقبل. وحتى لو كنت تكرهه فيجب الاستهان به، فهو أقوى بكثير مما يبدو عليه. أجاب «لوري» بسخونة:

- أستطيع تدبر أمري معه. فقط أريد الفرصة المناسبة. راقتني «فانيسا» جيداً. إنه قوي وصلب العود. ترى لماذا يرغب الرجال في القتال دائمًا؟ لماذا يحلون جميع المشاكل بالقوة الجسدية؟ أحسست بأنها تعبت من هذه الأجواء التي أصبحت مزعجة للغاية، ولعل أحداث الأمس، أو ما كاد يحدث بالأمس، هي مصدر تعبيها. وحتى حلول موعد الغداء، كان سلوك «لوري» سليماً. جهز عشرات الكتب بحيث لا تضطر «فانيسا» إلى تناول أي منها طيلة اليوم مهما عملت بسرعة. ولم يحاول قط أن يلمسها ولا أن يقترب منها. وقبل دقائق من الساعة الواحدة قال:

- سوف أذهب الآن، ولكنني سأعود صباح الغد إذا لم يكن عندك مانع. أجاب:

- شكرا لك. السيد «ماكلين» سيكون هنا في ذلك الحين، فهل تعتقد أنه يمانع؟

- هو الذي اقترح الفكرة أساساً. وأضاف مبتسمًا:

- عندما يراك سيدرك فوراً لماذا غيرت رأيي، فهو معجب بالنساء الجميلات أيضاً. لكن مزاجها لم يكن ليقبل الإطراءات:

- إذن، أراك صباح غد. يجب أن أذهب الآن وأستعد للغداء. خلعت الرداء الواقي ووضعته على الكرسي قبل أن يتحرك «لوري» لمساعدتها. ثم خرجا معاً

من المكتبة. كانت غرفة الطعام خالية تماماً عندما دخلتها «فانيسا» بعد عشر دقائق. وأول ما لاحظته كان وجود كرسفين فقط حول الطاولة. خفق قلبها بطريقة غريبة، إذ إن هذا يعني أن جدها لم يأت بعد. جلست في المكان الذي شغلته أمس، فأخذت بموجة عارمة من الوحدة تحتاج نفسها. فجأة دخل «كال غرين» الغرفة، فيذلت جهداً كبيراً كي تخفي الأسى الذي كان واضحاً في عينيها. جلس «كال» في مواجهتها وعلى وجهه تعبير غريب وفي عينيه نظرة مت恂صة، وكأنه يعرف ما الذي جرى في المكتبة. وأخيراً حطم كلماته جدار الصمت:

- أنا متأسف إذا كنت قد دخلت عليكم في الوقت غير المناسب. ولكن «فانيسا» لم تجد في صوته ما ينم عن الأسف فعلاً. أجبته بهدوء:

- لا، أبداً، كنا مشغولين في ترتيب الكتب، هذا كل شيء.

- هل كنتما فعلاً؟ بدا لي أن في الجو نقاشاً حاداً... لكن المسألة لا تعنيني على أي حال. أجبت موافقة:

- معك حق، المسألة لا تعنيك أبداً. في تلك اللحظة دخلت السيدة «بانكس»، فقطمت ما كان «كال» على وشك أن يقوله. تركت لهما الحسام، وبعض الخنزير، وقالت:

- سأعود بعد دقائق. الغداء اليوم فطيرة بالجبن، فاستعدا لها. فكرت «فانيسا»: «لو كنت هنا مع شخص آخر لضحكنا على طريقتها في الكلام، لكن هذا الشخص العدواني... لماذا هو هكذا، لماذا؟» احنت نحو طبق الحسام الذي كان ساخناً جداً، وما إن لمست الوعاء حتى سمعت زعيقاً حاداً من الخارج ففقرت خوفاً واضطرباً. اصطدمت بالطاولة فاهتز الطبق وانسكب الحسام الساخن على يدها البعضي. أطلقت «فانيسا» صرخة ألم عالية وهي تحس حرارة الحسام، تلسع يدها بشدة. رکض «كال» نحوها وأمسك مضمها بيده وسكب الماء على الجزء المصاب. طلب منها بصوت آخر أن تجلس وتضع رأسها بين ركبتيها فوراً. أطاعته دون أية مقاومة وسمعته يقول:

- ساحضر بعض الإسعافات الأولية، دقيقة واحدة فقط عادت إليها موجة

الألم أشد مما كانت، ولكنها لم تتحرك من الكرسي. كان صوته آمراً بحيث لا تستطيع أن تخالله. لم يغب «كال» سوى لحظات معدودة عاد بعدها وهو يحمل صندوقاً وضعه على الطاولة وفتحه بسرعة... ثم أخرج منها أصفر اللون وذلك به الجزء المصاب. قال لها وهو يواصل التدليل:

- الصرحة التي سمعتها هي صوت الطاووس. صحيح أنه يصدم الإنسان للوهلة الأولى لكنك ستتعادينه بسرعة.

- طاووس! تسألي بصوت هامس وهي تضغط على شفتيها لتحبس صرحة ألم.

- هذا أفضل، أليس كذلك؟ كان كلامه بارداً وهادئاً، وقد اختفت العداوة بينهما على الأقل لبعض الوقت.

- بلى، شكراً لك. نظرت إلى الطاولة، فصدمتها الغوضى التي سببها الحادث. شعرت بالدموع تطفر إلى عينيها وهي تقول:

- أنا آسفة. قاطعها وهو ينظر بدوره إلى الطاولة.

- لا تهتمي، فالسيدة «بانكس» سترتب كل شيء في لحظات. قالت له معتذرة:

- لم تتناول حسامك بعد.

كان يلف قطعة من القماش حول يدها، في حين بدأ الألم يخف بفعل الدواء الذي وضعه. أجاب قائلاً:

- إنه كان ساخناً جدًا. هل تريدين أن أحضر لك صحنًا جديداً؟ هزت رأسها:

- كلا، سأكتفي بقسم من النظيرية... فأنا لست جائعة تماماً.

- حسناً، هل تنويين الراحة في غرفتك لبعض الوقت؟ نظرت إليه بحدة عندما أحسست السخرية في صوته. استغرب نظرتها وقال:

- ما الأمر؟ هزت «فانيسا» رأسها المتعب:

- لا شيء. اعتدت أنك... قاطعها بابتسمة لطيفة:

- أسرخ منك؟ كلا. لقد شحب لونك من جراء الصدمة. لا أحد يمانع في أن

تأخذني قسطاً من الراحة ولو لنصف ساعة.

- كلا، شكراً لك. سأشعر بتحسن كبير بعد أن آكل. لكنها بدأت ترتجف، ولم تستطع أن تخفي الحقيقة. وضع ذراعيه على مرفقيها ورفعها عن كرسيها قائلاً:

- من هنا، انتقلت إلى الكرسي الآخر وأحضرت معك طبق حسانك. وكانت «فانيسا» أضعف من أن ترفض أوامرها. أحسست بالدفء والشبع عندما تناولت الحساء الذي أصبح فاتراً.

أحضرت السيدة «بانكس» الفطيرة، ولما شاهدت فوضى المائدة طلبت منها الانتقال إلى ناحية أخرى حتى تنظف الطاولة وتعيد ترتيبها، ففعلاً دون تردد. اشتد الألم في يد «فانيسا» التي اعتدلت أنها استطاعت إخفاء الحقيقة عن الرجل الجالس قبالتها والذي لم يعد يظهر علامات العداء المعتادة تجاهها. بعد أن أنهيا الأكل، اتجهت ناحية «فانيسا» وقال:

- هيا بنا، سنتناول القهوة في المقهى.

- أجل، تمايلت قليلاً عندما وصلت إلى الباب، وسمعت صوته وكأنه قادم من بعيد... ثم أحسست بدفء يده على ذراعها. همس في أذنها:

- لماذا أنت عنيدة إلى هذا الحد؟ وعلى الرغم من أنها فهمت ما يقصده إلا أنها قالت:

- لم أفهم ما تعنيه تماماً؟ وعلى طول الطريق من غرفة الطعام إلى المقهى كانت الجدران تتمايل أمام ناظريها... وكم شعرت بالفرح لأن ذراعه القوية تسندها. قالت وهي تنظر إليه بعد أن أجلسها على المبعد:

- إنني على ما يرام. ولم تستطع إخفاء دموع الألم. ودون أن ينبع بینت شفة استدار مغادراً المقهى وتركها وحدها. اعتدلت أنها أزعجه فرحاً. قالت نفسها: «هذا ممتاز». لكنه عاد بعد أقل من دقيقة حاملاً فنجانين من القهوة.

قال وهو يضع الفنجان على الطاولة القريبة منها:

- سأخذك إلى الطبيب في القرية. اشربي قهوتك، ثم نتوجه إليه.

- لكنني لا...

- أرجوك دون نقاش. ثم أضاف بلهف:

- سذهب إلى حتى لو اضطررت إلى حملك إلى السيارة. نظرت إلى فنجانها ثم تناولته ببطء. لا شك في أنه يعني كل كلمة قالها، وهي تعرف أنه سينفذ وعده. وابتسمت في سرها عندما تصورت نفسها «محمولة» بين ذراعيه إلى السيارة.

- حسنا. وأغمضت عينيها بألم عندما رشقت جرعة كبيرة من القهوة الحارة.  
- هل تريدين سيجاراً؟

- أنا لا أدخن إلا نادراً... شكرًا لك. سمعت صوت الولاعة، ثم شعرت رائحة التبغ المحترق.. لكنها لم تستطع أن تنظر إليه. ولسبب غير معروف أخذ قلبها يحقق بسرعة غير طبيعية، إلى الدرجة التي جعلتها تعتقد أنها سيسمع دقائه إذا ما رفعت عينيها إليه. كان رأسها ساخناً، وتساءلت عما إذا كانت حرارتها قد ارتفعت بسرعة. وضعت يدها على جبينها فاحسست به مشتعلًا.

- هل أنت على ما يرام؟ بدا لها صوته وكأنه آت من مسافة بعيدة جداً، أو كأنها على وشك الإصابة بالصمم... رفعت رأسها بسرعة فوجده متقداً وقد اقترب لتناول فنجان القهوة من يدها.

- لا بأس.. لا بأس. فقط.. لم تستطع أن تبلع ريقها. يا الله، ما الذي يحدث لها؟! بدت الغرفة لนาورتها ساحنة في ضباب رمادي كثيف، ورفعت يدها في محاولة يائسة لتمسك بأي شيء.. ثم أحسست بيدها وسمعت صوت «كال»، آتيا من بعيد بعيد... لكنها لم تسمع الكلمة مما قاله. أفاقت بعد فترة للتجدد نفسها ممددة على المهد المجاور. فتحت عينيها ببطء فوجدت «كال»، واقفاً بالقرب منها. التقت عيونهما. قال لها:

- لم يحدث شيء، أغمي عليك فقط فلا تقلقي. قالت «فانيسا»:

- لم يحصل أن أغمي على من قبل. ابتسם برقه وهو يقول:

- لقد بدأت الآن. ارتاحي هنا لعدة دقائق ثم نذهب إلى الطبيب. إنها لا تريد أن تذهب في سيارته، ولا تعرف لماذا، ولا تستطيع أن تقول له ذلك أيضاً؛ لأنها هدد بحملها بالقوة إذا رفشت. بدأت قوتها تعود إليها وصارت قادرة على

التفكير بوضوح. بعد عدة دقائق نظرت إليه قائلة:

- أنا جاهزة الآن.

- إذن سذهب الآن. فكلما أسرعت بمعالجة الجرح، كان الشفاء أسرع. انتظرت «فانيسا» في البهو الداخلي في حين توجه «كال» لإحضار السيارة إلى الباب الأمامي. سمعت صوت السيارة، فغادرت الباب بتأن لأنها لم تكن قد استعادت توازنها تماماً. بعد دقائق كانا معاً على الطريق. وكان «كال» يقود سيارته بسرعة معتدلة. سألته عندما اقتربا من الطريق الرئيسي:

- كم تبعد القرية عن البيت؟

- حوالي ثلاثة عشر كيلومتراً. بعد قليل سchsel إليها. هل عاودك الألم؟  
رسمت على شفتيها ابتسامة شجاعة وقالت:

- ليس قوياً. لم يحصل أن أغمي على من قبل. هذه أول مرة.

- ربما لم تصابي في الماضي بالأذى كما أصبت اليوم. فالإغماء رد فعل طبيعي من الدماغ ضد الإصابات.

- هل حدث أن أغمي عليك من قبل؟ ركز نظره فيها وكأنه يحاول استكشاف خلفيات السؤال. ثم ابتسم قائلًا:

- نعم. مرة واحدة.. لكنني لن أخبرك عن تفاصيلها، ليس الآن على أي حال. استغربت «فانيسا» كيف أن التوتر قد زال بينهما، ولكنها أحسست بشيء غير طبيعي وهما في طريقهما إلى القرية. وعدلت من جلستها عندما تذكرت أنها في السيارة نفسها مع الرجل الذي تكرهه، وأنها أجبرت على مرافقته على الرغم من قرارها بعدم الإقدام على ذلك أبداً. ووجدت نفسها تنتظر شيئاً ما لا تعرف طبيعته. وأخيراً سمعت ما كانت تتوقعه. قال فجأة دون أن يرفع نظره عن الطريق:

- سيأتي صاحبنا صباح غد، وليس اليوم كما كان المخطط. عرفت على الفور من المصود بكلمة «صاحبنا»، لكنها تسأله كما لو أنها فوجئت:

- من؟ السيد «ماكلين»؟ التفت إليها بطرف عينيه وقال:

- ومن غيره؟ إنه صاحب العمل. اعتتقدت أنك تريدين معرفة موعد حضوره!

- بالتأكيد.. بالتأكيد. حرق قلبها بسرعة أشد. كان هناك شيء ما في كلماته لم تستطع أن تعرف معناه، لذلك كان عليها أن تفكك ملأها قبل أن تتكلم، خاصة أن الألم أخذ يزداد أيضاً، ثم قالت:

- لكنك قلت إنه سيعود اليوم!

- كان من المفروض أن يعود ظهراً، لكنه اضطر إلى التأخير، هل قلت إنك لم تقابليه من قبل؟ ما الذي عنده سؤاله هذا؟ نظرت «فانيسا» إلى الأشجار المتباينة خارج السيارة، ولم تلاحظ أنها كانت تضغط على معصمها المصابة. وفجأة عادت إلى الواقع وقالت:

- كلا لم أقابله. كيف يمكن ذلك وأنا قد جئت من «لندن»؟

- أعرف أنك من «لندن» وأن اسمك «فانيسا كوليوز». تجمدت «فانيسا» عندما رأته يبتسم وهو ينطق هذه الكلمات. لقد شدد كثيراً على كلمة «كوليوز»، ولا شك في أنه تعدد الأمر. شعرت بخوف غامر استمر للحظات فقط، ثم تنفست بعمق. هل يمكن أن يكتشف الحقيقة؟ لا، فهذا مستحيل. لكنها تمنى الآن لو أنها لم تأت أصلاً. بدأت يدها تتنفس من الألم، لم تعد قادرة على التعامل مع هذا الرجل المزعج خاصة في مثل وضعها الحالي... بل لم تعد قادرة حتى على إيجاد الأجرمية الازمة. ومع ذلك حاولت:

- نعم. واسمع هو «كال غرين»، اسم غريب حقاً.

- أجل اسمي الكامل «كالوم غرين»، أبي اسكتلندي وأمي رومانية. أثار هذا الاكتشاف اهتمام «فانيسا» على الرغم من انشغالها بأمور أخرى، ورأت فيه مناسبة لإبعاد «كال» عن الموضوع الأساسي:

- تقصد أن نصفك روماني؟ هز رأسه علامة الإيجاب. كان عليها أن تلاحظ أن نصفه أفريقي من خلال فكه العريض وشعره الأسود وعيونيه الناريتين الحادتين اللتين استطاعت أن تخوضاً في أعماقها، وقالت:

- لا! لكنها لم تعرف لماذا قالت هذه الكلمة.

- لماذا؟

- لا شيء، لا شيء. وهرمت من عينيه بالنظر إلى الأشجار في الخارج.

- وماذا عن والدتك؟ إلى أي بلد ينتهي؟ كان فقط سؤالاً تقليدياً في مثل هذه المناسبة، لكن تصرفات «كال» جعلتها تشك في كل كلمة يقولها. تنفست بعمق وقالت:

- أمي... لكن القصة التي رددتها عشرات المرات في سرها تبخرت دفعة واحدة. تحول رأسها إلى صفة بيضاء خالية. رفعت يدها إلى جبينها. لم يعد عندها سوى سلاح واحد:

- أنا آسفة.. إن يدي تؤلمني بشدة. كان ادعاؤها حقيقياً، ولو بشكل جزئي. على الأقل سيعطيها بعض الوقت للتفكير. وحتى هو لن يمدد إلى إزعاجها أكثر. ترى هل يفعل؟ ومع أنه لم يصدقها، فقد تحرّف بشكل مغاير تماماً. زاد سرعة السيارة فوراً وقال:

- سنكون هناك خلال دقيقة فقط. وألقت «فانيسا» رأسها على المعد تأخذ قسطاً من الراحة. هي تعرف أنها هدنة مؤقتة.. لكن كم من الوقت ستذodom؟ كان الطبيب من النوع الصامت، وعندما خرجت «فانيسا» من عيادته كان الألم قد خف بشكل كبير. كتب لها وصفة طيبة وأعطياها بعض حبات من الدواء وأمرها أن ترتاح لعدة أيام. في القاعة الخارجية، كان «كال» يجلس على أحد المقاعد الخشبية ينتظر انتهاء الطبيب. نهض واقفاً عندما برزت «فانيسا» وسألها:

- هل تشعرين بأنك أفضل؟

- أجل. شكراً لك. قال لي إنك فعلت المناسب عندما سكب الماء البارد على الحرق، فهذا سيمعن ظهور ندوب دائمة. على كل حال يجب أن أرتاح لعدة أيام ثم تعود يدي إلى طبيعتها.

- إذن يجب أن نجد لك وظيفة أخرى غير المكتبة؟ قال هذه العبارة مازحاً وهو يفتح لها الباب. نظرت إليه بحدة:

- لا، أبداً، فأنا أكتب باليدي اليسرى. لقد أعطاني الطبيب وصفة، فهل هناك صيدلية قريبة؟

- في العرف الآخر من القرية. سأحضر السيارة.

- لا نستطيع أن نسير إليها؟

- هل تشعرين بقوة كافية للسير؟ التفتت «فانيسا» إليه بسرعة. هل كانت هناك تلك النغمة الساخرة أم أن خيالها يزئن لها الأمور كالعادة؟

- أعتقد أن السير في مثل هذا النهار الجميل سيفيدني. وكانت على حق. فالشمس تطل وسط سماء صافية تماماً، وإلى يسارهما بحيرة واسعة، وإلى اليمين صف لا ينتهي من البيوت الريفية المتباشرة وسط الحدائق.

- حسناً، هيا بنا. سارا معاً عبر الشارع غير المعبد في أقسام كبيرة منه، ولم تزعجهما حركة السير. حاولت «فانيسا» الانشغال عن الغريب الذي يسير إلى جانبيها يتأمل الريف الممتد حتى حدود التلال البعيدة. كانت المنطقة أخاذة بحيث تمنتت «فانيسا» أن تمضي عمرها كلها هنا.

- إنه منظر ساحر، أليس كذلك؟ فوجئت بكلامه، وتساءلت:

- أي منظر؟

- هذه المنطقة، الريف كله، لقد لاحظت التأثير الذي تركه فيك لأول مرة.

- أجل، إنه رائع. لكنها شعرت بالقلق، لماذا يتصرف بهذه الشكل المكابر؟ لقد استطاع فعلًا أن يقرأ أفكارها. لماذا يجب أن يكون هنا الآن... هنا في دينستون هاوس؟ ليس بالإمكان أن تحصل على جواب كافٍ، لكن عليها أن تكون حذرة للغاية منه. وحتى تسترجع شجاعتها المهزوزة قالت شيئاً أرادت أن تقوله قبل دقائق:

- أشكرك جداً لأنك أحضرتني إلى الطبيب، فقد فعلت عين الصواب.

- لا يأس على الإطلاق.. وابتسم بعمق وهو ينظر إليها، فقفز قليلاً في صدرها عدة قفزات متالية. والآن لماذا انفعلت هكذا؟ فكرت في نفسها. إنه إنسان كريه بالفعل، لكنه يتغير تماماً عندما يبتسم. فهو يستطيع أن يكون جذاباً إذا ما أراد. وما حدث بعد ذلك جعلها تتأكد من الأمر أكثر... ولكنها... لم تكن قادرة على توقع الأمور. انتظر «كال» حتى وصل إلى منتصف الطريق المؤدي إلى البيت، تقرّبها في النقطة التي أشار عنها إلى «فانيسا» للتوقف مساء أمس، وتوقف فجأة فالتفتت «فانيسا» إليه خائفة.

- أعتقد أنك ستعجبين بالمشهد من هنا، فالارتفاع يمكن من رؤية أوسع. وعلى الفور شكت «فانيسا» في نياته، خاصة عندما تذكرت الأسئلة التي طرحها قبل أن توقفه بحجة الألم في يدها. الآن لا تستطيع أن تفعل شيئاً. انتظرت حتى خرج «كال» من السيارة واستدار تحيطها وفتح الباب لها، فخرجت. على الأقل لا وجود للعداء في تصرفاته، ولكن الشك يسيطر عليها. هناك طريقة واحدة للتصرف: البرود المطلق.

- شكراً لك. ابتسمت وهي تغادر السيارة فكانت الابتسامة نفسها التي كانت تجعل السيد «مورتون» يقع في حبها. رد «كال» ابتسامتها بأحسن منها. كانت عيناه صافيتين ووديتين. قال بهدوء وثقة:

- هذا أفضل. ليس من المناسب أن نمضي الوقت كله في الشجار، أليس كذلك؟ وافتت «فانيسا»:

- بالتأكيد. ثم التفت حولها وقالت:

- أين...؟ أشار مقاطعاً:

- هناك. إذا صعدنا التل سنشاهد أروع مشهد في كل «اسكتلندا»، على الأقل حسب رأيي. هل يمكنك الصعود؟ كان السؤال بلهمة قلقة وكأنه فعلًا يهتم بها... وقد بدأت «فانيسا» تعتقد بأنه قلق عليها حقيقة.

- أجل. وسارا صعوداً نحو التل تاركين خلفهما شجيرات عديدة، وحشائش بدأت تخضر مع الربيع المقبل، وبعض الأزهار البرية المتباشرة هنا وهناك. استنشقت «فانيسا» نسيم الربيع الممزوج بعبق البحر وهي تقطع المسافة القليلة المتبقية. وعندما وصلت إلى القمة تسمّرت في مكانها وعلى وجهها علامات الإعجاب العميق. قالت باندهاش:

- إنه رائع... إنه رائع جداً، أليس كذلك؟ كانت التلال تتدلى تحتهما في كل اتجاه حتى شاطئ البحر، واللون الأخضر الداكن يغطي كل شيء... وفي المدى البعيد وقفت صخور جباره أمام زحف الموج الذي كان يرتد عنها تاركاً في الجو رذاذه الأبيض الهائل. ونظر «كال» إليها وابتسم مجدداً، وتساءلت لماذا يبذل كل هذا الجهد؟ فجأة قال لها:

- أنا أعرف أن اسمك ليس «فانيسا كوليفر». ثم أضاف بهدوء:  
- فما هو اسمك الحقيقي؟

صعدت «فانيسا» عند سماعها كلام «كال»، وأحسست بالفزع لثوان خيل إليها أنها ساعات... لكنها استعادت رباطة جأشها بسرعة وتذكرت النصيحة الذهبية: «الهجوم هو أفضل وسيلة للدفاع». استدارت ببطء نحوه وقد زال الخوف من نفسها.. فهي لن تترك هذا الرجل يمسد عليها المخططات التي أعددت لها منذ مدة. بدا عليها المهدو، التام، كيف لا وهي تملك أسلحة لم تستعملها بعد ولا تعتقد أنه يستطيع مواجهتها؟ أتوتها هي أحد أهم هذه الأسلحة. ويمكنها دائمًا أن تستعمل سحرها النسائي حتى النهاية، ولكن الوقت لم يحن بعد. الآن عليها أن تستفز مشاعر الغضب في نفسها ردًا على اتهاماته الباطلة. وهذا هو الموقف الصحيح لو كانت فعلاً بريئة من تلك الاتهامات. فخرجت الكلمات قوية وهادئة:

- عفوا، ماذا قلت؟ هل جئت أم أنك لست سوى إنسان وقع؟ وقف «كال» قبالتها واضعاً يديه في جيبه سرواله وقال:

- محاولة جيدة. ادعاء الغضب يناسبك تماماً. ارتفعت درجة التوتر عند «فانيسا»، ولكنها جاهدت للحفاظ على هدوئها. من الأفضل ألا تفقد أعصابها. وعليها أن تستمر في التمثيل لثلا تقول شيئاً تندم عليه فيما بعد، خاصة إذا أرادت مواجهة هذا الرجل. كان «كال» يراقبها وقد تصرخ خذها وأخذت تنفس بسرعة، لكنه لم يبد أيّة مشاعر، وظللت ملامح وجهه القوية الصلبة ساكنة وهادئة، ثم قالت «فانيسا»:

- لقد أطلقت اتهامات سخيفة، فهل يمكن أن توضح كلامك؟ بدت ملامح ابتسامة على وجهه:

- بالتأكيد، هل أنت تذكررين تفاصيل لقائنا الأول؟

- وهل يمكن أن أنساه؟ أنت تشير أساساً إلى الطريقة الفظة التي سألتني بها عن اسمي.

- هل كنت فظاً؟ حسناً، ربما... لكنني كنت غاضباً منك. فقاطعته بصوت ناعم:

- يظهر أنك ت يريد أن تخربني بقصة حياتك! فإذا كنت...

- لا، لن أخبرك بقصة حياتي. أنت التي سأنت. لم تستطعي حتى أن تتذكري اسمك.

- لقد ذكرت لك السبب. فأنا لا أخبر الغرباء عن...

- دعك من هذا. أي غريب أنا؟ فقد أنقذتك لتوي من موقف صعب. فلماذا يجب أن تخافي مني؟

- كنت متوقرة جداً، وساكnon معقنة إذا ما سمحت لي بإنتهاء جملة واحدة أقولها. واندمجت في دورها الجديد مما أعطاها دفعه كبيرة من الثقة بالنفس.

- لنقل إنني لم أرد أن أغطيك اسمي الحقيقي. هذا كل ما عندي من دفاع. أنت أسوأ أنواع الناس؛ لأنك تختار الأوقات غير المناسبة حتى تطرح اتهاماتك السخيفية. هذا طبيعي منك، وأنا أجد أن ملاحظاتك مهينة ولن أبيقي هنا

دقيقة واحدة، وبإمكانك أن تستمتع بالمشهد وحدك. ثم استدارت وتركته خلفها مصممة على الرجوع إلى السيارة، بل على السير إلى البيت إذا رفض نقلها

بعربته، المهم أن تحافظ على مظهر الثقة، حتى لو كانت ترتعش داخلها، فما دامت قادرة على إخفاء الأمر، فإن عندها فرصة كبيرة لربح المعركة. وهذه

كانت معركة بالفعل، بين شخصيتها الصلبة الاستفزازية وبين موقفها دفاعاً عما تعرفه ويجعله هو. لحقها «كال» على الفور. لم ينتظر قط، بل صعد التل قفزًا

بخطوات عريضة ثم أمسك بذراعها وجمدها في مكانها، ولم يكن أمامها إلا الوقوف. استدارت إليه وقد امتلأت بالغضب الحقيقي هذه المرة.

- أبعد يديك عنّي أيّها الخبيث. ضاقت حدقتها عينيه وهو يقول:

- إن لك مراجعاً صعباً للغاية.

- معك أنت؟ أجل... أنت مقرّز. فجأة أطلق ضحكة عالية مجلجلة. نزعت

في سريرها. من الواضح أنه يشك فيها، لكن بأية طريقة؟ لقد قال - وجاءت لتنظيم أفكارها المشوّشة - ماذا قال تحديداً؟ أنا أعرف أن اسمك ليس «فانيسا كولينز».. فما هو إذن؟ تنفست بعمق وهي تسترجع كلماته حرفياً، وكذلك تعبير وجهه التي رافقت تلك الكلمات. كان يتكلّم بيتهكم واضح، وفي عينيه نظرة تؤكد أنه يعرف كل شيء... بحيث زرع الرعب في قلبها. وأخذت تزن الأمور بعطف. ما قاله لا يعني أنه اكتشف الحقيقة فعلًا. يمكن أن يعتقد أنتي امرأة متزوجة وهاربة من زوجها، والأرجح أنه يذكر هكذا. نظرت إلى يدها، فلم تجد أثراً للخط الأبيض الذي يتركه خاتم الزواج. وفجأة نهضت من السرير وتوجهت إلى علبة مجوهراتها الموضعة على طاولة الزيستة وقلبتها بحثاً عن خاتم ذهبي كانت تفتن به دائمًا. وما وجدته وضعته في إصبعها وأبعدته عن وجهها لتعامله ملياً. هذا الخاتم سيجي بالغرض، وعليها أن ترتديه دائمًا من الآن، وعندها لن يلاحظ غياب العلامات الصغيرة.

وقبّل أن تستعد للعشاء، انتزعت الخاتم من إصبعها ودخلت لغسل يديها. تزيّنت جيداً وارتدى زفافاً رماديًّا فضفاضاً وطويلاً يبرّز قوامها الرشيق ويجعلها تبدو أكثر أناقة وسحرًا. حسّها يقول لها إن «كال» سيثير الموضوع الليلة وقبل عودة جدها غداً، إذا كان فعلًا سيواصل تحقّقاته عن شخصيتها.. والأرجح أن يحدث ذلك على العشاء. فإذا ما بدت في أحلى حالاتها، فستحصل على دفعـة كبيرة من الثقة بالنفس هي في أمس الحاجة إليها. وفقت أمّا المرأة لتفعـة اللمسة الأخيرة من ظلال العيون وأحمر الشفاه. إنها صارخة الجمال، ولكن جمالها لم يكن مصدر سعادة دائمًا، بل كثيراً ما سبب لها المشاكل، بحيث وجدت نفسها تحسـد صديقاتها نواتيـن العـاديـن، فـهنـ لا يـواجهـنـ مـصـاعـبـ كـثـيرـةـ، وـمعـ ذلكـ لاـ يـقدـرـنـ هـذـاـ الـوـضـعـ. تـنـهـدـتـ طـوـيـلاـ وـهـيـ تـضـعـ أحـمـرـ الشـفـاهـ. إنـهاـ مـسـتـعـدةـ للـعشـاءـ الآـنـ. أـلـقـتـ نـظـرـةـ أـخـيـرـةـ عـلـىـ الغـرـفـةـ ثـمـ أـطـفـلـاتـ الـأـنـوارـ وـنـزـلـتـ إـلـىـ غـرـفـةـ الطـعـامـ. وـجـدـتـ «ـكـالـ»ـ فـيـ الغـرـفـةـ معـ أـنـاسـ آـخـرـينـ، استـعادـتـ رـيـاطـةـ جـائـشـهاـ بـسـرـعـةـ بـعـدـ صـدـمةـ المشـاهـدـةـ الـأـوـلـىـ. عـلـىـ الأـقـلـ لـنـ يـقـدـمـ عـلـىـ خـلـقـ الشـاكـلـ أـمـامـ النـاسـ. كـانـتـ هـنـاكـ اـمـرـاتـانـ، أـمـ وـابـتهاـ عـلـىـ الـأـرـجـحـ، تـجـلـسـانـ إـلـىـ الطـاـوـلـةـ الـتـيـ

«ـفـانـيـساـ»ـ نـرـاعـهـاـ مـنـ قـيـصـةـ يـدـهـ بـأـقـصـىـ مـاـ تـمـلـكـ مـنـ قـوـةـ، وـصـرـخـتـ: أـنـتـ حـقـيرـ...ـ حـقـيرـ...ـ دـعـنيـ وـحدـيـ.ـ وـانـفـجـرـتـ باـكـيـةـ رـغـماـ عـنـ إـرـادـتهاـ،ـ وأـسـرـعـتـ تـرـكـفـسـ نـحـوـ السـيـارـةـ وـالـدـمـوعـ تـحـجـبـ عـنـهاـ الرـؤـيـةـ الـواـضـحةـ.ـ كـانـ كـلـ شـيـ يـسـبـحـ فـيـ ضـيـابـ خـفـيـ وـكـانـهاـ فـيـ حـلـمـ.ـ اـنـتـرـتـ فـيـ السـيـارـةـ حـتـىـ يـأـتـيـ «ـكـالـ»ـ وـيـسـبـبـهاـ إـلـىـ الـخـارـجـ.ـ لـمـ تـعـدـ تـهـمـ بـشـيـ».ـ إـنـهـ إـنـسـانـ حـقـيرـ.ـ أـحـسـتـ بـهـ فـيـ المـقـدـ المـجاـورـ،ـ دـونـ أـنـ تـرـاهـ بـسـبـبـ دـمـوعـهـاـ،ـ وـعـنـدـئـلـ قـالـ:

ـ حـسـنـاـ جـدـاـ.ـ لـقـدـ أـوـضـحـتـ مـاـ تـرـيـدـيـنـ.ـ بـرـيـكـ أـوـقـنـيـ هـذـاـ التـحـبـ!ـ قـطـعـتـ المـفـاجـأـةـ بـكـاءـهاـ،ـ تـمـخـطـتـ بـمـنـدـيلـ وـرـقـيـ وـقـالـ:

ـ لـقـدـ أـجـبـرـتـنـيـ..ـ وـأـخـذـتـ تـبـحـثـ عـنـ مـنـدـيلـ آـخـرـ فـيـ حـقـيـقـةـ يـدـهـ.ـ هـاـكـ مـنـدـيلـيـ.ـ فـأـخـذـتـهـ وـسـوـحـتـ بـهـ دـمـوعـهـاـ وـأـنـفـهـاـ،ـ وـقـالـتـ فـيـ نـفـسـهـاـ:ـ كـمـ أـكـرـهـ إـلـآنـ!ـ وـجـاهـتـ كـيـ لـاـ تـطـلـقـ الجـملـةـ فـيـ وـجـهـهـ.ـ سـمعـتـ يـدـيرـ آـلـةـ التـسـجـيلـ،ـ فـانـسـابـتـ مـوـسـيـقـيـ خـفـيـقـةـ فـيـ السـيـارـةـ.ـ خـفـفـ «ـكـالـ»ـ الصـوتـ قـليـلاـ وـقـالـ لـهـاـ وـقـدـ التـقـتـ عـيـنـاهـ عـيـنـهـاـ الدـاعـعـينـ:

ـ حـسـنـاـ أـيـتـهـاـ الـقطـةـ الـمـتوـحـشـةـ.ـ خـفـيـ مـنـ روـعـكـ آـلـآنـ.ـ وـتـسـأـلـتـ فـيـ نـفـسـهـاـ عـنـ ردـ فـعلـهـ فـيـماـ لـوـ ضـرـبـتـ بـقـوـةـ.ـ وـكـانـتـ الرـغـيـةـ عـمـيقـةـ بـحـيثـ اـضـطـرـتـ إـلـىـ التـشـبـيـثـ بـحـقـيـقـيـةـ يـدـهـ كـيـ تـمـنـعـ نـفـسـهـاـ مـنـ الضـرـبـ.ـ وـلـأـنـهـ لـمـ يـتـوقـعـ جـوابـهـ مـنـهـاـ،ـ أـدـارـ مـحـركـ السـيـارـةـ وـانـطـلـقـ بـسـرـعـةـ فـائـقـةـ عـائـدـاـ إـلـىـ «ـدـيـنـسـتـونـ هـاوـسـ»ـ.ـ وـاسـتـقـرـتـ «ـفـانـيـساـ»ـ فـيـ مـقـدـدـهـاـ وـيـدـاهـاـ تـفـخـطـانـ عـلـىـ الـنـدـيلـ وـالـحـقـيـقـةـ.ـ إـنـهـاـ مـنـهـكـةـ لـلـغاـيـةـ وـتـرـيـدـ بـعـضـ الـرـاحـةـ بـالـحـاجـ.ـ وـعـنـدـماـ اـسـتـلـقـتـ «ـفـانـيـساـ»ـ فـيـ سـرـيرـهـ ذـلـكـ الـمـسـاءـ،ـ وـقـبـلـ الـاستـعـدـادـ لـتـناـولـ الـعشـاءـ،ـ عـادـتـ إـلـىـ ذـاـكـرـتـهـاـ أـحـدـاـتـ الـيـوـمـ بـشـكـلـ مـؤـلـمـ وـوـاـضـحـ.ـ لـقـدـ اـسـتـطـاعـتـ مـنـ نـفـسـهـاـ مـنـ التـفـكـيرـ بـعـدـ عـودـتـهـاـ إـلـىـ «ـدـيـنـسـتـونـ هـاوـسـ»ـ؛ـ إـذـ رـفـضـتـ اـقـتـراحـ «ـكـالـ»ـ بـأـخـذـ قـسـطـ مـنـ الـرـاحـةـ،ـ وـتـرـكـتـهـ فـورـ دـخـلـهـاـ الـبـيـتـ،ـ وـأـمـضـتـ طـيـلةـ مـاـ بـعـدـ الـظـهـرـ فـيـ الـمـكـتبـةـ.ـ وـبـحـلـولـ السـاعـةـ الـرـابـعـةـ أـحـضـرـ لـهـاـ فـنـجـانـ الـقـهـوةـ بـنـفـسـهـ،ـ وـسـأـلـهـاـ عـمـاـ إـذـ كـانـتـ تـشـعـرـ بـالـأـلـمـ،ـ ثـمـ تـرـكـهـاـ.ـ كـانـتـ تـعـبـيرـ وـجـهـهـ حـيـنـذـ هـادـئـةـ وـخـالـيـةـ مـنـ الـقـسـوةـ الـتـيـ أـيـادـاهـاـ عـنـدـ القـلـلـ.ـ لـمـ تـعـدـ قـادـرـةـ عـلـىـ التـمـثـيلـ آـلـآنـ،ـ فـقـدـ هـاجـمـتـهـاـ مـخـاـوفـهـاـ دـفـعـةـ وـاحـدةـ وـهـيـ مـسـتـلـقـيـةـ

أعدت لأربعة أشخاص. شاهدها «كال» فنهض للاقاتها.

- ها قد وصلت أخيراً. قال العباره وكأنه انتظرها طويلاً. ثم توجه نحوها لرفقتها إلى المائدة. تنفست «فانيسا» بعمق؛ لأن شيئاً ما أشعرها بوجود جو عدائي في الغرفة موجه ضدها شخصياً.

- السيدة «ماكري»، وهيئر، هذه «فانيسا كولينز». وهاتان صديقتان للسيد «ماكلين». تقدمت «فانيسا» نحوهما ويد «كال» على ذراعها. لم يتردد عندما نطق اسمها، بل ذكر اسمها الأول وكأنه اعتقاد إيهاد. مدّ يدها اليسرى للسلام لأن اليمني ما تزال مضمدة. تأملتها السيدة «ماكري» ملياً بعينيها الزرقاويين الحادتين وسط وجه جميل وجذاب.

- كيف حالك يا آنسة «كولينز»؟ لقد تأسفنا للإصابة التي لحقتك اليوم، هل تشعرين بتحسن الآن؟ كانت ترتدي فستاناً فضفاضاً من الساتان السميك بلون بنفسجي فاقع، وتساءلت «فانيسا» في نفسها عمّا إذا كانت هذه السيدة تعرف أن اللون لا يناسبها أبداً. أما الابنة فقد كانت مختلفة تماماً. وعندما التقفت «فانيسا» إليها أدركت على الفور من أين جاء جو العداء ضدها. لم تكن «هيئر ماكري» شابة جميلة فحسب، فتفاصيل وجهها الأشقر كانت كاملة ابتداءً من العينين الناعمتين تحت رموش كثيفة حتى الشفتيين المكتنزتين الحمراوين، وقد تركت شعرها الأشقر الطويل منسداً على كتفيها وعقدته بربطة حزيرية زادتها أنوثة وشباباً. كما ساهم ثوبها الزهري المقتوح في إبراز هذه الصورة، ابتسامت «فانيسا».. وكان لسان حالها يقول: «حسناً، أنا لا أحبك!»، قالت بنعومة وحياة:

- مرحباً، لقد أخبرنا «كال» - ونظرت إلى الرجل الطويل الواقف إلى جانبها - عن الحادث الصغير الذي وقع لك. إنه حادث مؤسف. لكن المعنى وراء هذه الكلمات كان واضحاً بالنسبة إلى «فانيسا» التي بدأت تتمشى لو أنها بقيت في غرفتها. المعنى يقول بوضوح: «إن «كال» لي أنا، فراقيبي تحركاتك. وأنا مسرورة جداً للحرق الذي أصاب يدك». ردت «فانيسا» بابتسامة مصطنعة:

- شكراً لك. لقد اعتادت مثل هذه المواقف العدائية، أما إذا اعتتقدت الشابة

الشقراء أن «فانيسا» تريد الاستيلاء على «كال» فهي مخطئة تماماً. على الأقل، «كال» خصم على مستوى ما، وهو أفضل من هذه الشقراء النحيفة التي تبدو أكبر من «فانيسا» بحوالي سنة، والتي يبنين شكلها عن التراء الفاحش الذي يحمل الثقة المبالغ فيها إلى بعض الناس. توجه «كال» إلى خزانة الحائط ثم التفت نحو «فانيسا» وسألها:

- ماذا تشربين؟ أجبته قائلة:

- عصير التوت من فضلك. آه لو يظل لطيفاً كما هو الآن، فالحياة تكون رائعة عندها. ولن تجد «فانيسا» ما تشكو منه. دخلت السيدة «بانكس» حاملة طبق الحساء وأمضى الجميع دقائق في ترتيب مقاعدتهم، ثم أدركت «فانيسا» أن السيد «ماكلين» يجب أن يكون هنا على العشاء والا فكيف تفسر حضور هاتين الشقيقتين؟ وقد تأكد ظنها من خلال الحديث الذي جرى على العشاء بين «كال» والسيدتين في حين ظلت «فانيسا» مستمعة. فقد قررت - بينها وبين نفسها - أن تتصرف بهدوء والألا تتكلم إلا إذا خططها أحد الحضور. فهي غريبة هنا وليس سوى موظفة، والآخرون كما هو واضح يعرفون بعضهم جيداً، لو أنهم يعرفون الحقيقة، لذابت الابتسامة على شفتي «هيئر». أمسكت «فانيسا» عقال لسانها وتناولت حسامها بحذر بالغ متذكرة ما حدث عند الظهور... ونظرت إلى «كال» فوجدها يحدق إليها. اتسعت عيناهَا تعجباً، ترى ما هذا التعبير الذي على وجهه؟ خيل إليها أنها ترى معنى محيراً، لكن المعنى اختفى عندما قال:

- الحساء ليس ساخناً كالمرة السابقة؟ اغتنصبت ابتسامة وقالت:

- كلا. كان يعلم جاهداً كي يلطف الجو. ومن خلال نظراته إلى الفتاة الأخرى لم يكن الأمر صعباً. من الواضح أن هناك شيئاً ما بينهما، خاصة النظارات الدائمة التي كانت تلقيها «هيئر» باتجاه «كال»، والبسمات التي حرست على أن تلحظها «فانيسا» دائماً. أما «كال» فقد لعب دور المضيق بنجاح في غياب السيد «ماكلين». وكان يبدو على السيدة الكبيرة إعجابها بكلام «كال» بحيث طفت ضحكاتها على العشاء كلها. وتساءلت «فانيسا» عن الوقت المناسب الذي

يمكنها فيه أن تنسحب إلى غرفتها، فهي متأكدة أنهم لا يريدونها، كما أنها لا تزيد أن تبقى معهم أيضاً. ولكن تبين أن الهرب مستحيل، فما إن انتهوا من تناول الجبن والبسكويت، حتى اقترح «كال» أن يتوجهوا إلى الباب لتناول القهوة. حممت السيدة «ماكري» موافقة، في حين ابتسمت «هيثر» لـ«كال» بسخونة بالغة... أما «فانيسا» فقد قالت بهدوء:

- أظنك ستعذرونني لعدم تمكنني من البقاء! ضاقت عينا «كال» وهو يسألها: - ولكنك ستتناولين القهوة معنا؟

- لا شكراً، العشاء كان ممتازاً... لكنني لا أستطيع السهر. ابتسם بهدوء، وقال:

- يجب ألا نغضب السيدة «بانكس». فهي لن تقبل بأن تجد فنجان قهوة غير مشروب على الطاولة، باعتبار أنها فخورة جداً بالقهوة التي تصنعها. شعرت «فانيسا» برغبة طفولية في أن ترد عليه قائلة: «يمكنك أن تشرب الفنجانين بنفسك». لكنها لم تفعل بالتأكيد. واكتفت بالقول:

- هل يمكن أن آخذه إلى غرفتي إذن؟ تدخلت «هيثر» بصوت ناعم قائلة: - بالتأكيد يا «كال». فلا شك في أن «فانيسا» متعية بعد حادث اليوم. والتقت إلى «فانيسا» وكأنها تقول: «حظ سيني... على كل حال نحن لا نريدك أيضاً». استغربت «فانيسا»، وهم يسيرون في الممر المؤدي إلى الباب، كيف يكون «كال» فظاً معها بينما هو ناعم جداً مع «هيثر»؟ وقالت لنفسها: «كم أن الرجال أغبياء! يكفي أن ترُف تلك المرأة جفونيها حتى يسرع «كال» إلى الجلوس بين يديها. على كل هما مناسبان لبعضهما...» واعتقدت أن هذه النتيجة ستعزّزها قليلاً، ولكن هذا لم يحصل. وعندما دخلت السيدتان إلى الباب تعهل «كال» ليفسح الطريق أمام «فانيسا»... لكنها توقفت قليلاً. ثم استدارت نحوه وقالت:

- السيدة «ماكري» على حق. يدي أتعيّنني، ولذلك سأتذذر بالانصراف وأؤي إلى فراشي. وأنا متأسفة على فنجان القهوة. رأت عضلات فكيه تتقلص وتشتد، فادركت أنه غضب من شيء ما. أعطاها هذا الإحساس بعض الارتياح ومكنها من أن تضيق بسرعة:

- وأعتقد أن وجودي غير مرغوب فيه في هذه السهرة... كما أن التلفاز سيعرض فيلما جيداً. ودون أن تنتظر جوابه، دخلت إلى الباب وتوجهت حيث جلست السيدتان وقالت:

- أرجو المعذرة... تصبحان بخير. ولم تنظر إلى «كال» وهي تعاذر الغرفة، لكنها شعرت بأنه على وشك أن يلحق بها ويوقفها مثلاً فعل فوق القل بعد الظهر. أغلقت باب غرفتها وألقت بجسمها على السرير وتنهدت بعمق. انتهى كل شيء. وفكرت بارتياح: «إذا ما التقيت «هيثر» العزيزة مرة أخرى، فلن أزعج نفسي بمحادثتها». توجهت نحو النافذة وأسدلت الستائر الخملية. ثم أدارت جهاز التلفاز وغرقت في الكرسي الوثير الذي يواجهه. شعرت بالندم؛ لأنها لم تنتظر قليلاً لتحضير فنجان القهوة معها، ولكنها لن تنزل لإحضاره بل تفضل أن تشرب الماء بدلاً من القهوة. ملأت موسيقى البرنامج الكوميدي الذي يعرضه التلفاز جو الغرفة في حين انهمكت «فانيسا» في فك سحاب فستانها... عندما ارتدت الفستان لم تجد صعوبة في رفع السحاب. لكنها اضطرت -الآن- إلى استعمال يديها الاثنتين، لأن السحاب تعرقل عند الرقبة تماماً. فكرت للوهلة الأولى في أن تسلل دون أن يراها أحد إلى المطبخ وتسأله السيدة «بانكس» أن تساعدها. أسقطت هذه الفكرة وهي تبتسم لساختها. الأفضل أن تبحث في الغرفة عن شيء يساعدها، مثل: مبرد أظافر أو مقص. وأخذت تقلب كل الاحتمالات المعقولة وغير المعقولة. أسهل احتمال كان أن تنزل وتسأله السيدة «ماكري»، أن تساعدها... أسقطته عندما فكرت في ردة فعل «هيثر». فجأة سمعت قرعًا على الباب، ودون أن تلتفت قالت:

- ادخلني. لابد أن «كال» قد طلب من السيدة «بانكس» أن تحضر لها القهوة. لكن الصدمة كانت كبيرة عندما التفتت من فوق كتفها لتجد «كال» نفسه حاملاً لها فنجان القهوة ومعه بعض الشوكولاتة:

- آه، هذا أنت؟ وضع الصينية التي كان يحملها على الطاولة المجاورة للباب.

- من توقعت؟ «لوري»؟ سألها بجفأة، وقد اسود وجهه، وتتابع: لماذا تحاولين

إزاحة هذا الكرسي؟

- حتى أستطيع مشاهدة التلقيح براحة. ثم تذكرت ضرورة أن تشكره فقالت:

- أشكرك لأنك أحضرت لي القهوة... أجابها مضيفاً:

- والشوكولاتة بالنعناع أيضاً. ثم اقترب من الكرسي وحمله على الرغم من

ضخامته وثقله وقال لها:

- قوللي لي أين ترددتني؟

- آه هنا... إلى اليمين قليلاً.. ممتاز، شakra لك.. لعد، لقد اعتدلت السيدة

«بانكس»! رفع أحد حاجبيه وقال:

- صحيح؟ أنا متائب لأنني خبيت ظنك. بلعت ريقها وهي تقول:

- كنت أريد... عليها أن تتحرك الآن ولا فات الأوان.

- لم أستطع أن أفك سحاب فستاني وأردت أن... ترى لماذا لم يقاطعها

كعادته؟ يا له من رجل خبيث! أما هو فقد ظل واقفاً يراقبها بهدوء بانتظار

انتهاء كلامها. وتتابعت تقول:

- كنت سأسأل السيدة «بانكس» إن.. من الأكيد أنه سيرفض مساعدتها.

وأخيراً ابتلعت كبرياتها وقالت:

- أرجوك، هل لك أن تصاعدني في حل عقدة سحاب فستاني بالقرب من

العنق؟

- بالتأكيد. لم أعرض المساعدة أولاً لثلا يسا، فهمي. أدارت ظهرها وهو في

طريقه إليها. خيم جو من الصمت على الاثنين، فأحسست «فانيسا» بأنه يتمتع

بالإحراج الذي أصابها من جراء طلبها. كانت يداه بارديتين وسريرعتين. حل

عقدة السحاب من أعلى، تردد قليلاً ثم أكمل سحبه إلى أسفل. أحسست بنفسه

يلفح رقبتها وهو يقول:

- هل يكفي هذا؟

- لست... امتدت يداها إلى الخلف لتجس السحاب، فاللقتا كفيه للحظات

قليلة كانت كافية لبث تيار كهربائي في جسدها.

- إلى أسفل قليلاً، أرجوك. يا الله! ماذا حل بها؟ فقد كانت ترتجف مثل ورقة

شجر في مهب الريح. ابتهلت في داخليها: «أرجوك، ارحل الآن». وأحسست بالسحاب ينحل أكثر.

- هذا أفضل. شakra لك. واستدارت بسرعة خوفاً من أن يحاول أن يحله أكثر مع أنها تعرف أنه لن يفعل، فاصطدمت به. أسرع «كال» بوضع يديه حول كتفيها لمنعها من السقوط، وللحظات وقفَا صامتين. وكان إحساس بالتوتر يهمن علיהם لإدراكهما أن شيئاً غريباً يحدث في الغرفة.

- حسناً، يجب أن أذهب الآن لأنضم إلى الضيوف. حطم كلامه الصمت بينهما، فاستدارت «فانيسا» بعيداً في حين سار «كال» نحو الباب مغادراً الغرفة. فتح الباب، تردد قليلاً قبل أن يقول:

- تصبحين على خير. انتزعت وسادة السرير وصفقت الباب بعنف. خيل إليها ساع ضحكته في المعر، فوقت في مكانها وصدرها يغلي بالغضب، لكنها لم تكون غاضبة تماماً، فالشعور الذي ملاً صدرها كان جديداً عليها... إنه مخيف ومثير في آن واحد. اعتدت «فانيسا» أنها ستاوي إلى فراشها مبكرة. وبعد أن خلعت ملابسها جلست في المهد الوثير تحتسي قهوتها مع ألواج الشوكولاتة بالنعناع. أحسست بالتعب فقررت أن تنام فور انتهاء الفيلم التليفزيوني. ومع مضي الوقت، وجدت نفسها قلقة وغير قادرة على النوم. كانت تسمع صدى أصوات تتبع من الطايب السقطي دون أن تعرف ما هي. ترى ماذا يفعلون هناك؟ يتحدون؟ يلعبون الورق؟ وعندما انتهت الفيلم الذي كان مملاً وسخيفاً مفسحا المجال للإعلانات، قامت «فانيسا» نحو النافذة وأزاحت الستارة. أمام الباب وقفت سيارة «رولز رويس» فخمة. من الذي يسوقها؟ الأم أم الابنة؟ على كل حال هما ما زالتا في البيت.

وفي لحظة غضب أرخت «فانيسا» الستارة بعنف وأطفأت التلقيح وتوجهت إلى السرير. استلقنت في فراشها دون أن تستطيع النوم. وزداد الألم بالتدريج في يدها بحيث لم تعد قادرة على الاحتمال فتوجهت إلى الحمام وتناولت حبّين من الدواء الذي أعطاها إيهاد الطبيب. وبينما هي عائنة إلى سريرها سمعت همهات تصدر من أسفل النافذة فتوجهت إليها فوراً. رفعت الستارة

وستراقب «كال غرين» بحرص بالغ في هذه الفترة. عليها أن تتناول الإفطار بسرعة وتبدأ عملها في المكتبة؛ لأن الكتب ستساعدها على التفكير المستمر في «كال» وجدها. كانت تتوقع أن تكره المكتبة خاصة أنها قبلت الوظيفة كوسيلة لتنفيذ مأربها، لكن هذا لم يحدث. لقد وجدت متعة فائقة في التعامل مع الكتب الأنجية وقراءة عنوانها والرجوع إلى الماضي كما كان، إذ ليس هناك أفضل من كتاب يعيد إحياء الماضي في لحظات. كما كانت هناك مئات الصحف القديمة التي دلها عليها «لوري» في إحدى الزوايا، وبعضاها يعود إلى أوائل القرن الثامن عشر. وقد تشوقت «فانيسا» إلى العمل فيها وترتيبها حسب التسلسل الزمني. ولا شك في أن هذه المجموعات قيمة جداً، لكن هل يعرف جدتها قيمتها الحقيقية؟ هذا ما ستعرفه قريباً.

وبينما هي تنزل السلالم متهملة باتجاه الطابق السفلي سمعت باباً يفتح، فتوقفت. هل هذا باب غرفته؟ لقد سمعت صوت محرك سيارة وهي تستحم، لكنها لم تشاهد شيئاً أمام النزل عندما نظرت من النافذة. وفجأة اعتراها شعور بالضياع والارتباك.

- صباح الخير. داهمها الصوت بحدة وهي تنزل الدرجات الأخيرة وتلتقي مواجهة مع الرجل الآتي من البهو. ارتأحت قليلاً عندما رأت أنه «كال». كان يرتدي صداراً صوفياً أبيض فوق قميص أبيض أيضاً. بدا لها جذاباً أكثر من ذي قبل، وعرفت على الفور لماذا أعجبت «هيثر» بهذا الخلوق القوي. ابتسם لها، فأعادها فوراً إلى حالة الترقب والاستغرار.

- أعتقد أن السيد «ماكلين» لن يكون معنا على الفطور، لكنك سترينه لاحقاً.

- ألم يحضر بعد؟

- بلى، لقد حضر. بدت عيناه الخضراءان بلون رمادي غامق من تأثير الضوء القوي. لكن «فانيسا» كانت مهتمة أكثر بالنظرية المعمنة التي أطلقها نحوها. وتذكرت أنه رآها مساء أمس وهي واقفة بالنافذة. نزلت الدرجة الأخيرة وسارت باتجاه غرفة الطعام. ولأن ساقيه كانتا طويتين فقد تمهل في سيره كي يبقى في موازاتها.

بحذر شديد ونظرت إلى الباحة التي أضفت فجأة فانعكس النور على لون «الروزل رويس» الذهبي، وهناك وقف ثلاثة أشخاص: السيدة «ماكري» و«هيثر» و«كال». كانوا يتحدثون، وأحدهم يضحك عالياً. لست «هيثر» ذراع «كال» الذي انحنى نحوها كأنه يريد سماع كلمات خاصة منها... ومع أن «فانيسا» أرادت أن تبتعد عن النافذة إلا أنها لم تستطع. وأخيراً لوح السيدة «ماكري» بيدها، ففتح «كال» باب السيارة الخلفي لها. دخلت «هيثر» خلفها بعد أن تمهدت لتبادل عناق قصيراً مع «كال». أغلق باب السيارة، فأنزلت «هيثر» زجاج الشباك وقالت شيئاً ما لـ«كال» الذي رد بضحكة طويلة. إذن هناك سائق خاص لقيادة السيارة؟ ولماذا لا؟ راقت «فانيسا» السيارة وهي تتحرك باتجاه الباب الخارجي. وكانت على وشك أن ترخي المسارة، لكنها ترددت قليلاً لتأمل «كال» الذي انعكس ظله على الباحة الأمامية.

كيف اعتقدت أنه ليس قوياً؟ إنه يبدو الآن كحيوان شديد القوة مليء بجازية لا يمكن إنكارها أبداً. وفجأة استدار والتفت إلى أعلى... مباشرة باتجاه «فانيسا». نظر إليها للوان قبل أن يبتسم ويختفى داخل البيت. قفز قلب «فانيسا» بشدة وهي تبتعد عن النافذة. لقد شاهدها الآن، فكيف يفكر في ذلك؟ اعتتقدت أنها لن تقام بسرعة، لكن حبتي الدوا، أعطيا مفعولهما الفوري. وغرقت في كوابيس مزعجة دارت كلها حول وجهين، أحدهما لرجل عجوز لم تره بعد، والآخر لشاب قوي الملامح أصبح مألوفاً لديها تماماً.

استيقظت مبكرة، لكنها ظلت مستلقية تسترجع أحداث اليوم الماضي. وفجأة اعترتها رعشة باردة فانتصبت جالسة. لقد تذكرت أنها ستنتقى جداً بعد ساعتين تقريباً. لن تستطع أن تتراجع الآن فقد فات الأوان. وداهمها شعور آخر بالانزعاج عندما فكرت في «كال». فهذا الرجل سيراقبها بدقة؛ إذ إنه يشك فيها دون أن تعرف لماذا. لعله حدس وجود شيء غير طبيعي في تصرفاتها؛ ولذلك عليها أن تتصرف بأعصاب باردة وهدوء تام. فهل تستطيع أن تنجح في هذه المهمة؟ حاولت أن ترخي أعصابها وهي تغسل وجهها وترتدي ملابسها. إنها تحتاج إلى كل ما تخزن من إرادة، خاصة خلال اليومين المقربين،

- كيف حال يدك اليوم؟ هل تشعرين بتحسن؟  
 - نعم، شكرًا لك.  
 - هل طلب منك الدكتور «فينيس» مراجعته مرة أخرى؟ حففت سيرها ونظرت إليه. كانا قد وصلا تقريرا إلى باب غرفة الطعام. قالت:  
 - طلب مني أن أغير الضمادة يومياً، وأن أبلغه على الفور بأي شيء طارى. ولا أتوقع حدوث التهابات؛ لأن جراحي تلقم بسرعة.  
 - ممتاز، وهل تستطعين لف الضمادة؟ لا تربدين أيه مساعدة؟  
 - لا، شكراً. وابتعدت عنه؛ إذ بدا لها للحظة وكأنه سيمسك ذراعها، وهي لا تزيد أن يمسها أبداً. لم تكن السيدة «بانكس» في أحسن حالاتها في تحضير الغطور. لعل ذلك بسبب عودة صاحب البيت، فربما كانت مهتمة بإعداد فطور خاص له ليتناوله في غرفته. وتساءلت «فينيسا» عن المكان الذي كان فيه جدها، من المحتمل أنه كان مسافراً. إنها لا تعرف طبيعة الأعمال التي يقوم بها، خاصة أن أبيها تكتم جداً في هذه الناحية.  
 - هل أنت قادرة على تقسيم قطعة الجبن؟ فاجأها سؤاله:  
 - ماذا؟ آه، أجل أستطيع تدبير أمري.  
 وقالت في سرها: «وكأنني سأسمح لك بأن تقوم بالمهنة عنِّي». وتساءلت عما سيحدث في عطلة نهاية الأسبوع، هل سيطلب منها العمل خلالها؟ من الممكن أن تقبل العمل صباح السبت، أما بعد الظهر ويوم الأحد فلا. قررت الخروج بسيارتها إلى نزهة غير بعيدة، بعد ذلك ستقرأ، ثم تكتب رسائل إلى الأصدقاء أو تكتفي بمشاهدة التلفزيون في غرفتها... على الأقل ستكون هناك في مأمن من إيحاءات «كال» ونظراته الباردة المتحدية. رفعت عينيها فجأة فوجده متقدماً إليها، وتشابكت نظراتهما للحظة في حوار صامت غريب. حبسَت «فينيسا» أنفاسها. ما هو المعنى الذي تحمله نظراته؟ هناك شيء لا تستطيع فهمه. لم يكن العداء الذي عهدته منه، وحتى لو كان كذلك فإنه عداء خفي... والجانبه تعبير لم تتعوده من قبل؛ إذ لم يكن هناك ذلك الإعجاب الواضح الذي يظهر في نظرات معظم الرجال. أعادت نظرها إلى صحن الجبن وتشغلت

بالأكل. ستره أنه لا يستطيع إزعاجها. فقالت له:  
 - سأباشر العمل في المكتبة بعد الغطور. ونظرت إليه مباشرة بعد أن استعادت رباطة جأشها.  
 - ممتاز، وأعتقد أن «لوري» سيكون هناك للمساعدة. على فكرة كيف تسير أمور العمل؟  
 - على ما يرام، وهو يساعدني كثيراً. لقد اكتشفت أن ترتيب الكتب أمر متثير للاهتمام أكثر مما كنت أتصور. وقطعت جملتها. لماذا تزعج نفسها بإخباره عن العمل؟ ابتسم وكأنه يشجعها على المضي في حديثها:  
 - إذن أنت مستمتعة بعملك؟ إنه قادر على استفزازها بكلمة يقولها فحسب أو تعبر يظهره... والأسوأ من ذلك أنه يعي قدرته تلك. وقد أدركـت «فينيسا» أنه تعمد الاستفزاز من جديد.  
 - ولم لا؟ فالكتب مشيرة للاهتمام. وتتابعت ببرود:  
 - أم أنك لا تجدها مهمة فعلاً؟ هز رأسه موافقاً:  
 - أنا مهمت جداً، خاصة بالكتب التي تتحدث عن الدول الأجنبية.. والتي ستتجدين عدداً كبيراً منها في المكتبة. أجبته وقد نسيت استفزازه السابق:  
 - لقد فرزت عدداً منها من بين الكتب التي أحصيتها حتى الآن. وفكـرت فيه، إنه يبدو جذاباً جداً في بعض الأحيان. وتتابعت:  
 - أحد هذه الكتب قديم ومعطاة بالغبار، لذلك أقترح عليك أن تبني الضمادة إلى ما بعد انتهاء العمل ثم تغيرينها في المساء. نظرت إلى يدها وقد أعجبها الاقتراح فقالت:  
 - سأفعل ذلك.  
 - ولا تحاولي أن تحملـي الكتب بيـدك المصابة، ليس خلال اليومين المقبلين على الأقل.  
 - لن أفعل. أريد أن أسأـل: هل تعرف ما هي ساعات عملـي غداً باعتبار أنه السبت؟

- لا. على كل حال ستفاهمين مع السيد «ماكلين» حول ذلك، فهذا ليس من اختصاصي. لكنني لا أعتقد أنه سيصر إذا ما أردت الراحة غدا. هل هناك مكان محدد تريدين زيارته؟ نظرت إليه:

- تقصد زيارة أحد ما؟ لا، فأنا لا أعرف أحدا هنا. ربما خرجت في نزهة لاستكشاف الريف الاسكتلندي... وهذا كل شيء. رفع أحد حاجبيه قليلاً وهو يقول:

- وحدك؟ حتى بعد الذي تعرضت له مؤخرا؟  
- لا أعتقد أنني سألتني الشابين مجددا، على الأقل ليس في الجوار. واعترف قائلاً:

- معك حق. فلم يحصل أن حدثت مثل هذه الأمور في المنطقة. لكن من الممكن أن تخبيء في الريف الواسع! ابتسمت وهي تقول:  
- هل لديكم خريطة؟ صدق أو لا تصدق، لقد جئت من «لندن» إلى هنا مستعينة بالخريطة فقط. الواقع أنني خبيرة في قراءة الخرائط وإشارات السير. وأبقيت الابتسامة على شفتيها، لكي تشعره بأنها لامبالية. ضحك «كال» عالياً:  
- أنا متأكد من خبرتك. ثم رفع وعاء القهوة وسألها:

- مزيداً من القهوة؟  
- نعم. ورافقته وهو يسكب القهوة ثم يضيف بعض الحليب (اللبن). وفجأة انفتح الباب ودخل رجل في السنتين من العمر، طويل القامة وأشيب الشعر. ولم تكن «فانيسا» تحتاج إلى من يخبرها بأن هذا الرجل هو جدها.

خشيت «فانيسا» أن تظهر على وجهها آثار الصدمة التي أصابتها، في حين وقف الرجل عند الباب لثوان معدودة. أحسست بأنها ترى والدها مرة أخرى لكنه أكبر عدة سنوات. كل شيء بدا لها مألوفاً: الطريقة التي يقف ويمشي بها، الوجه النحيف ذو التقاطيع الحادة، والعيون الزرقاواني النافذتان تحت

حاجبين كثيفين. وأخيراً تكلم:

- هانتنا هنا معا. وحتى صوته بدا مألوفاً بحيث شعرت برغبة في القفز إليه واحتقاره عن شخصيتها... لكنها تمالكت أعصابها، فقد كان «كال» يراقبها، ثم استدار إلى الرجل القادم ووقف له. سار «أندرو ماكلين» باتجاههما:

- صباح الخير يا «كال». ثم حول نظره الحادة إلى «فانيسا» وقال:

- صباح الخير يا آنسة «كولينز». اضطررت «فانيسا» إلى مصافحته عندما استدار نحو الطاولة، فاعتذر له، لأنها استعملت يدها اليسرى... وكانت ساقها ترتجفان.

- هل تريدين فنجانا من القهوة يا سيد «ماكلين»؟ سأله «كال» وهو يسحب له الكرسي حول المائدة.

- بالتأكيد. لقد شربت فنجانا في غرفتي، ولكن لا مانع عندي من فنجان آخر. استدار نحو «كال» الذي انشغل بسكب فنجان القهوة، ثم التفت نحو «فانيسا» مرة أخرى وهو يقول لها:

- أعتذر لأنني لم أكن هنا لاستقبالك، وأنتمي أن يكون «كال» قد قام بالواجب. هل جال بك في البيت؟

- أجل، شكرا لك. كنا نتحدث عن أهمية الكتب الموجودة في المكتبة.

- إذن أنت تجدينها لافتة للنظر؟ هذا جيد؛ لأنني أؤمن دائمًا بأنه من الأفضل للإنسان أن يعمل في المجال الذي يحبه. هل واجهتك أية مشاكل؟

- كلا يا سيد «ماكلين». كان عليها أن تنطق اسمه - أو بالأحرى اسمها - في وقت ما. وكلما بكرت كان الأفضل. وعندما فعلت لم تجد الأمر صعباً كما كانت تتخوف.

- لكن حادثاً مؤسفاً وقع ليك! أنا متأسف لذلك. كان الاهتمام الحقيقي واضحاً في صوته.

- كانت غلطتي في الأساس. وأنا متأكدة أنها ستتحسن خلال أيام قليلة... والحادث لن يؤثر في استمرار العمل. اعتقدت في البدء أنها لن تستطيع التحدث إليه بشكل طبيعي، لكنها استطاعت. وكانت ستجد الأمور أكثر سهولة لو أن

«كال» غير موجود، هذا الرجل غير المتوقع الذي خلق لديها شعوراً بالذنب وعدم الارتياح والذي يبدو أنه يستمتع بذلك. وهنا تدخل «كال» قائلاً:

- «لوري» يساعد الآنسة «كولينز» الآن.

- حقاً؟ أعطاها جدها ابتسامة خفيفة وقال:

- يظهر أنني أساءت فهمه، لقد رفض في البدء باعتبار أنه مشغول جداً.

- لعله اكتشف أنه يستطيع تدبر أمره على أي حال، ولم يكن في صوت «كال» أي معنى، لكن «فانيسا» فهمت مقصده وتمتنت لو أنه يغادر الغرفة. والآن، بعد أن زالت صدمة رؤية جدها لأول مرة، وجدت نفسها تراقبه في محاولة لتبين ملامحه بعيداً عن أبيه مشاعر شخصية، كما لو أنه غريب تماماً. فهذا ما يجب أن تفعله إذا أرادت لا تكشف قبل أن يحين الموعود الذي لم تحددنه بعد. اكتفت «فانيسا» باحتسائه قهوجتها بينما كان «أندرو ماكلين» يسأل «كال»:

- لقد انزعجتنا قليلاً، لأنك لم تكون هنا، لكنني حاولت قدر جهدي أن أهتم بهما. التفت إلى «فانيسا» مبتسمًا، فرددت عليه بمنظره باردة.

- سأتصل بهما هاتفياً في وقت لاحق. لم يكن بالإمكان الحضور أمس، فالرحلات من «باريس» محجوزة كلها. ابتلع آخر رشفة من قهوته ووقف قائلاً:

- يجب أن أذهب لأداء بعض الأشغال. أراك فيما بعد يا آنسة «كولينز». وغادر الغرفة مثل جندي طوبيل يسير ثابت الخطى. خيم الصمت بعده للحظات، ثم نهضت «فانيسا»:

- يجب أن أبدأ العمل. وفجأة خطر على بالها خاطر. التفت إلى «كال» وسألته:

- ماذا عن الغداء؟ نهض ببطء وهو يقول:

- الغداء؟ ماذا تقصدين؟ كانت تود أن تقول له: «أنت تعرف تماماً ما أقصد»، لكنك تجد متنة في لخبطه الأمور بالنسبة إلي». لكنها قالت:

- أقصد أين سأتناول الغداء؟ في غرفتي؟ رفع حاجبيه ببطء:

- هنا مثلاً فعلت أمس. تنفست «فانيسا» بعمق وهدوء:

- لقد عاد السيد «ماكلين»، الآن. كان لطفاً منك أن تدعوني إلى غرفة الطعام أول مرة، لكنني لست سوى موظفة في هذا البيت وأتوقع أن...

- موظفة؟ يا لها من طريقة رائعة للتعبير عن الذات! صحيح أنك موظفة، لكن هل تعتقدين أن ذلك يعني دعوتك إلى المطبخ لتناول الطعام في إحدى زواياه؟ أحسست بأن دمها يغلي وهي تكبح جماح غضبها. يا له من رجل مكابر وعنيد!

- أنا متأكدة أنك تعرف ما قصدته. أنت قيف هنا، ولا أعتقد أنك تقدر موقفي.

- لا أقدره فعلاً؟ وضاقت حدقتاه بغضب وهو يضيف:

- ستقاومين إذا عرفت أن السيد «ماكلين» سيندهش، بل سيغضب، إذا ما افترحت تناول طعامك في أي مكان آخر. ولم يعد في يدها حيلة. كيف يمكن أن تخبر رجلاً كهذا بأنها لا تريد أن تأكل معه، لأنه يخيفها؟ إنها لا تستطيع، وعليها قبول الواقع. ودون أن تتغوفه بكلمة استدارت خارجة من الغرفة. وقبل أن تصل إلى الباب كان هو هناك أولاً، وقال لها:

- اسمحي لي أن أفتح لك الباب.

- شكراً لك. وخرجت بسرعة دون أن تنتظر لترى ما إذا كان يلحق بها، قاصدة المكتبة لتبدأ العمل. فهناك، وهناك فقط، ستجد نفسها قادرة على التفكير في الرجل الذي التقته اليوم لأول مرة ، الرجل الذي هو جدها، ولكنه لا يعرف ذلك. أغلقت الباب وراءها ورممت الحقيقة على أحد المقاعد. ارتدت الرداء الواقي من التراب وتساءلت عما إذا كان «لوري» سيأتي لمساعدتها، ومتى. أحسست أن الحادث الذي جرى بينهما أصبح من الماضي، مع أنه وقع بالأمس فقط. وكم تمنى الآن لو أنه لم يحدث قط! لقد عمل بنشاط وقدم مساعدة قيمة، لكنها في غنى عن أية إشكالات جديدة قد تزيد من اضطرابها الداخلي؛ ولذلك قررت أن تقع على الفور أية محاولة جديدة منه، إذ تكفيها المشاكل مع «كال»، وظهور جدها المفاجئ. كانت منهكمة في العمل عندما قرع «لوري» الباب ودخل، حيثه بابتسامة صدقة وقالت:

- صباح الخير يا «لوري».
- صباح الخير. ركز نظره في يدها المصابة وقال:
- كيف حالك اليوم؟
- أفضل قليلاً، شكرًا لك. لكنها عادت وتساءلت:
- كيف عرفت؟
- إذا قضيت وقتاً طويلاً هنا فستكتشفين أن الأخبار تنتقل بسرعة في هذا البيت. على كل، الطاووس يغزو كل الناس. المهم أن تكوني حذرة فيما يتعلق بيديك، وأنا سأقوم بكل ما يلزم.
- شكرًا لك. يجب أن تبدأ أولاً بالكتب التي أنزلتها، إذ إنني كنت بطيئة بالأمس. من الأفضل لها أن تركز الحديث في العمل والكتب. ووجدت «فانيسا» الفرصة لتكشف الجانب الآخر من «لوري» الغارق في غبار العمل. إنه يحب الكتب فعلاً، كما أنه يجتهد للتصرف بشكل طبيعي وكأنه أحسن مراجها المتعكر اليوم. مضى قبل الظهر بسرعة، بحيث فوجئت «فانيسا» عندما فتح الباب ودخل جدها إلى المكتبة. وعندما شاهده «لوري» توجه للسلام عليه.
- صباح الخير يا سيد «ماكلين». إن شاء الله كانت رحلتك موفقة؟
- أجل، وشكراً يا «لوري». يظهر أنك مشغول أيضاً. هل تعرف كم الوقت الآن؟ واندھشت «فانيسا» عندما عرفت أن الساعة تجاوزت الواحدة، وعليها أن تغتسل. نهضت عن الأرض وهي تقول:
- أنا آسفة، لقد استغرقنا في العمل.
- أعرف ذلك، لكن يجب أن تأكلني يا بنتي، فهيا بنا. الكتب ستظل هنا عندما تعودين! وانتظر بالباب حتى خرجا. حمل «لوري» سترته ووقف ينتظر خروج «فانيسا» لكن كم الرداء الواقي علق بالضعاذه، بحيث اضطر «لوري» إلى مساعدتها.
- شكرًا لك. وأدركت «فانيسا» أن شيئاً مما دار لم يفت جدها. قطعت المسافة إلى غرفتها ركضاً ثم غسلت وجهها وفككت الضعاذه عن يدها وعادت بسرعة إلى غرفة الطعام لتتجدد الرجالين على وشك الانتهاء من الحساء.

- أنا آسفة، لكن «أندرو ماكلين» قاطعها بإشارة من يده وقال:
- لا ضرورة للاعتذار. من الجميل أن نجد إنساناً يحب عمله إلى الحد الذي عنده ينسى الوقت. ثم نظر إلى «كال» وقال:
- ما رأيك أنت؟
- بالتأكيد.. بالتأكيد. كانت عيناه تراقبان «فانيسا» وكأنهما تسخران منها.
- ثم أضاف فجأة:
- هل عملت من قبل في مثل هذا المجال؟
- كلا. لقد رددت القصة المختلفة في ذاكرتها لأكثر من أسبوع، والآن سري إن كانت ستبدو معقلة في نظر الآخرين. يجب لا تظفر شعورها بالقلق.
- عملت سكرتيرة لمدة عامين، ثم قررت التغيير بسبب بعض المشاكل في العمل. حتى الآن القصة حقيقة تماماً، ولكنها لن تخبرهما عن طبيعة المشاكل التي واجهتها، ثم تابعت:
- أخبرني صديق يعمل في مكتب محاماة يدعى «مورتون وسميث وكيمبل». وترددت أيام هذه الأسماء، كي تبدو غريبة عنها، ثم تابعت:
- بأن سيداً اسكتلندياً هو أنت - وأشارت مبتسمة إلى السيد «ماكلين» - يريد أن يعيد ترتيب مكتبه. وقد تقدمت إلى هذه الوظيفة لأنني أحب الكتب. وضع جدها ملعقة الحساء من يده وتناول قطعة خبز وقال:
- إذن أنت تعرفي شخصاً يعمل في مكتب المحاماة؟
- أجل، إنها السكرتيرة. ليست صدقة حميضة بقدر ما هي معرفة عادية. ولم تكن «فانيسا» كاذبة؛ إذ إن «بات جونز» تعمل سكرتيرة في المكتب، وهي لا يمكن أن تفصح حقيقتها... مع أن المعلومات الحقيقة جاءت من السيد «مورتون» نفسه.
- وهل أخبرتك بأشياء أخرى؟ أطلق هذا السؤال تجاهها في حين أن «كال» كان يراقبها. صحيح أنه لم يكن ينظر إليها مباشرة، إلا أن تركيزه في ساعتها كان واضحًا للغاية. وقالت أول كذبة:
- لا. لكنني لم أفهم، هل تقصد أشياء أخرى عن العمل؟ حك «أندرو ماكلين»

خده وقال:  
 - لا، لا شيء، والآن أخبريني يا «فانيسا»، هل هناك مانع عندك بأن أنا ديك باسمك المجرد؟ كيف ترين الكتب؟ أقصد هل هناك تلف؟  
 استمعت إليه بتمعن. أسلته كانت معقولة ومحوزة ومركزة حول العمل الذي تقوم به... لكنها أحست بجو خفي من التوتر يسيطر على الغرفة، وهي تعرف مصدره. كان «كال» يفكر بعمق. أية أسللة أو أجوبة سيطرحها هذا الرجل؟  
 مهما كانت طبيعتها فإنه لن يلقيها الآن، بل سينتظر الفرصة المناسبة للإيقاع به «فانيسا» كما فعل في اليوم السابق. راقبته بحذر. يجب أن تكون مستعدة له في المرة المقبلة. لكن متى سيكون ذلك؟ أخبرها جدها في وقت لاحق من اليوم نفسه بأنها حرة يوم السبت. كانت الساعة الثالثة تقرباً عندما دخل عليها المكتبة وهي وحدها؛ إذ إن «لوري» لم يكن قد عاد من الغداء بعد. ولا تشغاليها في العمل لم تنتبه لدخوله، لكن سلعة خفية منه جعلتها تلتفت لترى وجهه النحيف. وكما في كل مرة تراه، أحست برعشة من الاشمئزاز ممزوجة بمشاعر الخوف. ماذا لو اكتشفت الحقيقة قبل أن تكون مستعدة؟ قالت وهي تضع القلم من يدها:

- أنا آسفة، هل تريدينني؟ لم أكن أدرى بذلك...  
 - لقد دخلت بهدوء حتى لا أزعجك. وايتسم لها، إنها نفس ابتسامة أبيها.  
 ثم تابع يقول:

- ثم وقفت أتأمل بإعجاب النشاط الذي تمارسين به عملك. نظرت «فانيسا» إلى لائحة الكتب الموضوعة على الطاولة. لم يكن عندها ما تقوله؛ إذ إن عقلها تحول فجأة إلى لوح أبيض فارغ. وفكرت في أنها ستفشل حتى إذا ظلت على هذه الحال خلال الأيام القليلة المقبلة. لم ينتبه «أندرو ماكلين» إلى صمت «فانيسا» بل تابع قائلاً:

- أنت حرة غداً، وبالتأكيد الأحد أيضاً. أعرف أن وسائل الترفيه غير متوفرة في المنطقة، لكن أرجوك لا تتردد في استئجار أي كتاب تودين الإطلاع عليه. وعندي زال الجمود عن «فانيسا» وتذكرت:

- أجل، هناك مجموعة من الجرائد القديمة موضوعة في صندوق كرتوني لدى عليها «لوري»... وأتمنى أن أطلع على البعض منها. تغير وجه «ماكلين» القوي بسرعة، وبدت على ملامحه تعابير الانشراح والسرور الطفولي.  
 - يا الله... الجرائد! إنها تحتاج إلى الترتيب أيضاً. هل تعرفين أن لدي نسخاً من صحيفة تدعى «أوكسفورد غازيت» يعود تاريخها إلى العام 1665؟  
 الحقيقة أتنى نسيت كل شيء عنها. وهز رأسه متابعاً:  
 - أتمنى أن تقمي بترتيب هذه المجموعات أيضاً. لا شك في أن سنوات عديدة مضت منذ... وأطرق فجأة، وبدت على وجهه ملامح الحزن. لم تشا «فانيسا» أن تخرق جو الصمت لأنها شعرت بوجود هذا الحزن المفاجئ... فحبست أنفاسها وانتظرت، فهي تعرف لماذا!  
 - مضى زمن طويل.. طويل! مرت لحظات الحزن وعادت الأمور إلى طبيعتها.  
 - بالتأكيد. افعلي ما يحلو لك. وإذا أردت أن تحظلي بعضها إلى غرفتك، فـ«كال»... والتقت نحو الباب حيث كان «كال» واقفاً.  
 - لقد كنت أقول لـ«فانيسا» إنها تستطيع استعارة أية صحف. فهل لك أن تحمل إلى غرفتها كل الصحف التي تريد الإطلاع عليها؟  
 - بالتأكيد. ونقل «كال» نظره من «فانيسا» إلى جدها وأضاف:  
 - أنا آسف للدخول عليكم هكذا، لكن السيد «ماكري» على الهاتف، وقد حولت الخط إلى مكتبك.  
 - شكراً. وخرج «أندرو ماكلين» من المكتبة تاركاً «فانيسا» وـ«كال» معاً. استدارت بسرعة إلى عملها، لأنها لم ترده أن يرى وجهها خوفاً من أن يلاحظ المشاعر التي اختلخت فيها قبل قليل... كما أنها تحتاج إلى وقت للتفكير. قاطعها الصوت العبيق الناعم:  
 - هل تريدين نقل الصحف إلى غرفتك الآن؟  
 - لا، شكراً لك. لم تلتفت إليه، لكنها أحست بحركاته وهو يتوجه نحوها، ثم أدركت أنه بات خلفها تماماً.

- هل تريدين شيئاً مني؟

- كلا، أنا مامل ما تقومين به فقط. كان الصوت ينبعث من وراء كتفيها. وأحسست «فانيسا» بأنها تخطئ بجمودها هذا، لذلك طوت اللائحة بسرعة واستدارت لمواجهته، ثم قالت:

- إنني أسجل الكتب يا سيد «غرين». سحب كرسياً مجاوراً وجلس قبالتها وفي عينيه نظرة سخرية واضحة:

- السيد «غرين»؟ ألا تفضلين اسم «كال»؟ أجابته بهدوء:

- ليس بالضرورة، فأنا لا أعرفك تماماً. لكنها تعجبت مرة أخرى.. كيف يشعرها هذا الرجل بالضعف عندما يكون إلى جانبها؟ تماماً كما هو حاصل الآن. قال وهو يحرك يديه في جيبي سرواله:

- لكنك تナدين «لوري» باسمه الأول فقط!

- هذا شأني وحدي. ونظرت مباشرة إلى «كال غرين» وهي تبتسم بهدوء وشماتة. إنها تدرك تماماً أن ذكر «لوري ماكينزي» يثير غضبها بشكل سريع وفعال. وأضافت تقول:

- إن أمورنا تسير على ما يرام. ارتفع حاجبي الأسودان، لكن وجهه الأسرع ظل دون تعابير واضحة:

- بالتأكيد، أما أمورنا نحن فليست كذلك.

- لا أعتقد. راقبته وهو يفتح عليه سجائر، وعندما قدم لها سيجارة هزت رأسها بالرفض وقالت:

- كلا. شكراً لك. ثم أضافت:

- الحقيقة أنك تحاول دائمًا أن تكون قاسيًا وفظاً معى. وتابعت في نفسها تقول: «بينما المطلوب مني أن أظل هادئة»، قال:

- أعتقد أنك تحدين عما جرى بعد ظهر أمس! أشعل سيجارته من الولاعة التي أضاءت جانباً من وجهه، فبدأ الجانب الآخر أكثر سمرة وصرامة.

- أجل. من الأفضل أن تنقل المعركة إلى معسكر الخصم، فلا شك في أنه بعد شيئاً ما لوقت لاحق. ففي المكتبة، تشعر «فانيسا» لسبب من الأسباب بأنها

على أرض آمنة، أكثر أمناً من ذلك التل الأخضر المشمس الذي أشعرها بأنها ضعيفة للغاية خاصة بعد احتراق يدها. وأنهت كلامها بقولها:  
- لقد كنت فطاً بشكل يفوق التصور خاصة أني كنت في حالة يرثى لها بسبب يدي، وأعتقد أنك تعمدت ذلك.  
- أجل، تعمدت ذلك. تعجبت. كانت تتوقع منه أن ينفي لا أن يعترف بهموجتها، رمته بنظرة حادة، وطللت للحظات عاجزة عن الكلام، ثم أطلقت لسانها:

- إذن، كان موقفك سخيفاً وغبياً.

- أنا أتفهم. سحب نفساً عميقاً من السيجارة، والتفت ببحث عن منفعة ولما وجدتها وضعها إلى جانبه، ثم قال:  
- لكن لدى أسبابي الخاصة.

- حقاً، وهل لي أن أعرف ما هي هذه الأسباب؟ أجابها بهدوء مثير:

- أنت تعرفينها تماماً، أليس كذلك؟ وعاود «فانيسا» ذلك الشعور البغيض بأنها على وشك أن تفقد السيطرة على نفسها. لكنها هي التي بدأت المعركة وعليها أن تستمر فيها:

- هل تعتقد أنني لصة أو أي شيء؟ مثال؟

- لصة؟ رد الكلمة وكأنه يفكر فيها، ثم ابتسم ببطء شديد وهو يقول:  
- لا، ليس كذلك، على الأقل لم أعتبرك لصة... حتى الآن. اشتعلت بالغضب بفعل الطريقة التي أطلق بها الكلمة الأخيرة، وخرجت التعابير من فمها قوية قاسية:

- وماذا بعد؟ أجابها قائلاً:

- لست أدرى، ولكنني سوف أعرف! ردت عليه بلهجة آمرة:  
- لماذا لا تغادر هذه الغرفة فوراً وتتركني وحدي؟ لست مضطورة إلى سماع إهاناتك، بل لست مضطورة إلى سماع أي شيء منك، هل تفهم؟ وقفت في وجهه وعيناهما تقدحان شرراً، وتنفست لو أنها رجل لتلقنه درساً لا ينساه. ويبعدونه ببعضاً من أفكارها وجد صدى لديه بحيث وقف في مواجهتها دون أن يتخللها

عن هدوئه. والآن عليها أن تنظر إلى أعلى كي تراه، وهذا شيءٌ تكرهه؛ لأن طوله الإضافي يشعرها بأنها أصغر منه وأضعف أيضاً:  
 - اذهب من هنا أرجوك، فهذا مكان عملي، ولا أستطيع أن أعمل ما دامت أنت هنا.  
 - لا ضرورة للغبيظ، سوف أذهب... لكن بعد لحظات، ستكونين مجنونة إذا فكرت في طردي بالقوة.  
 - لو كنت رجلاً لفعلت. تسرع نبضات قلبها غضباً واضطررت إلى الابتعاد عنه؛ لأنها لم تعد قادرة على مواجهته. لكنه وضع يده على ذراعها وأعادها إلى مكانها.  
 - قولي لي... لم تدر ماذا كان في صوته، لكنها قاطعته وهي تلوى أصابعه بشدة حتى أطلق سراحها:  
 - إياك أن تلمسني. أنا أكرهك وأكره لسانك.  
 - فهمت، تحبين لسانات «لوري» فقط؟  
 - كيف تجرؤ... قاطعها قائلة:  
 - دعك من هذا. لا تقولي لي إنه لم يعانيك قبل لحظات من دخولي عليكماء...  
 - صحيح!! أدركت على الفور أن خديها تضرجاً بالدم، مما جعل «كال» يضحك.

- لقد كان الأمر واضحًا تماماً. عنق صغير عابر. لنرى كيف تقارندين ذلك العنق بهذا! وقبل أن تستطيعي الحراك وضع ذراعيه حولها. وفجأة أصبحت الغرفة مظلمة؛ لأنَّه صار قريباً جداً منها، إلى الحد الذي عنده ضاعت بين ذراعيه. أحسست بالدفء في صدره. كان لطيفاً وهادئاً بعكس ما توقعت. وطاللت لحظة العنق دون أن تبدي مقاومة. وأدركت على الفور أنها مرتاحه للأمر، فاعترافها الخوف بحيث استجمعت شجاعتها وأبعدته عنها.  
 - أيها المتوحش. ورفعت يدها إلى وجهها ت يريد حماية نفسها من هجوم آخر وشيك. غابت عن عيناه الزرقاء خلف سحابة سوداء، ولم تستطع «فانيسا» أن تفهم تعابير وجهه. ظلا للحظات ثقيلة صامتين في مواجهة بعضهما البعض قبل

أن يغادر «كال» الغرفة. وأخيراً أصبحت وحدها. وظللت واقفة في مكانها لعدة ثوانٍ. فالصدمـة منعـتها من الحراك، وفي الوقت نفسه جعلـت ساقـيها تـرتجـفـان بشـدة. وأـخيرـاً استـعادـت روـعـها ورمـسـت نفسـها عـلـى أـقـرب مـقـعـدـ. وـتـشـاغـلت بـيـطاـقة مـرـمـيـة عـلـى الطـاـوـلـة، لـكـنـ فـكـرـها كـانـ فـي ذـلـك العـنـاقـ والـشـعـورـ الـذـي مـلـأـها خـالـلـهـ. لـمـ تـكـنـ مـسـتـاءـ أوـ مـتـضـايـقـة حـسـبـ ماـ تـوقـعـتـ. فـالـعـنـاقـ كـانـ جـمـيـلاـ جـداـ... هـذـا هـوـ الـوـصـفـ الـوحـيدـ الـمـنـاسـبـ لـهـ. تـمـتـ بـصـوتـ منـخـفـضـ: «لاـشكـ أـنـتـيـ مـجـنـونـةـ!» الـمـوـقـفـ سـيـكـونـ مـحـرـجـاـ إـذـاـ عـرـفـ تـفـكـيرـهاـ. إـنـهـاـ لـاـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـفـعـلـ شـيـئـاـ آـلـآنـ. كـانـ عـلـيـهـاـ أـنـ تـصـفـهـ حـيـنـيـذـ كـرـدـ فعلـ طـبـيـعـيـ منـ اـمـرـأـ تـرـفـضـ العـنـاقـ بـالـقـوـةـ. لـمـ تـصـفـهـ، لـيـسـ لـخـوـفـهـاـ مـنـ رـدـ فعلـهـ، بلـ لـأـنـهـاـ لـمـ تـرـدـ ذـلـكـ. قـرـرـتـ العـودـةـ إـلـىـ الـعـلـمـ فـوـرـاـ وـتـنـسـيـ مـاـ قـدـ حدـثـ. النـتـيـجـةـ الإـيجـابـيـةـ الـوـحـيدـةـ كـانـتـ أـنـهـ تـوقـفـ عـنـ طـرـحـ أـسـلـالـهـ الـمـحـرـجـةـ. لـاـ شـكـ فـيـ أـنـهـ سـيـمـيـدـ طـرـحـهـ فـيـ وقتـ لـاحـقـ، لـكـنـ مـتـىـ؟ أـكـدـتـ لـنـفـسـهـاـ هـامـسـةـ: «سـأـكـونـ جـاهـزـةـ لـهـ الـمـرـةـ الـقـبـلـةـ!ـ سـأـكـونـ مـسـتـعـدـةـ تـمـاماـ!ـ. وـتـسـاءـلـتـ عـمـاـ إـذـاـ كـانـتـ تـحاـوـلـ إـقـنـاعـ نـفـسـهـاـ بـهـذـاـ الـقـرـارـ. اـنـتـهـيـ يومـ الـعـلـمـ وـحـانـ وقتـ الـعـشـاءـ. تـمـتـ «فـانـيسـاـ» لـأـنـ «كـالـ»ـ وـجـدـهـ يـقـرـرـانـ تـناـوـلـ الـطـعـامـ خـارـجـ الـبـيـتـ.. وـلـكـنـ الـمـعـجـزـةـ لـمـ تـحـصـلـ، وـعـنـدـمـاـ وـصـلـتـ إـلـىـ غـرـفـةـ الـطـعـامـ وـجـدـتـ الرـجـلـيـنـ يـتـحـدـثـانـ وـهـمـاـ بـاـنـتـظـارـهـاـ. اـسـتـدارـ جـدـهـ مـبـتـسـماـ وـهـيـ تـدـخـلـ الـغـرـفـةـ.  
 - هـانـتـ هـاـنـاـ أـخـيـراـ. كـنـتـ سـأـقـولـ لـ«كـالـ»...ـ قـطـعـ كـلـامـهـ عـنـدـمـاـ وـقـعـتـ عـيـنـاهـ عـلـىـ الـفـسـطـانـ الـرـمـاديـ الـذـيـ تـرـدـيـهـ.

- تـبـدـيـنـ جـمـيـلةـ جـداـ فـيـ هـذـاـ الـفـسـطـانـ. هلـ تـرـيـدـيـنـ تـناـوـلـ أـيـ شـيـءـ؟  
 - شـكـرـاـ لـكـ. أـرـيدـ كـوـبـاـ مـنـ عـصـيـرـ التـوتـ مـنـ فـضـلـكـ.  
 - بـالـتـاكـيـدـ، وـأـنـتـ يـاـ«كـالـ»؟

كان «كـالـ» قد تـوـجـهـ إـلـىـ الطـاـوـلـةـ لـتـنـاـوـلـ الـكـوـبـ. وـرـاقـبـتـ «فـانـيسـاـ»ـ وـهـوـ يـعـدـ كـوـبـاـ لـهـاـ وـآـخـرـ لـهـ. مـاـذـاـ حـمـلـ فـيـ نـظـرـاتـهـ إـلـيـهـاـ عـنـدـمـاـ دـخـلـتـ الـغـرـفـةـ؟ـ سـتـعـرـفـ فـوـرـاـ،ـ فـقـدـ أـنـهـيـ إـعـدـادـ الـكـوـبـ وـاسـتـدارـ نـحـوـهـاـ لـيـقـدـمـهـ لـهـاـ. كـانـ لـأـمـيـالـاـ تـعـامـاـ،ـ وـلـمـ يـظـهـرـ شـيـءـ،ـ عـلـىـ مـلـامـحـهـ يـمـكـنـ أـنـ يـعـطـيـهـاـ فـكـرـةـ عـمـاـ يـفـكـرـ فـيـهـ.ـ فـقـطـ إـيمـاءـ مـؤـدـبةـ

وهو يقدم لها الكوب :

- تفضل يا آنسة «كوليوز».

- شكرا لك. رد بانحناء خفيفة من رأسه، وقد كانت خفيفة بحيث لم تشعر «فانيسا» بها، وإنما لاحظت طرف ابتسامة ساخرة لم تستمر إلا للحظات، قبل أن يستدير لتابعة الحديث مع الرجل العجوز. بعد ذلك دخلت السيدة «بانكس» تدفع أمامها عربة الأكل، فتوجه الجميع إلى المائدة. حينها لو لم يكن موجوداً لكان مهمتها أسهل بكثير، لكنه سيبقى في البيت لفترة غير محددة، ومن الأفضل لها أن تعتاد هذا الواقع. جلسوا لتناول الطعام وهم يتبادلون الأحاديث العامة المسلية. وفكرت «فانيسا» كم ستكون الأمور مختلفة لو أنها موظفة حقيقة وليس حفيدة صاحب البيت. فهي قد بدأت تتعتمد بعملها في الكتب إلى جانب إعجابها بالبيت. لكنها هنا في مهمة وستواصل لعب دورها تنفيذاً لوعده قطعته على نفسها من أجل والدها المتوفى. نظرت مبتسمة لترد على سؤال وجهه «كال» دون أن تظهر أيّة مشاعر تجول في نفسها، وكان سؤاله عما قررته بالنسبة إلى عطلة نهاية الأسبوع. طيلة فترة العشاء كانت «فانيسا» تراقب جدها دون أن يلاحظ ذلك، تتأمل حركاته وتصرفاته والطريقة التي يتكلم بها. حاولت أن تبعد عن ذهنها الصورة المسبة التي رسمتها له من خلال أحاديث أبيها. لم تكن المسألة سهلة، فقد تصورته رجلاً قاسياً متوجهاً، لكن «أندرو ماكلين» هذا غير الصورة تماماً، فهو لطيف معها - هي الموظفة - إلى الحد الذي جعله يصر على أن تتناول طعامها إلى مائدته. وقبيل انتهاء العشاء اختلست «فانيسا» نظرة إلى جدها. سمعوا رنين جرس الهاتف من بعيد، ثم دخلت السيدة «بانكس» وأبلغت السيد «ماكلين» أن هناك مخابرة هاتفية عاجلة له فسألها:

- من يطلبني؟

- قال إن اسمه «ماك وليرمز» وتنحنحت عندما لفظت الاسم، وكانتها تريد أن تقول إنه غير حقيقي. تصلب وجه «أندرو ماكلين» عندما سمع الاسم. وخobil إلى «فانيسا» أنها شاهدت لمحنة من الغضب لم تدم إلا لحظات. اشتدت عضلات

فكيه وهو ينظر إلى «كال». سأله هذا الأخير بهدوء:  
- هل تريديني أن أرد؟

- كلا. جاء الجواب مختصرًا أمراً وعالياً، ثم خرج من الغرفة. ركزت «فانيسا» نظرها في صحنها، لكنها لم تستطع منع نفسها من النظر إلى الرجل الجالس قبالتها. كان يراقبها دون أن يظهر أيّة مشاعر. وفجأة خفق قلبها بقزء لا تفسير له... فهي لا تستطيع أن تفهم معنى نظراته عندما يكون هكذا. ففي عينيه عمق سحيق من الصعب كشفه بسهولة، وقد أدركت ذلك منذ اليوم الأول للقاء. أحسست بخفقات قلبها تتسارع، فقالت بدون وعي أول كلمات خطرت لها:  
- لماذا تنظر إلى هكذا؟ أجابها بصوت ناعم وساخر:  
- هل النظر منعو؟ أجابته:  
- أنت تحدق إليّ، وأنا لا أحذّ ذلك.

- لسوء الحظ، هناك أشياء كثيرة لا تحببها في، لكنك ستتعلمين التأقلم إذا ما بقيت هنا. ولاحظت أنه شدد كثيراً على كلمة «إذا». رفعت «فانيسا» حاجبيها وقالت:  
- لا تحف، أنا باقية هنا ما دام عملي منتجاً وناجحاً، وأنا متأكدة منه. على الأقل السيد «ماكلين» لا يشكو مني، وهو وحده صاحب العمل. وقالت في سرها: «ولذلك يجب أن تسكّن نهائياً». ابتسمت «كال» قائلة:  
- أنا متأكّد أن عملك ممتاز من خلال ما رأيت حتى الآن. لقد تأثرت بنشاطك، لكنني أعتقد أنك تعرّفين تماماً ما أنت بصدده.  
في هذه اللحظة عاد جدها إلى الغرفة، فتوقف الحديث بينهما عند هذا الحد. نظر السيد «ماكلين» باتجاه «كال» وبدا على وشك أن يقول شيئاً، لكنه بذل جهداً للسيطرة على نفسه. شعرت «فانيسا» بأنه غاضب، وأدركت أنهما - لولا وجودها - لكانا قد تحدثا عن الاتصال الهاتفي. نظرت إلى الساعة ونهضت. لقد انتهوا لتوهم من العشاء، وتريد أن تترك الرجلين وحدهما للتبااحث في أمرهما، وهي تعرف أنهما يرغبان في الانفراد أيضاً. وعندما استاذنت في الانصراف بعد لحظات، لم يبد أحد منهما أي اعتراض. هرعت إلى غرفتها بهدوء وخففة، ولما

وصلتها تذكرت ما قاله «كال»، بأنها تعرف تماماً ما هي بصدده. الأكيد أنه لم يكن يقصد عملها في المكتبة، كم أصبحت تكرهه الآن.

مررت عطلة نهاية الأسبوع على أحسن ما يرام. ففي يوم السبت أخذت «فانيسا» خريطة أعدها لها جدتها ووجدت قرية جميلة تقع على الطرف الآخر من الوادي، وهناك أمضت فترة ما بعد الظهر تراقب أطفالاً صغاراً يلعبون في حديقة يمتد طرقها حتى الشاطئ. رجعت إلى «دينستون هاوس» وقت العشاء وقد انعشتها مناظر الريف الخلابة. وبعد تناول الطعام شاهدت التلفاز مع جدتها. كانت تفضل لا تكون معه، لكنه لم يترك لها الخيار. وعلى الرغم من شعورها بالانزعاج في بادئ الأمر إلا أنها فوجئت عندما أحضرت السيدة «بانكس» القهوة بأن الساعة قد شارفت منتصف الليل. كان «كال» قد غادر البيت بعد العشاء مباشرة. صعدت إلى غرفتها لتحضر حقيبتها فسمعت صوت محرك سيارة يزأر نزولاً باتجاه مدخل البيت. تسائلت عما إذا كان ذاهباً للقاء «هيثر» الجميلة. الأرجح أنه سيفعل.

وفجأة وجدت نفسها تتساءل أيضاً عما إذا كان يعانق «هيثر» بالطريقة التي عانقتها بها اليوم. ابتعدت عن النافذة بنزق، وحملت حقيبتها ونزلت إلى الصالون. يا لها من أفكار سخيفة تفج في رأسها! كانت مستلقية في فراشها عندما سمعت صوت محرك سيارة «الجاجوار» أمام البيت. ومن خلال أشعة القمر الفضية المتسللة عبر الستائر المرفوعة تبيّنت «فانيسا» أن الساعة تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل. ولشدة استغرابها، اكتشفت أنها ظلت تنتظر حتى سماع هذا الصوت. والآن، بعد أن اطمأنت إلى عودته، يمكنها أن تذهب إلى النوم...

وهكذا صار، الأيام القليلة التالية كانت أيام عمل بالنسبة إلى «فانيسا» و«لوري». وبقدر ما وجدت نفسها غارقة في الكتب، وجدت أفكارها مشغولة أيضاً بالرجل المستحيل الذي اسمه «كالوم غرين». أما مشاعرها تجاه جدتها فكانت متضاربة. لقد شاهدت منه ملامح من الوصف الذي أعطاه والدها الراحل، لكنه في معظم الأحيان الرجل الطيب المرح. بدأت تشعر بالارتباك الداخلي، ليتها تستطيع

الثقة بأحد كي تطلب منه النصيحة. وفي بعض المرات كانت تجتاحها موجات من الندم، ولكنها لا تستطيع أن تبدل شيئاً. الشخص الوحيد الذي يعرف سبب وجودها في «دينستون هاوس» موجود في «الندن»، ومن الصعب أن يتعاطف معها. فقد رفض السيد «مورتون» فكرتها من الأساس، والأرجح أنه سينصحها بترك المكان أو بالإبلاغ عن الحقيقة قبل فوات الأوان. لكنها قطعت شوطاً بعيداً جداً بحيث لم تعد قادرة على التراجع. ترددت وهي ترجع كتابين قد미هين جداً إلى المكتبة، وقد اعتراها شعور غريب بالوحدة والانعزال. كان الوقت بعد الظهر من يوم الجمعة بارد و悶ظم وليس كالأيام التي سبقته. الغيوم الداكنة تلبد وجه السماء، واعدة بالمطر الغزير. وتمتنت لو أن «لوري» يعود من الغداء بسرعة، خاصة أنه يرافقها يومياً في عملها في المكتبة. لقد أقامت مع «لوري» علاقة صداقة محببة خلال أسبوع من العمل اليومي المتواصل. ومع ذلك لم تكن متاكدة أنه أهل للثقة؛ إذ شاهدته عدة مرات وهو ينظر إليها نظرات تعرف معناها تماماً ولم تكن مهتمة بالأمر، فقد أصبحت قادرة على التأقلم لكونها غير مهتمة به كرجل. وبإصرار شديد أبعدت صورة «كال» عن ذهنها... «كال» الموجود دائماً والذي يراقبها دون أن يبدو عليه ذلك. دخل «كال» إلى الغرفة في هذه اللحظات دون أن يصدر أي صوت، وفوجئت «فانيسا» بوجوده فسقطت الكتب من يدها. اقترب نحوها وانحنى يلقط الكتب:

- يجب ألا يرى الجدّ هذه الحارثة. فالكتب قيمة جداً ومهمة. سلم الكتب إلى «فانيسا» وهو يضحك.

- شكرًا لك. واستدارت نصف دورة وهي تقول:

- لو لم تتسلل إلى المكتبة لما كنت أسقطت الكتب.

- هل كنت أتسلل؟ نظر إلى حذائه المطاطي الخفيف وأضاف قائلاً:

- ربما يجب أن أنتعل حذاء التسلق عندما أدخل إلى هنا. صحيح أنه سيعزّجني، لكنك سترغبين أنتي هنا. ألا تفضلين هذا الحل؟

- بدون سخافات أرجوك! حاولت الوصول إلى كتاب فوق الرف العلوي فلم تستطع على الرغم من طولها، وكان هو أسرع منها إليه فتناولها إياه. سألها بعد

أن تناولت الكتاب مستعملة يدها المعابة:

- يبدو أن يدك أفضل اليوم؟

- أجل. هناك ندوب حمرا، فقط ستزول مع الوقت.

- ستزول خلال أسبوع تقريباً. هل تستطيعين الآنأخذ أول درس من تمارين الدفاع عن النفس؟ لم تستطع مقاومة العرض، ولم تكن ترغب في القبول أيضاً، لكن الكلمات خرجت تلقائياً:

- هل الدروس للدفاع عن نفسى فد أناس مثلك يريدون عناقى بالقوه؟ ضحك «كال غرين» عالياً، فبانت أسنانه البيضاء اللامعة وسط وجه كان كل ما فيه يضحك، واعترف قائلاً:

- هذه فكرة ممتازة، ويجب أن أراقب نفسى جيداً، أليس كذلك؟ شعرت بالغrief من استمرار الحوار، لذلك ابتعدت عنه لتابعة عملها وهي تقول:

- أعتقد أن هناك أشياء كثيرة تحتاج إلى ترتيب؛ لذلك يجب أن... وقاطعها قائلاً:

- ... وخائفة أيضاً؟ ومع أن صوته كان ناعماً، إلا أنه أوقفها في مكانها. ابتسعت بأفضل ما تستطيع وقالت:

- منك أنت؟ أبداً. كانا يحدقان إلى بعضهما وقد خيم جو من التوتر الذي ينذر بالانفجار في آية لحظة. واعتقدت أنه سيثير مجدداً موضوع شخصيتها الحقيقة لذلك سارعت إلى القول:

- إذا كنت تريد تدريبي فأنا أقبل، لكنني لست أفهم سبب إلحاحك! - لقد شاهدت تعابير وجهك عندما هرعت إلى سيارتى الأسبوع الماضى. كنت عاجزة تماماً!

- حسناً، كنت خائفة بالتأكيد. لكن... - لن تكوني في مثل هذه الحالة أبداً عندما أنتهي من تدريبك. فمتى نبدأ؟ غداً صباحاً؟ وسألته بمنوعة:

- ألسنت مشغولاً؟ أقصد غداً السبت!

- لا شيء يستحق الذكر - وأضاف بلطف واضح - حسناً، سأراك في غرفة

الرياضة بعد ساعة من الإفطار. وتساءلت باهتمام ملحوظ:

- ماذا يجب أن أرتدي؟ لاح خيال ابتسامة على شفتيه وهو يقول:

- يمكنك ارتداء بذلك التدريب الخاصة بالجودو. هناك مجموعة منها سأحضر لك واحدة عند الصباح، فذلك أفضل من تعريض ملابسك للتشد والتمزق. ومع ذلك يجب أن ترتدي قميصاً داخلياً تحت ملابس الجودو. قالت وهي تضع الكتب على الطاولة:

- حسناً، هل يمكن أن أتابع عملي الآن؟

- أجل. لقد جئت لأبلغك أنتي السيد «ماكلين» ستناول العشاء في الخارج. وهو يسألوك عما إذا كنت ترغبين في تناول العشاء في غرفتك.

- أفضل ذلك. ولكنها كانت تفكير في ترددك عندما نطق اسم السيد «ماكلين»؛ إذ بدا وكأنه على وشك أن يضيف شيئاً ثم توقف. فإذاً يريد أن يقول؟ ما هو الشيء الذي يخفيه حتى الآن؟ ولم تأخذها أفكارها إلى أبعد من ذلك. فمن غير المعقول أن يعرف شخصيتها الحقيقة. ترى هل يمكن ذلك؟ وعلى الرغم مما كان يدور في ذهنه، فإنه لن يلمس الآن؛ إذ هز رأسه موعداً وغادر الغرفة. ظلت «فانيسا» شاردة الذهن تراقب الباب المشرع. تسأله وهي تعض على شفتها السفلية عن المأذق الذي وضع نفسها فيه وعما تخبيه لها الأيام المقبلة. أطل صباح يوم السبت مشرقاً ودافعاً، بعد أن رحلت غيوم الأمس بعيداً. استيقظت «فانيسا» وهي تحسن بقلق خفيٍّ وغريب. ثم تذكرت أن «كال غرين» سيعطيها أول درس في الدفاع عن النفس اليوم. لم تعد قادرة على الثقة به فباتت تشك في كل ما يقوله أو يفعله. ما هي خلفيات هذا العرض؟ وظل السؤال يلتحم طيلة الوقت الذي أمضته في الاستحمام وارتداء ملابسها. عليها أن تستعد لأية أسللة محرجة قد يطرحها، خاصة أنها سيمكونان وحدهما في غرفة الرياضة. ارتدت سترة صوفية بيضاء على فستان أزرق سماوي، وانتعلت صندلاً خفيفاً، ثم تركت شعرها الأسود حراً منسلاً... وأخيراً لمسة من أحمر الشفاه، وهو جاهز الآن. كانت الساعة الثامنة والنصف عندما نزلت إلى غرفة الطعام. تعمدت النزول مبكراً كي تتناول إفطارها وحيدة إذا أمكن، لكن «كال غرين»

كان قد سبقها، بل وعلى وشك إنها، فظوره. حياتها قائلة:  
- صباح الخير.

- صباح النور. وتناولت قطعة من الخبز بعد أن جلست في مواجهته. رفع عينيه إليها وقال:

- ترددت بعض البيض باللحم؟  
- لست جائعة كثيراً. سألهما بمنفة هادئة:  
- هل أنت متورّة الأعصاب؟ نظرت إليه ببرود وقالت:  
- متورّة الأعصاب؟! كلا. ولم التوتر؟

- لا شيء. لكن يبدو لي أنك -اعذرني كلامي- شبه ضائعة.  
- لابد أن خيالك يزور لك الأمور. وتابعت حديثها بحذر بالغ، لأن عينيه بدأتا البحث في تعابير وجهها:  
- لكن الحكمة تقضي بالأشق معدتي قبل بدء التمارين.  
- صحيح. إنه موقف سليم جداً، ولذلك قررت البدء بالتمارين بعد ساعة من الأكل.

- حسناً جداً. وبالنسبة إلى البذلة الرياضية فأرجو لا تزعج نفسك بإحضارها لي. سأرتديها تحت عندما أنزل، فهناك مكان لتغيير الملابس، أليس كذلك؟  
- عظيم. سأجهز لك واحدة، والآن اسمحي لي أن أذهب لاستعد. وقف وأعاد الكرسي إلى مكانه، ثم أضاف:

- لن يفطر السيد «ماكلين» معنا، فقد اضطر إلى مغادرة البيت باكرا. إذن سأراك حوالي -واختلس نظرة إلى الساعة وتتابع- حوالي العاشرة إلا ربعاً في غرفة الرياضة.

- أجل. راقبته وهو يغادر الغرفة ثم سكبت لنفسها فنجاناً آخر من القهوة. كم كانت غبية عندما قبلت عرضه في الأساس! في تمام الساعة العاشرة إلا عشرين دقيقة توجهت «فانيسا» إلى غرفة الرياضة. وبعيداً عن ملامح اليهودة المرسمة على وجهها، كان داخليها مليئاً بمشاعر التوتر والقلق والترقب. فمهما حدث، يجب أن تخفي أحاسيسها الداخلية كي لا يشمت «كال» بها. لا تراجع

الآن. ترددت قليلاً أمام الباب، إذ فور دخولها إلى الغرفة عليها أن تستمر في اللعبة حتى النهاية. استجمعت أنفاسها وفتحت الباب بسرعة. المكان غارق في سكون عميق، فـ«كال غرين» لم يأت بعد. تمعنت «فانيسا» في فرشة الجodo الموضعية وسط الساحة وهي تتوجه إلى غرفة تبديل الملابس. وقبل أن تدخل تمثلت، إذ إنها سمعت ما بداخلها وكأنه صوت أمام الباب الخارجي. وعندما لم ينكر الصوت استدارت لتدخل، فاصطدمت مباشرة بالرجل الذي خرج لتوجه من غرفة تغيير الملابس. امتدت يدها الرجل لإسناد «فانيسا». كان يرتدي ملابس الجيدو البيضاء، التي طالما شاهدتها في الصور وعلى شاشة التلفاز ولكن ليس في الواقع. وبسرعة لاحظت التغيير الذي طرأ عليه. فقد أظهرت الملابس قامته المتلأللة وكتفيه العريضتين.. ومن خلال فتحة السترة بان القسم الأعلى من صدره الكثيف الشعر. حاولت «فانيسا» استعادة توازنها بعد هذه الصدمة. ولو كانت قادرة على الهرب فوراً لما ترددت، لكنه أمسك بها بقوه ولم يتركها إلا عندما هدأت.

- هذا أنا! كان صوته نقيناً، وعيناه مركزتين فيها، ثم قال:  
- ملابسك في الغرفة الثانية، والأفضل أن أعلمك كيف تربطين الحزام حول خصرك، فهيأها بنا. ابتعد عن الباب ليفسح لها مجال الدخول. وكم يساوي إلى ساحة الإعدام، دخلت «فانيسا» الغرفة الثانية ببطء وهي مطأطاً الرأس.

«لقد غيرت رأيي، فلننس الأمر برمتة». اختلخت هذه الكلمات على شفتي «فانيسا» وهي تواجه «كال غرين» على فرشة الجodo، لكنها لم تستطع أن تنطقها قط. أخيرها بأن الفرشة مصنوعة من التاتامي وهي عباد نبات الأرز بعد حصاده وتجفيفه. المعلومات غير مهمة بالنسبة إليها، المهم وجودها أساساً في هذا المكان. نظرت إلى نفسها في الرداء الأبيض فأدركت لماذا طلب منها «كال» أن ترتدي قبساً داخلياً، ذلك أن الرداء كان فضفاضاً على الرغم من الحزام

الذي يشده حول خصرها. وعندما ربط لها الحزام، أبلغها أن السترة كثيرة ما تتنزع خلال التدريب، وطلب منها بابتسامة خفيفة لا تهتم، على الأقل في المراحل الأولى. لاحظت «فانيسا» أن «كال» قد تغير بشكل يصعب تحديده. بدا وكأنه إنسان آخر تماماً. فهو هادئ وواثق بنفسه بطريقة لم تمعندها فيه. نظر إليها وقال:

- أولاً، وقبل كل شيء، يجب أن تُحبي أنفسنا، أي أن نعد عضلاتنا للحركة. فأريدهك أن ترافقيني وتنفذني ما أفعل بحذافيته. هل أنت جاهزة؟

- أنا جاهزة. مررت «فانيسا» لسانها لترتبط شفتتها الجافتين. عليها أن تركز في التدريب. فمهما كانت الأسباب التي تدفعه إلى مساعدتها، فلا شك في أنها ستستفيد من دروس الدفاع عن النفس، ولهذا السبب فقط يجب أن تعرف له سلسلة المواجهات. بدأت تكتشف أن حركات الإحياء سلسلة المتابعة، وسرعان ما شعرت بأن عضلاتها لانت وارتخت خاصة عندما نفذت الفرزات الأمامية التي كانت تعتقد أنها عاجزة عن القيام بها.

- يكفي هذا، لتننتقل إلى المرحلة الثانية. توجه إليها وهو يقول: - قفي منتصبة وأريحي جسدك. أجل هكذا.. كلا، رقيبك ما تزال متصلة. أرخيها تماماً. كانت لسته قوية دون قسوة ولا تحمل أي معنى شخصي.

حركت «فانيسا» رأسها استجابة لحركات أصابعه، وسمعته يقول: - هذا أفضل. والآن، قبل أن أعلمك حركات جديدة، يجب أن تتعلم السقوط الداعي بحيث لا تؤذين نفسك إذا ما سقطت.

- أنا مستعدة. استغرقت كيف ظلت تحس دف، لسته على الرغم من أنه سحب أصابعه منذ فترة. أخذت نفاسا عميقاً لتسكن روعها وتنفت فعلاً لو أنها تستطيع أن ترتاح كما يطلب منها. كم ستكون الأمور أسهل إذا ما تناست شكوكها حول «كال»، وركزت في...

- هل تسمعني يا «فانيسا»؟ - أنا متأسفة. تخرج خداها بالدم للاحظته، نظرت إليه فلم تر أية تعابير خاصة على وجهه. جو العداء والتوتر ذهب إلى غير رجعة، وكلامه كان هادئاً

ورصينا، لذلك شعرت بالراحة.

- استلقي الآن. سأقوم أمامك بالسقطة الدفاعية. وسرعان ما استلقي على ظهره بحركة واحدة قوية.

- والآن راقبيني، أولاً يجب أن تمارسي هذه الحركة، ثم تأتي حركة الانحناء البسيط المؤدي إلى السقطة المريحة.. وإذا ما نفذت الحركة بحذافيها ستجدين أن بإمكانك السقوط دون أي أذى. تابعت «فانيسا» مراقبة هذا الرجل، كان هناك شيء جذاب حوله، وهي تردد أن تتعلم بسرعة كي تثبت له أنها تلميذه مجتهدة. وهكذا لاحظت حركاته، راقبته وهو يتدرج على يمينه ويهده ممتدة على طولها، لتنقье صدمة الارتطام بالأرض ثم تأتي قدماه لإكمال الحركة. على وجهه أمارات التركيز الشديد، لكن كلماته كانت هادئة طيلة الوقت وهو يخبرها بتفاصيل السقطة الجانبية «يوكوبو كومي»، وبأن الأسماء اليابانية للعبة معروفة عالمياً بحيث إن الناس الذين لا يعرفون إلا لغتهم القومية قادرون على فهم التعبيرات كاملة. فجأة انتقض واقفاً. جاء صوته عميقاً وهو يقول:

- هنا، استلقي أرضاً، لقد حان دورك. أطاعت «فانيسا» على الفور، واستلقي هو قريباً منها.

- هذه هي الطريقة، الفراع ممدودة على طولها، حسناً، والآن طبقي ما أقوم به. أحسست «فانيسا» بالضياع لفترة قصيرة. فقد كان هناك شيء غريب حول «كال غرين» وهو يلعب دور المدرب الغريب القادر على أداء مهمته بنجاح. فمع كل حركة وكل كلمة وكل لمسة مساعدة منه كان جسمها يستجيب بسهولة. إنها تردد إتقان اللعبة. وعلى حين غرة طلب منها أن تتوقف:

- هذا يكفي. دعينا ننتقل إلى المرحلة التالية، فهل أنت مستعدة؟

- أعتقد ذلك. هل كنت على ما يرام؟ أجابها بهدوء:

- لا يأس بك. ولكنها شعرت بأنه مسرور من أدائها دون أن تدري سبب هذا الشعور. جعلها تعيد تنفيذ السقطة الأمامية، أولاً من موقع الوقوف، مساعداً إياها على إخفاء رأسها داخل جسمها وتقريب القدم اليسرى على اليمنى ثم من موقع الحركة... وكل ذلك دون أن تبدو عليه أية مشاعر أو تعابير.

- يكفي الآن، سأخذ قسطاً من الراحة. أجلس على الفرشة وسأقوم أمامك ببعض الحركات بينما تريحين نفسك قليلاً، فيجب ألا تجهدي نفسك، وأرجو أن تخبريني حين تشعرين بالتعب. ومع أنها راقبت الحركات التي أداها خلال الدقائق القليلة التالية إلا أن اهتمامها لم يكن مركزاً فيها. لقد أخبرها قبل أن يبدأ بأنه لن يعلمها أية سقطات غير السقطة الأولى، على الأقل في هذه المرحلة، لكن لا شيء يمكن من أن يعرض أمامها بعض الألعاب التي سيأتي دورها لاحقاً. وجدت نفسها مجذبة بحركات الرائعة. إنها تعرف تماماً أنها لن تستطيع تنفيذ ما يقوم به، وهو دوره لا يتوقع منها ذلك، ولكن الذي أثار إعجابها هو الرجل نفسه، فلقد كان إنساناً مميزاً. لم تكن ملابسه وحدها مختلفة، بل تغيرت كل تصرفاته وتعابيره بطريقة جعلتها تشعر - واستغربت ذلك كثيراً - بالاحترام الشديد له. كان واثقاً بما يقوم به، بالإضافة إلى قدرته على إفهام «فانيسا» طبيعة الحركات الصعبة.. فاستعادت ثقتها بنفسها بعد ثوان قليلة من نزولها إلى الحلبة وبالتالي تمكنت من اتباع كافة التعليمات التي أعطاها إليها. عادت إلى الواقع عندما أنهى «كال» حركاته الاستعراضية.

سألها:

- هل أنت مستعدة؟ كان شعره مبعثراً وقد تدللت خصلة منه على جبينه. وواجهت «فانيسا» كي تمنع رغبة راودتها بأن تذهب إليه وترفع عن عينيه هذه الخصلة المتمردة. كانت الفكرة مضحكة، فماذا سيقول إذا ما نفذتها فعل؟

- أما زلت متعبة؟ نظرت إلى جبينه حيث ظهرت حبيبات من العرق. كان جو الغرفة دافئاً. وأحسست «فانيسا» أنها تحتاج إلى كأس من الماء البارد، لكنها لم تتجرأ على الطلب. وأجابته قائلة:

- أشعر بشيء من التعب، لكن لا شيء يهم. ابتسم «كال» بهدوء، وقال: - يجب ألا تجهدي نفسك. لا فائدة ترجي من التدريب إذا كانت عضلاتك لا تستجيب. فالمسألة تحتاج إلى وقت.

- أنا متأكدة من ذلك، فأنت مدرب ممتاز. لم تكن تنوين إطلاق هذا التعبير، لكن الكلام أفلت قبل أن تفك فيه.

- شكرًا لك، فلقد بدأت التدريب مبكراً.

- أنت تحملحزام الأسود. ولم تكن تنتظر جواباً؛ لأنه كان موجوداً على خصره.

- أنا أحملحزام الأسود، أما السيد «ماكلين» فيحملحزام البنفسجي... إنه بارع في اللعبة بالنسبة إلى سنه.

- لهذا السبب أنت هنا؟ أقصد كي تدربه؟ هز رأسه بالنفي وقال:

- لا أبداً، أنا ضيف هنا، فأبي كان صديقاً حميماً للسيد «ماكلين»، ولذلك اختارت المكان لأقوم ببعض الكتابة.. تردد قبل الكلمة الأخيرة ثم تابع:

- كتابة بعض الأشياء الخاصة، وأيضاً جولات تدريبية في الجودو. أدارت «فانيسا» رأسها إلى ناحية أخرى من الغرفة كي تخفي عن «كال» تعابير وجهها التي قد تكشف أفكارها... لكنها نسيت أنه يقرأ الأفكار أيضاً. أحسست بأصابعه على ذقنها تعيد وجهاً إلى مكانه، ونظر إلى عينيها مباشرة وهو يقول:

- هيا، قولـي ما تفكرين فيه!

- أقول ماذا؟

- أفكارك التي أخفيتها.. من أنتي لست سوى شخص كسل يمضي وقته متسلكاً هنا.

- لا تكن سخيفاً. حاولت أن تخرج صوتها واثقاً وقوياً، آخر شيء، تريده الآن الدخول في جدال معه. ليس الآن، فهما في حالة جيدة ومن العيب إفساد كل شيء.

- لا ألومك إذا فكرت بتلك الطريقة - فاجأها بقوله هذا- أنا سأفكر بالطريقة نفسها لو كنت مكانك. لكنني فعلًاأشتعل في إعداد كتاب.

- رواية؟ ندمت لأنها سألت مرة أخرى. فيقرر ما تبعد عن تفاصيل حياته الخاصة بقدر ما تمنعني من العودة إلى طرح الأسئلة المحرجة، وهو الشيء الذي لا تريده مطلقاً، ولكن السؤال كان تأدباً.

- ليس رواية، إنه كتاب عن الرحلات. لقد عدت للتو من جولة أوروبية واسعة، وأريد أن أكتب انطباعاتي عنها. واكتفت بوضع علامة تعجب على وجهها

وقررت أن تعود إلى التدريب بسرعة. فالشيء الوحيد الذي تذكر فيه حاليا هو إبعاده عن التساؤل حول سبب وجودها في «دينستون هاوس». قالت:

- هل يمكن أن تعود إلى التدريب؟

- بالتأكيد. الآن وقد تعلمت السقطة الدفاعية - وبشكل ممتاز بالنسبة إلى شخص مبتدئ - فسنقوم ببعض الحركات المشتركة. سوف أرميك.. لكنه توقف عندما لاحظ خوفها من هذه العبارة وأوضح قائلاً:

- ليس بالمعنى الكامل، إذ سأوقف الحركة قبل الوصول إلى الأرض. إنها استمرار لما كنت أقوم به منفرداً. أمسك كل واحد منهما كم الآخر وهم يواجهان بعضهما البعض.

- أحكمي قبضتك على كمي مهما حدث، وثقني بي. وفجأة، أحسست بقبضته تشد في حين بدأ جسمه يتحرك. رأته ينحني على أطراف أصابعه، ولم تشعر إلا وهي فاقدة التوازن. ثم دخل كتف «كال» تحت ذراعها وازداد جسمه انحناء. وبحركة واحدة منه وجدت نفسها مرمرة من فوق كتفه. وفي لحظة رعب أدركت أنها فقدت اتصالها بالأرض، لكن دفعة طفيفة منه أكملت الحركة وألقتها إلى الفرشة. ودون أن تدري نفذت السقطة الأمامية، واصطدمت بالأرض دون آية صعوبات. وعندما نهضت، رأت «كال» يبتسم بعمق. كان شعورها مزيجاً من الإعجاب والارتياح والضيق. فقد أحسست، على الرغم من أنه تصرف معها بلا مبالاة، بشيء خاص في لمساته... آه كم كان قوياً في حركته!

- مرة أخرى؟ لم تكن الحركة سيئة على الإطلاق! أخذت نفساً عميقاً وقالت:

- لم تكن سيئة، فقد شعرت بأنني ساطير.

- قلت لك أن تثق بي - وأضاف بلهجة هادئة - لا أظنك تعتقدين أنني سأتركك تعدين بالفعل!

- لم است Adri ما يمكن أن أعتقد بشأنك. مرة أخرى ندمنت لأن لسانها سبق عقلها. لقد فات الأوان، إذ تغيرت تعابير وجهه قليلاً، ثم ابتسם:

- أعرف ذلك فالشعور متتبادل. أنا أيضاً لا أدرى ما أعتقد بشأنك. أرادت أن

تبعد عنه على الفور. وضعت يدها على جبينها وقالت:

- كم مضى على وجودنا هنا؟

- حوالي الساعة. لماذا؟ هل أكتفيت؟ كان يراقبها بتمعن، وقد بدأ جو التوتر يهيمن مجدداً على الغرفة. خافت «فانيسا» من الوضع وأرادت أن تهرب منه بسرعة:

- إن قدمي متعبتان قليلاً. اعترفت دون أن تحتاج إلى الكذب، فالتعب قد حل بها فعلاً

- إذن سنتوقف. لقد طلبت منك أن تبلغيني متى تعبت، على كلّ سنتابع الدروس غداً. عندئذ ستكون الأمور أفضل. وتنستطيعين تعلم الحركات أسرع بعد تمارين اليوم. فكرت «فانيسا» بطريقة تخرجها من هذه الورطة، ثم أدركت أن هناك متسعًا من الوقت لتفكر في أعدار إذا وجدت ذلك ضروريًا. وكان «كال» متعباً إلى حد ما فلم يلاحظ ترددتها في الإجابة.

- أجل، الموعد غداً سيكون ممتازاً.

- بعد الظهر، حوالي الثالثة؟

- موافقة. يجب أن أذهب الآن. سأبدل ملابسي في غرفتي، وسأعيد لك البزة فيما بعد. أجابها:

- احتفظي بها للغد، فستحتاجين إليها كثيراً.

- شكرًا على الدرس. نطقـت هذه العبارة وهي تدخل إلى غرفة تغيير الملابس لتأخذ صندلها. وانتظرت حتى اختفى في الغرفة الثانية، ثم أطلقت ساقيها هرباً إلى غرفتها.

لم يخبرها أحد أن «هيثر» والدتها ستكونان على العشاء في تلك الليلة، ولذلك أحسـت بأنـها خدعتـ عندما دخلـت غرفة الطعام ووـجـدتـهما مع «كـال»، وجـدـتهمـ وـهـمـ يـتـحدـثـونـ وـيـسـخـكـونـ. كان «كـال» مشـغـولاًـ فيـ حـدـيـثـ هـامـسـ معـ «ـهيـثـرـ»،ـ بـيـنـماـ جـدـهاـ يـضـحـكـ لـعـبـارـاتـ أـطـلـقـتهاـ السـيـدـةـ «ـماـكـرـيـ»ـ. تـرـدـتـ «ـفـانـيـساـ»ـ فـيـ الدـخـولـ كـيـلاـ تـحـطـمـ مـاـ اـعـتـبـرـتـ جـوـاـ مـكـتمـلاـ،ـ وـفـكـرـتـ فـيـ العـودـةـ مـنـ حـيـثـ أـنـتـ.

لـكـنـهاـ تـأـخـرـتـ؛ـ لـأـنـ «ـكـالـ»ـ شـعـرـ بـهـاـ،ـ فـاسـتـدارـ قـائـلاـ:

- هـاـ هيـ «ـفـانـيـساـ»ـ.ـ اـسـتـدارـ جـدـهاـ أـيـضاـ وـقـالـ:

- تعالى يا «فانيسا»، تعالى. لقد تعرفت إليها يا «آن» على ما أعتقد؟ ابتسمت السيدة «ماكري» ملء فمها وقالت:

- كيف حالك يا عزيزتي؟

- على أحسن ما يرام. شكرًا لك يا سيدة «ماكري». ردت «فانيسا» التحية بأحسن منها. فهذه المرأة أطفل كثيرة من ابنتها. وتأسفت، لأن ذوق السيدة «ماكري» في الملابس ضعيف جداً. كان ثوبها الطويل غير مناسب لها، لون الأصفر الفاقع انعكس على وجهها فزاده ضعفاً وشحوباً. أما جدها فقد كان شديد الاهتمام بهذه المرأة، وشاهدت «فانيسا» في عينيه نظرة دف، وهو يرتو إليها، وفكرة «فانيسا» في سرها: «لا شك أنه يحبها» وأحسست بشعور غريب لهذه الفكرة. هل «كال» على علاقة حب مع الابنة أيضاً؟ وهل هذا هو السبب الذي جعلها تبكي؟ وسرعان ما وجدت نظراتها تلاحق الاثنين اللذين وقفا بالقرب من النافذة. من الصعب أن تفهم علاقتهم، فرجل مثل «كال» يستطيع أن يخفى كل مشاعره إذا أراد، ولكنه الآن لا يظهر إلا الاهتمام الشديد بهذه الفتاة الجميلة. رأته يشعل لها سيجارتها، ولاحتظ أن يدها لامست يده لثوان وهو يقرب الولاعة من السيجارة. استدارت «فانيسا» بسرعة وسمعت جدها يقول:

- والآن يا «فانيسا»، حدثينا عن درسك الأول اليوم. أحدث طلبه جواً من الصمت في الغرفة. وبدا لـ«فانيسا» أن «هيثر» أصفت بكل جوارحها. والآن كيف تستطيع الإجابة عن السؤال دون أن تزيد في عداء الشقراء الجميلة لها؟ كم تتعنى لو أنها لم تأت قط!

- كل شيء، كان على ما يرام. شعرت بعد انتهاء الدرس ببعض التصلب، لكنه زال بسرعة. وأضافت تقول لنفسها: «أرجوكم، دعونا نغير الموضوع برمته». تساءلت «آن ماكري» بصوتها الواضح العالي:

- أي درس تقصد يا «أندرو»؟ فتح «أندرو ماكلين» وهو يقول:

- يعتقد «كال» أن «فانيسا» تحتاج إلى بعض الدروس في الدفاع عن النفس؛ لذلك أخذناها إلى غرفة الرياضة هذا الصباح وعلمها بعض الحركات. التفتت

السيدة «ماكري» ببطء إلى «فانيسا» التي أحست بقلبها يغرق بين أضلعها.

- حقاً؟ إنه شيء ممتع. وتتابع الصوت البارد يقول:

- أخبريني، هل وجدت الأمر صعباً، أقصد أليست الدروس قاسية عليك؟  
وبدت علامات الاشمئزاز على وجهها عندما طرحت السؤال الأخير.

- لقد تعلقت أولاً السقطة الدافعية، هذه كانت سهلة إلى حد ما. عندئذ لاحظت «فانيسا» تعابير وجه «هيثر»، حيث الغضب المكتوم يزار في العينين الجميلتين. ليس لديها شيء تخسره، فهي لم تباشر الحديث ولذلك فليتحمل الآخرون مسؤولياتهم، فتابعت تقول:

- ثم علمتني «كال» شيئاً مختلفاً تماماً وهو عبارة عن رمي إلى الأرض دون الاصطدام بها.. كانت الحركة ممتازة. ولم تعرف لماذا التفتت إلى «كال» وابتسمت له، كما لم تعرف ما الذي يدفعها إلى هذا الوقف. غداً ستفكر في الأمر، أما الآن فهي لا تفهم أبداً. هز «كال» رأسه دون أن يظهر أي تعابير وقال:

- كانت حركة سهلة للغاية. وعما قريب ستستطيعين إتقان الأصعب.

- إنك مدرب رائع. كان الجميع يراقبونها: جدها باهتمام ملحوظ، والسيد «ماكري» يامتعاض بالغ، و«هيثر» بعده سافر... أما «كال»، فقد بدا وكأنه يتمتع بالوقف كله. فتابعت:

- وقوى جداً أيضاً. ابتسمت بعمق وهي تنظر إلى «هيثر». فكرت في نفسها: «فلتعتقد ما تشاء حول الدروس وإذا ما صدق توقعاتي فإن «كال» سيواجه المتاعب فيما بعد. إنها غير مهتمة أبداً». تابعت وهي تنظر إلى جدها ولكن الحديث موجه إلى «هيثر» الجميلة:

- فما إن رفعتي حتى رمانى ثم أنزلتى بلطاف إلى الأرض، وكل ذلك دون أن يتركتى. كان الإحساس عميقاً ومحيناً إلى حد ما، ولكننى لم أرتعب. هز «أندرو ماكلين» رأسه انفعلاً وقال:

- كم أتعنى لو أنني كنت هناك! ثم تكلمت «هيثر» بهدوء، لكن «فانيسا» شعرت بالغضب الكامن في داخلها:

- لم تخيبني يا «كال»، بأنك خبير في لعبة الجودو.

- لم أعتقد أذلك مهمته بهذه الناحية يا عزيزتي.

كم هو مختلف الآن عن مدرب الجودو البارد الأعصاب الذي كان «كال» متقدماً شخصياً قبل ساعات. دخلت السيدة «بانكس» بالطعام المكون من السمك المشوي والمعجة والبطاطا، فتوجه الجميع إلى مقاعدهم.. وهدأت ردود الفعل. لماذا كان عليها أن تثير غضب «هيثر» إلى هذا الحد؟ خاصة أن الأممية ما تزال في أولها. قررت أن تذهب إلى غرفتها فور انتهاء العشاء. وعندما أبلغت جدها عن رغبتها في الاستئذان والانصراف وافق على ذلك عن طيب خاطر. وأدركت أنه لا يريد أية مشاكل باعتبار أن «هيثر» ووالدتها صديقتان مقربتان، وخاصة الأم.

امتنأنت نفس «فانيسا» ببعض مشاعر الحزن وهي تصعد السلالم، ولما وصلت إلى غرفتها أحسست بالوحدة تجتاحها بعمق.. وظلت تسسيطر عليها صورة المجموعة التي ما زالت تمضي الليل في البهو ضاحكة ومستأنسة. لقد كانت الغريبة غير المرغوبة بينهم. لم تستطع أن تقرأ أيّاً من الكتب التي استعارتها. ولا أن تشاهد برامج التلفاز النوعة. وبعد نصف ساعة من التنقل بين مسلسل تلفازي قديم، وكتاب بوليسى ممل، رمت الكتاب على السرير بعنق وأقفلت الشاشة الصغيرة ثم تذكرت فجأة الصحف القديمة في المكتبة. يمكن أن تقضي مع هذه الصحف ساعة أو أكثر، تذهب بعدها إلى النوم بسهولة.

فتحت «فانيسا» باب غرفتها وتمهلت قليلاً للاستماع إلى الأصوات المنبعثة من الطابق الأسفل. الأصوات الخفيفة تنبir السالم والقاعة الكبرى، في حين تتردد في البهو أصوات وضحكات حافظة. لن يسمعها أحد الآن إذا ما نزلت إلى المكتبة.. وحتى لو سمعوها، فهذا غير مهم. أضاءت إحدى الثريات في المكتبة وتوجهت بهدوء إلى المكان الذي وضعته فيه الصحف. وتساءلت عما إذا كان من الأفضل لها أن تحمل الصندوق كله إلى غرفتها أو تكتفي ببعض الأعداد؛ ففي هذه المجموعة أشياء كثيرة للقراءة؛ ولذلك فإن بعضها يكفي، ولكن من ناحية أخرى يجب العمل على ترتيبها زمنياً وهذا يعني أخذها كلها؛ لذلك

قررت حمل المجموعة الكاملة للعمل على ترتيبها أولاً ومن ثم ترؤوها، فهذا يوفر عليها الوقت فيما بعد. لم يكن الصندوق ثقيلاً جداً، ولكنها عندما انحنت لحمله وقع أحد الكتب على الأرض محدثاً صوتاً عالياً. اضطررت قليلاً، ثم وضعت الصندوق أرضاً كي تلقط الكتاب وتعيده إلى مكانه. وفجأة طفي ضوء على الغرفة فالتفتت لتجد «كال» واقعاً عند الباب. وشعرت كأنها اعتقلت بالجريمة المشهود. سار باتجاهها وهو يبتسم.

- حسناً، حسناً.. ماذا تفعلين؟ استعادت «فانيسا» رباطة جأشها بعد لحظات الاضطراب الأولى وقالت:

- قررت أن أحمل الصحف القديمة إلى غرفتي، للاطلاع عليها.. هذا كل شيء، كانت قد تجنبت النظر إليه مباشرةً وهما في غرفة الطعام، لكنها فعلت الآن.. الواقع أن لا خيار لها سوى النظر إلى هذا الرجل الجاذب في بدلته السوداء الفاحمة وقميصه الأبيض ورباط عنقه الأسود أيضاً والذي يتناقض تماماً مع ما كان عليه في الصباح. بدا وجهه غامضاً ومظلماً، لأن الضوء الأساسي كان ينبع من خلفه. استدارت «فانيسا» بقلق وانحنت تلقط الكتاب وتعيده إلى الرف. قال:

- سأحمل لك الصندوق إلى غرفتك.

- لا داعي لذلك، فأصدقاؤك سيقاولون عنك بعد قليل. لم تقصد أن تثيره بهذا الكلام، لكنها فعلت؛ إذ لاحظت على وجهه ابتسامة غاضبة وهو يتتجاوزها نحو الصندوق. أجابها بجفونه واضحة:

- الجو بارد جداً هناك، والفضل في ذلك يعود - بلا شك - إلى التفاصيل التي رويتها عن دروس الجودو. امتنجت في نفس «فانيسا». أحاسيس هي خليط من الشعور بالذنب؛ لأنها ورطت «كال»، وأيضاً الشعور بالظلم؛ لأنها لم تكن الباردة في الحديث حول الموضوع. استعادت هدوئها وقالت:

- مهما كان الأمر، فلم أكن أنا التي أثرت الموضوع في الأساس، وعليك أن تتذكر هذا الواقع. تصرخ خداها بالدم وراح صدرها ينتفخ بفعل الغضب، وما لم تتنبه له حينئذ أنها كانت تبدو جميلة ومثيرة للغاية؛ والشيء الوحيد الذي

خطر على بالها وجه «هيثر» المنفعل عند سماعها القصة..  
 - اهديني الآن أيتها القطة المتوجحة. بذا «كال» مستمعا بغضب «فانيسا»  
 وهو يحمل صندوق الصحف القديمة. أما «فانيسا» فلم تكن راغبة في مواصلة  
 الحديث، لذلك استدارت خارجة من المكتبة، وتركته مع الصندوق.. فإذا أراد  
 حمله فليكن، وإنما الجحيم هو والصحف. هرعت راكضة طول الطريق  
 إلى غرفتها، وعندما وصلتها تمهلت تستمع لوقع خطواته. قالت في نفسها:  
 «الأكيد أنه لن يأتي! سipع الصندوق أرضا وبهز كتفيه العريضتين ويقول: إلى  
 الجحيم أنت أيضا... ثم يعود إلى صديقتة التي تنتظره».

- إياك أن تهربين مني مرة ثانية. دخل الغرفة وراءها وأغلق الباب بقدمه. وجه  
 إليها النظرة الباردة نفسها، ثم وضع الصندوق على الكرسي وقال:  
 - هل تهربين من الناس دائمًا عندما يحمي وطيس النقاش. اتسعت عينا  
 «فانيسا» دهشة وهي تقول:  
 - أنا أهرب؟ لا شك في أنك تمزح. أي نقاش تتحدث عنه؟ لقد قلت لك  
 ببساطة...

- رواية متوازنة بسيطة حول التمارين الصباحية، أجل، سمعت ذلك وشاهدت  
 وجهك، كنت تستعينين ببردة الفعل، أليس كذلك؟ سارت «فانيسا» نحو الباب  
 لتفتحه وبدأت تقول:

- هل تسمح؟ لكنه أوقفها وأعادها إلى مكانها بسرعة.  
 - كلا. لن أغادر الغرفة، ليس قبل أن أكون مستعداً. أمسك ذراعها، ومع أن  
 قبضته لم تكن قوية إلا أنها كانت حازمة بما فيه الكفاية.  
 - هل تستعمل أسلوب القوة الجسدية دائمًا مع النساء اللواتي لا يوافقن على  
 آرائك؟ لا بد أنك ربحت العديد من المناوشات بهذا الأسلوب. ثم سحبت يدها  
 بقوة وقالت:

- دعني وحدي فوراً.  
 - لن أتركك. على كل، النساء لسن كلهن مثلك، فأنت تملكين طباعا حادة  
 جداً، تذكرني بشخص... تجمدت في مكانها. اتضح الآن السبب الذي جاء

من أجله، وسينطق بالكلمة في أية لحظة... عليها أن تفعل أي شيء لتغيير الموضوع. أي شيء، لإبعاده عن الموضوع السري الذي تكتمه، فجأة صرخت ألا،  
 ولاحظ الدموع في عينيها، هذه الدموع التي تستطيع سكبها وقتها تشاء:  
 - إنك تؤلمني.. اترك معصمي... أطلق سراحها فورا، ثم رفع ذقنها إلى الأعلى  
 ونظر إلى عينيها بحدة:  
 - يا إلهي... وتعرينين فن التمثيل أيضًا!  
 - لست أدرى.. لست أدرى ما تقصد. بدأت تعتاد دورها بسهولة، ما دام قد  
 ابتعد عن الموضوع الأساسي.- أجاب ضاحكا:  
 - أنت تعرينين تماما. يا لك من امرأة! ثم ضربها بلف على ذقنها وأضاف:  
 - وداعا يا «سارة بربنار»، كما تعرينين أنا لا أحتمل منظر الدموع، لذلك ساعود  
 إلى الطابق السفلي حيث الجو أكثر برودة من هنا. ولا شك في أنني أستطيع  
 التعبير عن نفسي بسهولة هناك بدلاً من المشاكل هنا. وابتسم لها بعمق قبل  
 أن يستدير خارجا.

وقفت «فانيسا» في مكانها تراقب الباب المغلق قبل أن تتحرك باتجاه صندوق  
 الصحف. ترددت قليلا، ثم حملته إلى طاولة صغيرة تحت النافذة وبدأت بفرز  
 الصحف. أخرجت حوالي مائتي صحيفة من الصندوق، بعضها كان في حالة  
 رثة وقد اصفرت أوراقه تماما، والبعض الآخر ما زال في حالة جيدة. المجموعة  
 تحتاج إلى عمل متواصل وطويل، ولكن «فانيسا» تدرك أنها ستجد فيها أشياء  
 أكثر أهمية مما في الكتب. رفعت حزمة من أعداد جريدة «التايمز» تعود إلى  
 عام ألف وثمانين مائة وأربعين وخمسين ووضعتها على الطاولة. كانت الأوراق  
 صفراء مهلهلة وقد علاها الغبار، وتتساءلت «فانيسا» عن الدة التي ظلت فيها  
 هذه الصحف مهملاً ومنسيّة في الصندوق. وفجأة اكتشفت شيئاً مهماً، وهو  
 الورقان اللثاني وجدتهما في قعر الصندوق تقربيا. رفعتهما «فانيسا» - في بادئ  
 الأمر - دون أن تعرف مضمونهما، وكانت على وشك أن تضعهما جانبًا عندما  
 لاحظت الاسم المكتوب أعلى كل ورقة.. فتوقفت.. تردد اسم «أندرو ماكلين»  
 ما لا يقل عن ثلاثين مرة بالنبط نفسه، وكان شخصاً ما كان يحاول التمرن

على تقليد توقيع جدها. قررت «فانيسا» الورقة من الضوء للتمعن في التوقيع، فانكشفت الورقة الثانية بما تضمنه من كتابة. كانت عبارة عما يشبه رسالة باستثناء كون الكتابة تبدأ من منتصف الورقة. لم تكن «فانيسا» راغبة في قراءة رسائل الآخرين لكن شيئاً ما دفعها إلى ذلك، فوجدت نفسها تمضي قدماً في القراءة. الرسالة المكتوبة على الورق كانت على الشكل التالي:

«أنا الموقع أدناه، أخوّل حامل الرسالة «جون ماكلين» قبض الشيك المرفق، وأيضاً سحب محتويات صندوق الودائع الخاص بي والذي يحمل الرقم...»

لم تعد قادرة على القراءة أكثر. فقد أدركت فوراً السبب الذي من أجله تكرر توقيع جدها على الورقة الثانية. قررت الورقتين إلى بعضهما. لاحظت أن الرسالة ممهورة بتوقيع هو نسخة مطابقة للتواقيع الموجودة على الورقة الأولى.

لا مجال للشك الآن في أن هناك شخصاً ما تعرّن على تقليد توقيع «أندرو ماكلين» حتى أتقنه، ثم كتب رسالة التوكيل والشيك بالتأكيد... ولسبب غير معروف وجدت الورقان طريقهما إلى الصندوق.. ولكن من هو الفاعل؟ ليس هناك سوى جواب واحد، فالـ«فانيسا» لا تعرف إلا شخصاً واحداً يدعى «جون ماكلين».. إنه أبوها...»

خرجت «فانيسا» إلى نزهة صباحية فور الانتهاء من الاستحمام وارتداد ملابسها. موعد الفطور بعد الساعة التاسعة كما كان يوم الأحد الماضي. لكنها لم تكن تشعر بشهية للأكل. فالاكتشاف الذي وقعت عليه مساء أمس أثقل عليها نفسها وجسدها ولم يترك مجالاً للطعام أو الشراب. لا تزيد أن تأكل شيئاً، وتشعر الآن وكأنها لن تأكل مرة أخرى في حياتها. تسللت من الباب الأمامي بعد أن ارتدت معطفاً ثقيلاً، ذلك أن الهواء كان بارداً ومشبعاً بالرطوبة، والضباب يخيّم على البساتين والغابات. استدارت يساراً وسارت في الممر الطويل مطاطأة الرأس وأوضاعه يديها بعمق في جيبي معطفها، بغير أن تنتبه للرجل الذي كان يراقبها من إحدى نوافذ البيت. لأنها لم تنم أمس إلا نوماً متقطعاً قلقاً، فقد أظهرت الظلال الداكنة التي تركها السهر تحت عينيها بياض وجهها أكثر من العقاد. تفرّغ الممر الذي تسير فيه إلى اتجاهين. أخذت الاتجاه الذي يمر خلف المنزل ثم

يمتد مسافة كيلومترتين تقريباً. وسارت دون أن تعي ما يدور حولها، دون أن تعرف إلى أين. لم تعد «فانيسا» ترى سوى ورقة تحمل توقيع مزورة -الأرجح أنها من قبل أبيها- وهذا ما يجعله مجرماً، إن لم يكن في الواقع فعل الأقل بالذمة. هل مضى والدها قدماً في عملية؟ وهل نجح في التزوير أم اكتشفوه؟ لن تجرؤ على سؤال أحد، أبداً. وأدركت الآن أن مجيئها إلى «ديفينتون هاوس»، مع كل الأسباب الموجبة لذلك، قد انها وتفتت. من يستطيع القول الآن إن والدها كان على حق في كل ما أخبرها به من أن جدها كان قاسياً ومحظياً بحق ابنه الوحيد؟ ربما كانت له أسبابه العاقولة. لقد صدقـت «فانيسا» كل القصص التي حدثها بها والدها عن معاملة «أندرو ماكلين» السيئة، عن بخله في المال، وعن رفضه السماح له باختيار شريكة حياته، وعن أشياء أخرى كثيرة.. بحيث اضطر أخيراً إلى ترك المنزل وتأسيس حياة خاصة به. لكنه لم يشر فقط إلى التواقيع المزورة، وربما ترك أشياء كثيرة أخرى دون أن يبوح بها.. وتذكرت «فانيسا» إدمان والدها للمقامرة وكيف كان يطلب منها اختيار أسماء أحصنة السباق. كان الأمر طريفاً وهي طفلة، طفلة تحب والدها حتى الجنون... لكن هذه الطفلة لم تكن قادرة على فهم دموع أمها، أو نقاش والديها حول المال. وفجأة ظفت على ذهنها صورة واضحة تماماً، مثل صورة نصف مكتملة جاءت الأجزاء، الناقصة لرسم معالها الجلية. تابعت السير وكانتها تحاول الهرب من سيل الذكريات المزعجة.. ثم جاء صوت مفاجئ:

- صباح الخير. أليس الوقت مبكراً على النزهات الصباحية؟ رفعت رأسها لتجد «لوري» واقفاً أمامها، وإلى يمينها بعض الأبنية الريفية الرمادية.

- صباح النور. كنت محتاجة إلى نزهة صباحية. سألهـا «لوري» باهتمام:

- هل أنت على ما يرام؟ عاد القلق إلى نفسها خوفاً من أن يكتشف فيها شيئاً غريباً.

- كل شيء طبيعي، فماذا تقصد بسؤالك؟

- وجهك شاحب اللون، ويسعني أن أقول إنك كمن خرج لتوه من صدمة عنيفة. فإذا كنت تشعرين بالانزعاج، فأنا على استعداد للبقاء معك قليلاً.

جاءت «فانيسا» كي تبتس له:

- شكرًا يا «لوري»، لا ضرورة لذلك فسوف أعود إلى البيت بعد قليل.. على فكرة، ماذا يوجد في نهاية هذا الممر؟

- لا شيء سوى بحيرة صغيرة وبعض الأشجار وبيت ريفي مهجور، فالملحق بطول كيلومترتين تقريباً ثم يعود إلى البيت الرئيسي من الجهة الأخرى. هل تريدين أن آخذك إليه؟

- لا، شكرًا لك. أحسست بدوخة خفيفة عندما هزت رأسها بالنفي. مد «لوري» ذراعه لها وقال:

- تعالى معي، فليس في البيت غير أمي وهي ستعد لك فنجانا من الشاي. إغراه الشاي كان كبيراً، لكنها لم تكن راغبة في الوقت الحالي في مقابلة أي إنسان. تريد فقط أن تكون وحدها وتذكر في كل شيء.. وهي غير مستعدة لمحادثة أحد.

- شكرًا يا «لوري»، سأعود الآن إلى البيت، فأرجوك لا ترافقني.. صدقني أنا بحالة جيدة.

- حسناً، أنا ذاهب بالاتجاه نفسه على أي حال، فهيا بنا. لا مجال الآن للهرب منه، والأفضل أن تلجا إلى غرفتها بأسرع ما يمكن. ابتسمت بعمق هذه المرة وقالت:

- حسناً يا «لوري». لكنني أؤكد لك أنني لن أسقط خلال الطريق! رد بابتسامة أكبر:

- هذا يدعوا إلى الأسف، فساكون مسروراً إذا حملتك طول الطريق إلى البيت. سارا لعدة لحظات وسط صمت مطبق، في حين كان القباب يذوب تدريجياً بفعل أشعة الشمس التي بدأت تطل من الشرق واعدة بيوم دافئ وجميل. قال لها وهما يقتربان من البيت:

- سأتي إلى المكتبة غداً صباحاً.

- حسناً جداً. لن تأتي على ذكر الصحف القديمة إلا إذا سألتها في حالة ملاحظته اختفاء الصندوق. لقد أخذت الورقتين في قعر أحد أدراج طاولة الزينة،

علىها تجد تفسيراً بريطاً.. وسيكون الأمر مستحيلاً إذا ما أتلفتهما. ومع أنها تعرف تماماً أن لاأمل يرتجى إلا أنها أصرت على التمسك بالسراب.

- «فانيسا»..

- نعم!

- قلت، هل أنت على ما يرام؟

- بالتأكيد.. بالتأكيد.. أنا آسفة. شكرًا لك يا «لوري»، أراك غداً. كانا قد وصلا إلى مدخل البيت، فاستدار «لوري» مبتعداً. قالت «فانيسا» باستغراب:

- أن تدخل إلى البيت؟

- لا. كنت أريد الاطمئنان عليك فقط. فهيا اذهبني وتناولني إفطاراً شهياً، وستشعرين على الفور بالتحسن. لمست ذراعه إعراضاً عن الشكر وقالت:

- أنا ممتنة لك يا «لوري». شكرًا جزيلاً على كل شيء. استدارت ودخلت البيت مسرعة. وما إن وطأت قدمها عتبة البيت حتى اجتاحتها شعور بالحزن العميق. تمهلت للحظة كي تسيطر على أحاسيسها وتحاول تناصي كل ما حدث، ولكنها لم تستطع. فهذا بيت أبيها وبيت جدها، ولا فائدة من تناصي الماضي وأحداثه. ابتلعت بعض الدموع التي انحدرت على خديها وأسرعت باتجاه غرفتها. استلقت على سريرها وتركت لدموعها العنان، فاحسست بها ساخنة حارة ومؤلمة... ثم دفت وجهها في المخدة وانفجرت منتحبة. لم تسمع قرع الباب، كما لم تسمع الصوت الذي ناداها، وظلت على حالها حتى فتح الباب ودخل «أندرو ماكلين» الغرفة. نهضت وقد انعقد لسانها وملكتها الدهشة، ولم تدرك للوهلة الأولى، بسبب الدموع التي منعتها من الرؤية الواضحة، ما إذا كان هذا جدها أم «كال». ثم جاء صوت جدها:

- ماذا بك يا بنتي العزيزة؟ لم تحر «فانيسا» جواباً عندما اقترب منها. ضاعت كل الكلمات من ذهنها، فاكتفت بهز رأسها بلا وعيٍ. وضع ذراعه على كتفها وقال:

- ما الأمر؟ هل فعلنا شيئاً سيئاً إليك؟ بحق السماء يا «فانيسا» أوقفي هذا النحيب، فأنا لا أستطيع أن أراك باكية! أرجوك اهدئي. وبالتدريج أثر رجاوه

فيها، فاستطاعت من بين شهقات البكاء أن تجيب:

- أنا آسفة! لا، لم يصدر عنكم ما أساء إلي. لا أستطيع أن أخبرك بالسبب.  
المسألة خاصة جداً. جلس على المعد قبالتها وقال:  
- في هذه الحالة لن أكرر السؤال. لكن أرجوك، دعني أساعدك إذا أمكن. لم  
تتناولني إفطارك بعد، أليس كذلك؟  
- بلى.

- إذن ستحضر لك السيدة «بانكس» بعض الطعام، وأصرّ بعد ذلك على أن  
تنزلي إلى البيه فنتحدث قليلاً حول فنجان القهوة. نظرت إليه «فانيسا»  
وقالت:

- ولكنك يجب أن تذهب إلى أشغالك هذا الصباح! ابتسم وقال:  
- يمكنني تأجيل أعمالي هذا الأسبوع. فلن أغادر البيت وأتركك على هذه  
الحالة دون أن أعرف السبب، كما أتفق أتردد في سؤال «كال»؛ لأنه مشغول في  
الكتابة... وإلى جانب ذلك.. وتوقف عن الكلام فجأة، ففتحت قائلة:  
- ماذا؟ ابتسم متابعاً:

- لدى انبساط بأنكما أشعلتما النيران في نفسكم. قاطعته بتهيبة احتجاج  
وإنكار، فضحك قائلاً:

- لا تخضبي يا عزيزتي، أنا أفهم الوضع تماماً. كان من الطبيعي أن تصطدموا  
بعبعكم البعض. فـ«كال»، رجل عادئي جداً، أما أنت فأنطباقي عنك أشك  
امرأة ذات إرادة قوية، أنا أحب مثل هذه المرأة، وأعتقد أن دروس الجود و  
ستعطي مفعولاً قوياً عندما تقطعين مرحلة منها. وعلى الرغم من كل شيء،  
ابتسمت «فانيسا» لكلام جدها:

- أنا آسفة، لم أدرك... قاطعها واقفاً:  
- لا تهتمي أبداً. أنا أثق بوجود الشباب حولي. والآن، أقترح عليك أن  
تغسل وجهك، بينما أطلب من السيدة «بانكس» إعداد فطورك... وبعد الطعام  
أراك في البيه. غادر الغرفة وأغلق الباب خلفه بهدوء، ملأت «فانيسا» الحوض  
بالماء البارد وغمست وجهها فيه مع إبقاء عينيها مفتوحتتين. إنها خدعة

تعلمتها منذ سنوات لترطيب العينين وإزالة الاحمرار منهما. وبينما هي تنشف  
وجهها سمعت السيدة «بانكس» بالباب، فدعنتها إلى الدخول. الإفطار الذي  
جاءت به السيدة «بانكس» كان يتكون من بعض الخبز المحمص إلى جانب  
البيض المقلي مع الرزد والعسل... وبالتأكيد فنجان قهوة. قالت «فانيسا»:  
- شكرًا جزيلاً لك يا سيدة «بانكس». ردت مدمرة المنزل وهي تسعف:  
- لقد طلب مني ذلك، قال إنك لست على ما يرام.  
- لم أكن مرتاحاً، لكنني سأشعر بالتحسن عندما أتناول هذا الإفطار الشهي.  
هزت السيدة «بانكس» رأسها وكأنها غير مقتنعة بما قالته «فانيسا».  
- حسناً سأتركك وطعامك الآن. وذهبت. تنهدت «فانيسا» وتساءلت عما إذا  
كانت ستحترق تحفظ هذه المرأة في يوم من الأيام، لكنها لن تستطيع، لأنها غير  
باقية هنا طويلاً خاصة بعد اكتشافها الليلة الماضية. فكل خطط الانتقام التي  
رسمتها ضد جدها تلاشت، حطمته حقيقة الورقتين القديمتين، وأخذت تفكّر  
في الوقت المناسب لغادره البيت. صحيح أن هناك عملاً كثيراً في المكتبة، لكنها  
لا تستطيع تحمل البقاء هنا طيلة هذا الوقت محتفظة لنفسها بالسر الذي اتفح  
لها. كما أنها لا تستطيع مصارحة جدها بالحقيقة، كيف تجرؤ على إيدائه؟  
لقد استطاع تجاوز آلام السنوات الماضية، فهل يجب عليها أن تفتح له الجراح  
المثلثة؟ من الأفضل أن تنسحب بهدوء... ولا تعود أبداً. بعد فترة من الزمن  
سيخف شوّقه إلى حفيته المجهولة. فكرت في أن تخبره بحقيقةاتها، لكنها  
أسقطت الفكرة فوراً، إذ كيف يمكن أن تعرف بالخدمة التي خططت لها؟  
وبأنها قررت أن تخبره بحقيقة شخصيتها قبل أن تخرج من حياته مرة أخرى  
وإلى الأبد؟ أما بعد أن تعرفت إليه فلن تتمكن من إخباره. ليس الآن، فقد فات  
الأوان.. فات الأوان نهائياً. «لوري» يستطيع أن ينجذب العمل في المكتبة. ولم لا؟  
 فهو يعمل بنشاط قادر على متابعة المهمة. بالإضافة إلى ذلك يحب الكتب،  
خاصة الكتب القديمة، مثله مثل صاحب البيت.  
جلست إلى الطاولة بعد أن رفعت عنها الكتب والجرائد، وبدأت تقلب في  
ذهنها طرق إقناع «لوري» بمواصلة العمل بعد أن ترحل. إنه آت إلى المكتبة

يوم الاثنين، ورغبت في العمل معها يومياً واضحة كما أنها مقبولة من جميع المعنيين، وهذا سيكون ترتيباً معقولاً ولا يسبب أية أزمات، والمهم في النهاية أن يتم ترتيب الكتب وفهرستها. وبذلت «فانيسا» تشعر ببعض التحسن وهي تتناول طعامها. هذا التحسن الحقيقي يكفي الآن على الأقل، لكن مشاعرها عادت إليها في وقت لاحق من النهار عندما نزلت إلى غرفة الرياضة. شاركتها «أندرو ماكلين» الغداء في حين كان «كال» خارج البيت. وقد حاول جدها - كما فعل طول النهار - أن يسللها ويرفع عنها. أبلغتها عن بعض ارتباطاته وأشغاله... وعلى الرغم من كل شيء، بدأت تحس بإعجاب متزايد تجاهه. وجدت أنه شغوف بعمله، وله مصالح متعددة منتشرة من «أبردين» إلى «لندن» تدفعه إلى التنقل كثيراً بين «بريطانيا» و«أوروبا». وبعيداً عن شؤون العمل اكتشفت حساسية مرهقة في طباعه. ومع أن والدها وصف لها جدها بأنه قاسي القلب، إلا أن الحقيقة كانت مختلفة.

ذهبت «فانيسا» إلى غرفة الرياضة وأحساسها متضاربة تختلج في نفسها، وقامت لو تجد «كال غرين» قبل أن يرتدي بزة الجodo لتطلب منه لا يزعج نفسه بذلك. الواقع أنها لا تريد أن تمضي وقتاً طويلاً معه، فعيناه الحادتان قادرتان على اختراق أفكارها والوقوف على مشاعرها... وهذا ما لا ترغب فيه الآن. الصمت يخيّم على غرفة الرياضة، عبرت «فانيسا» باتجاه غرف تغيير الملابس وهي تناول «كال»، وأدركت بعد فوات الأوان أنها نادته باسمه الأول، فغضبت شفتيها السفلية ندماً. ومع ذلك ليس هناك مجال آخر، فتناولاته باسم سيد «غرين» ستثير سخريتها دون شك.

- سأكون معك خلال دقيقة. إذن هو في الداخل. بعد لحظة خرج إليها وعلى وجهه علامه استفهام. «فانيسا» تعرف أن أحداث الصباح تركت آثارها على وجهها بحيث لا يمكن للماكياج أن يخفيها. قالت وهي تجاهد بلا جدوى لإخفاء مشاعرها:

- كنت أتساءل عما إذا كنت هنا، فالمكان كان صامتاً تماماً. نظر إليها باندهاش، فخشيت أن يكون جدها قد أخبره عن دموعها وتحبيها هذا الصباح، لم تكن

والثانية بذلك، لكنها تمنت ألا يكون جدها قد فعل. أجابها بهدوء:

- أنا هنا، فهل أنت مستعدة؟ ترددت لحظة قبل أن تقول:

- أجل، لن أتأخر في تغيير الملابس كثيراً. تجاوزته ودخلت إلى الغرفة. ماذا بعد؟ لم يكن لديها خيار. عليهما أن تستقر على الرغم من شعورها بالضعف والإعياء. بعد دقائق كافٍ في مواجهة بعضهما البعض فوق فرشة الجodo، وسرعان ما ارتاحت «فانيسا» بفعل حركات الإحماء التي أدياها معاً، بالإضافة إلى أنه لم يثير أية تساولات. طلب منها أن تكرر السقطة الدافعية التي تعلمتها أمس عدة مرات. واستغربت كيف أنها استطاعت تنفيذها دون صعوبة تذكر، بحسب ما ذكرت.

- هل تعرفين أن حركتك طبيعية؟ التفتت إليه بسرعة متوقعة أن تجد ظل

السخرية على شفتيها لكنها وجدت ابتسامة عذبة، وتتابع يقول:

- إنني أعني ما أقول، فأنت طرية العود وممشوقة القوام. ردت بابتسامة عادمة:

- شكراً لك. على كل حال، إنها أيام قليلة وتحلص نهائياً من تساولاته المحرجة المستمرة، وكذلك من خوفها عندما يكون موجوداً. وفجأة سألاه:

- هل أنت على ما يرام؟ صدمها السؤال، فقالت متلعنة:

- لماذا، أنا.. إنني بخير، لكن لماذا تسأل؟

- تبدين شاحبة، ويجب ألا تواصلني التدريب إذا كنت متعبة أو ممزوجة من شيء ما. ثم سألتها دون مقدمات:

- هل أزعجك «لوري»؟ رفعت «فانيسا» رأسها باتجاهه دون أن تفهم ما الذي قصده بالسؤال:

- «لوري»؟ أنا لا أفهم ما تقول؟

- لقد ذهبت هذا الصباح لمقابلته.. وعندما عدت كنت في حالة يرثى لها. هزت رأسها وقد غامت الدنيا عن نظرها:

- لا أبداً لم يكن هو. كان... ثم توقفت ونظرت إليه قائلة:

- أرجوك، لا أريد الخوض في هذا الموضوع. ودون أن تشعر تراجعت عدة

خطوات عن «كال» الذي لاحظ الأمر فورا. فسألها بقسوة:

- لا تقولي إنني أخيفك؟

- لا.. فقط عندما.. توافت مرة أخرى وقد تسللت مشاعر الضيق مرة أخرى إلى صدرها فكادت أن تخمد أنفاسها. قالت:

- لا. أرجوك دعنا نواصل الدرس. قال:

- لا أستطيع تدريبك وأنت في هذه الحالة، ليس وأنت خائفة مني بشكل واضح. انفجرت في وجهه صائحة:

- لست خائفة منك. ليس عندما تدربتني، فأنت رائع عندما تبدأ بطرح أسئلتك فإني... فإني لا أريد... واحتضني صوتها في حنجرتها. لم يعد هناك مجال، فهو لن يتركها الآن. ليس قبل أن تخبره بالحقيقة كلها، أو الأصح قبل أن يجبرها على الاعتراف بالحقيقة. لكن أبداً... أبداً.. حدقت إليه بقوة ثم تراجعت مرعوبة، واستدارت راكضة إلى غرفة تغيير الملابس. وقبل أن تغلق الباب وراءها كان هو هناك ليمنع اختفائها. قال:

- بحق السماء أيتها الفتاة، ما الأمر؟

ـ اذهب عنـي.

ـ أريد أن أغادر المكان فورا - ثم همسـتـ أرجوك دعنيـ. ليس قبل أن تخبرـينـي بـسببـ خوفـكـ. أنا لا أـستطيعـ أن أـتركـكـ علىـ هذهـ الحالـ.

ـ لا أـريدـ أن أـتحدثـ إـلـيـكـ. اذهبـ عـنـيـ. وحاـولـتـ يـائـسـةـ أنـ تـبعـدـهـ عـنـ الـبـابـ. فـكـانـتـ كـمـنـ يـنـاطـحـ جـدـارـاـ. لمـ يـتـحـركـ قـيدـ أـنـمـلـةـ، لكنـهـ وـضـعـ ذـرـاعـهـ حـولـهـ كـيـ يـسـنـدـهـ.

ـ لنـ اذهبـ. والـآنـ أـخـبـرـيـ ماـ القـصـةـ؟ لـقدـ أـمـضـيـتـ النـهـارـ كـلهـ فـيـ البـكـاءـ وـالـضـيقـ، أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟ لمـ تـجـبـهـ. حدـقـتـ إـلـىـ عـيـنـيـ مـبـاشـرـةـ، لكنـهـ اـضـطـرـتـ إـلـىـ تـحـوـيلـ نـظـرـهـ بـقـعـلـ تـأـثـيرـ نـظـرـاتـهـ الـحـادـةـ، الأـفـضلـ لاـ تـنـظـرـ إـلـيـهـ، وـهـوـ بـالـتـالـيـ لـنـ يـمـسـكـهـ إـلـىـ مـاـ لـاـنـهـيـةـ. لـيـسـ مـضـطـرـةـ إـلـىـ الـكـلامـ، إـنـهـ لـاـ يـسـتـطـعـ إـجـبارـهـ عـلـىـ ذـلـكـ. لـكـنـ التـوتـرـ أـخـذـ يـتـزـايـدـ خـاصـةـ أـنـهـمـاـ كـانـاـ مـلـتـصـقـينـ فـيـ ذـلـكـ الدـخـلـ الضـيقـ، فـحـاـولـتـ إـلـفـلـاتـ مـنـ قـبـضـتـهـ. طـالـبـهـ آـمـراـ:

- ألم تمضي نهارك في البكاء؟ هيا أخبريني.

- أجل.. أجل.. لقد بكت طول النهار - ثم ارتدت إليه قائلةـ - والـآنـ ماـ الـذـيـ سـتـغـفـلـهـ حـولـ ذـلـكـ؟ مـاـذـاـ يـعـنـيـكـ مـنـ الـأـمـرـ عـلـىـ أيـ حـالـ؟ لـاـ شـيـءـ. أـنـتـ لـسـتـ سـوـيـ إـنـسـانـ فـضـوليـ.. فـدـعـنـيـ أـذـهـبـ فـورـاـ. لـاـ يـحـقـ لـكـ أـنـ تـمـسـكـنـيـ رـغـماـ عـنـ إـرـادـتـيـ.. إـنـيـ أـكـرـهـكـ... أـكـرـهـكـ.

- لـاـ. أـنـتـ لـاـ تـكـرـهـيـنـيـ، وـأـنـاـ فـضـوليـ جـداـ، لـاـنـ بـكـاهـ يـتـعـلـقـ بـسـبـبـ وـجـودـكـ فـيـ هـذـاـ الـبـيـتـ، أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟ كـيـفـ عـرـفـ هـذـاـ الـأـمـرـ؟ لـمـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـخـفـيـ دـهـشـتـهـ، لـاـنـهـ لـاـمـ الـحـقـيـقـةـ الـمـجـرـدـةـ، وـفـيـ أـيـةـ لـحـظـةـ يـمـكـنـ أـنـ... اـسـتـجـمـعـتـ أـطـرافـ شـجـاعـتـهـ الـمـتـنـاثـرـةـ وـحـرـرـتـ نـفـسـهـ مـنـ قـبـضـتـهـ، ثـمـ اـسـتـدـارـتـ وـحـملـتـ حـذـاءـهـاـ وـمـلـابـسـهـاـ الـعـادـيـةـ قـائـلـةـ:

- إـلـآنـ سـأـغـيـرـ مـلـابـسـيـ، هـلـ تـسـمـعـنـيـ؟ إـلـآنـ! سـأـلـهـ بـنـعـومـةـ:  
ـ مـاـ هـوـ اـسـعـتـ الـحـقـيـقـيـ؟

- «فـانـيسـاـ كـولـينـزـ». سـيـقـ أـنـ قـلـتـ لـكـ ذـلـكـ. كـانـ الـجـوابـ سـريـعاـ، وـلـكـ لـيـسـ بـعـاـفـةـ الـكـفـاـيـةـ.

- وـ«سـمـيـثـ»، أـيـضاـ، أـنـذـكـرـيـنـ أـنـكـ أـخـبـرـتـنـيـ بـذـلـكـ؟ لـكـنـيـ لـاـ أـصـدـقـكـ!  
ـ لـاـ يـهـمـنـيـ إـذـاـ صـدـقـتـ أـوـ لـمـ تـصـدـقـ، فـاـذـهـبـ إـلـىـ الـجـحـيمـ. لـاـ أـرـيدـكـ أـنـ تـعـلـمـنـيـ شـيـئـاـ. أـنـتـ حـيـوانـ ضـخـمـ فـقـطـ، وـأـنـاـ أـكـرـهـكـ. خـيـسـتـ ثـوـانـ مـنـ الصـمـتـ الـمـتـوـرـ علىـ الـآـثـنـيـنـ الـذـيـنـ وـقـفـاـتـ فـيـ مـواجهـةـ بـعـضـهـمـ دونـ أـنـ يـتـفـوهـ أـيـ مـنـهـمـ بـكـلـمـةـ. وـفـجـأـةـ اـسـتـدـارـ «كـالـ» خـارـجاـ وـأـغـلـقـ الـبـابـ خـلـفـهـ، اـضـطـرـتـ «فـانـيسـاـ» الـتـيـ أـصـبـحـتـ دـاخـلـ الـغـرـفـةـ وـحـدـهـاـ إـلـىـ الـجـلوـسـ؛ لـاـنـ قـدـمـيـهـاـ مـاـ عـادـتـ قـادـرـتـانـ عـلـىـ أـنـ تـحـمـلـهـاـ. مـنـ الـواـضـحـ أـنـهـ لـمـ يـسـتـلـمـ بـعـدـ، وـلـذـكـ عـلـيـهـاـ مـغـادـرـةـ «دـيـنـسـتـونـ هـاوـسـ»ـ بـأـسـرعـ مـاـ يـمـكـنـ. فـلـوـ طـالـتـ مـدـةـ بـقـائـهـاـ فـيـ الـبـيـتـ، فـإـنـ «كـالـ»ـ سـيـجـدـ طـرـيقـةـ أـوـ أـخـرىـ لـاـكـتـشـافـ سـرـهـاـ الـدـفـينـ.

من الواضح الآن أن ما تخفيه في نفسها سيثقل عليها يوماً بعد يوم، فعندما دخلت إلى المكتبة في الصباح التالي لاستئناف عملها، عاودها الشعور بالذنب. لعل التوقيع المزور جربت هنا ساعة بعد ساعة، وفي لحظة عاجلة دس أبوها الأوراق بين الصحف؛ لأن أحداً دخل عليه الغرفة فجأة.. ثم نسيها. وفجأة عادت إلى ذاكرتها أشياء قالها جدها وتزكى ظنونها. تذكرت كيف احتقن وجهه بأحساس مختلفة عندما جاء ذكر الصحف. لربما عاد إلى الماضي حين اكتشف الحقيقة. ارتدت الرداء الواقي وبدأت في إعداد مجموعة من الكتب تمهيداً لفهرستها. كان قلبها متقدلاً بالهموم والأحزان، وبالإضافة إلى ذلك هناك مهمة خاصة مع «لوري» عندما يأتي إلى المكتبة. حانت فرصتها عندما كانا يحتسيان القهوة عند الساعة الحادية عشرة. كان قد وضع كتاباً قد يملا على الطاولة وتنهي بحسرة. فسألته فوراً:

- أنت تحب هذه الكتب القديمة، أليس كذلك؟ نظر إليها وتعبير من الدهشة يملأ وجهه:

- أعتقد ذلك. لكنني لم أفكر فيها من قبل. لماذا تسألين عن الموضوع؟

- فقط استغربت كيف أنك لم تتقدم للعمل في المكتبة عندما عرفت أن السيد «ماكلين» يبحث عن شخص ذلك!

- أنا؟ هز رأسه بالنفي وقال:

- لم أفك في الأمر قط. بالإضافة إلى أنني أعمل في الحدائق. على كلّ، عمل المكتبة ليس من اختصاص الرجال. قاومت «فانيسا» ضحكة كادت أن تفلت منها عندما قال الجملة الأخيرة.. عليها أن تكون حذرة تماماً الآن.

- بالتأكيد من اختصاص الرجال - وتابعت بسرعة - صدقني، هذا العمل يتطلب الذكاء الحاد والوعي العميق والعناء أيضاً. إنني أعرف كثيرين من الرجال في هذه المهنة. وأنت بارع فيها جداً. أجابها وكأنه ينكر في الموضوع:

- هل هذا صحيح؟ كنت أقصد مساعدتك فقط، ولم أفكـرـ..

- ما كنت لاـستطيعـ العمل دون مساعدتكـ. لم تكنـ كاذبةـ عندماـ قالتـ هذهـ الجملـةـ.ـ والآنـ أنتـ المرحلـةـ الحرـجةـ.

- لتفترضـ ياـلوريـ إنهـ افترضـ فحسبـ.ـ أـنـيـ لمـ أـسـطـعـ إـنـهـ العملـ لـسـبـبـ مـنـ الـأـسـبـابـ،ـ فـهـلـ يـمـكـنـكـ موـاـصـلـتـهـ؟ـ وـضـعـ فـنـجـانـ الـقـهـوةـ عـلـىـ الطـاـوـلـةـ بـهـدوـءـ وـنـظـرـ إـلـيـهـاـ بـحـدةـ وـغـضـبـ.

- حـسـنـاـ،ـ هـيـاـ أـخـبـرـنـيـ بـالـحـقـيـقـةـ!

- لاـ شـيـ..ـ لـاـ شـيـ..ـ قـاطـعـهـاـ بـسـرـعـةـ:

- دـعـكـ مـنـ هـذـهـ الـادـعـاءـاتـ.ـ هـذـهـ أـولـ مـرـةـ يـخـاطـبـهـاـ فـيـهـاـ بـهـذـهـ الشـكـلـ،ـ وـقـدـ صـدـمـهـاـ ذـلـكـ:

- إـنـيـ مـتـاكـدـ أـنـ الـلـمـعـونـ «ـكـالـ غـرـبـينـ»ـ هـوـ الـمـسـؤـولـ.ـ أـخـبـرـنـيـ مـاـذـاـ فـعـلـ؟ـ شـعـرـتـ بـالـأـرـتـيـاحـ؛ـ لـأـنـ تـفـكـيرـهـ ذـهـبـ فـيـ هـذـاـ الـاتـجـاهـ.ـ غـرـيبـ!ـ كـيـفـ تـجـريـ الـأـمـوـرـ؟ـ فـيـ الـبـدـءـ اـتـهـمـ «ـكـالـ»ـ «ـلـوريـ»ـ،ـ وـالـآنـ «ـلـوريـ»ـ يـتـهـمـ «ـكـالـ»ـ.

- كـلـاـ يـاـلـوريـ.ـ لـيـسـ الـأـمـرـ كـمـاـ تـقـنـ.ـ فـأـنـاـ..ـ

- اـسـمـعـ جـيـداـ،ـ كـنـتـ أـمـسـ عـلـىـ حـافـةـ الـانـفـجـارـ بـاـكـيـةـ،ـ وـأـنـاـ لـسـتـ غـيـرـاـ بـحـيثـ لـأـدـرـكـ الـحـقـائـقـ.

- لـمـ أـقـدـ ذـلـكـ قـطـ.ـ لـامـسـ ذـرـاعـهـ بـيـدـهـاـ وـقـالـتـ:

- لـقـدـ تـلـقـيـتـ أـنـيـ سـيـئةـ عـنـ...ـ عـنـ قـرـيبـ لـيـ،ـ وـهـذـاـ مـاـ أـزـعـجـنـيـ.ـ أـوـكـدـ لـكـ أـنـ الـأـمـرـ لـاـ يـتـعـلـقـ بـهـ.ـ كـلـ مـاـ فـيـ الـأـمـرـ أـنـيـ لـسـتـ مـتـاكـدـةـ مـنـ اـسـتـمـارـيـ هـنـاـ طـوـيـلـاـ وـلـأـرـيدـ أـنـ أـتـرـكـ..ـ السـيـدـ «ـمـاـكـلـيـنـ»ـ وـكـادـتـ كـلـمـةـ جـدـيـ أـنـ تـقـلتـ مـنـهـاـ،ـ لـكـنـهـاـ اـسـتـدـرـكـتـ مـتـابـعـةـ.ـ فـيـ مـشـاـكـلـ عـدـيـدـةـ.ـ هـذـاـ كـلـ مـاـ فـيـ الـأـمـرـ.ـ حـدـقـ «ـلـوريـ»ـ إـلـيـ يـدـهـاـ الـمـرـتـاحـةـ عـلـىـ ذـرـاعـهـ ثـمـ غـطـاـهـ بـيـدـهـ الـأـخـرـىـ.ـ قـالـ بـنـعـومـةـ:

- مـنـ الصـعـبـ عـلـيـ أـنـ أـرـفـضـ لـكـ طـلـباـ،ـ وـلـكـنـيـ لـاـ أـرـيدـكـ أـنـ تـرـحـلـيـ وـأـنـتـ تـعـرـقـيـنـ ذـلـكـ تـعـامـاـ.ـ سـكـتـ قـلـيلـاـ ثـمـ أـضـافـ بـاـيـسـامـةـ هـادـئـةـ:

- هـلـ تـبـقـيـنـ هـذـاـ إـذـاـ رـفـضـتـ أـنـ أـقـومـ بـالـعـلـمـ؟ـ هـزـتـ رـأـسـهـاـ قـائـلـةـ:

- لـاـ أـسـطـعـ.ـ سـابـقـيـ حـوـالـيـ أـسـبـوعـ تـقـرـيـبـاـ،ـ وـبـعـدـهـ سـأـرـحلـ.ـ أـرجـوكـ يـاـلـوريـ،ـ

ما ذكرته لك الآن أريده أن يبقى معك سراً، وأعتقد أنني أستطيع الثقة بك، أليس كذلك؟ قال لها مؤكداً:

- أعدك بأنني لن أخبر أحداً، لكنني سأحاول إقناعك بالعدول عن هذه الفكرة. ابسمت له قائلة:

- شكراً لك. أشعر الآن بتحسن كبير. والآن، أليس من الأفضل أن تشرب قهوةتك قبل أن تبرد؟ وعندما استدارت مبتعدة عنه عادت إليها الهموم دفعة واحدة، كان عليها لا تأتي أبداً. فالسيد «مورتون» كان محقاً في تحذيراته من الخداع والحيل والأكاذيب. لو أنها استمعت إليه، لنجت من كل هذه المأساة. عملت «فانيسا» خلال اليومين التاليين بجد ونشاط في محاولة لإنجاز القسم الأكبر من العمل قبل أن يحين موعد إبلاغ جدها بأنها راحلة. كل وجبة طعام معه تحولت إلى عذاب شديد، زاد فيه «كال غرين» الذي أخذ يعاملها بتأديب جاف وكأنه يهينها. كان يراقبها ويتذكر حتى تقدم على خطوة خطاطفة كي يهاجمها، فشعرت بأعصابها تكاد تنفجر. وفي أحد الأيام كانت وحدها في المكتبة عندما دخل «كال». وعلى الفور استنفرت قواها وجلست تنتظر ما يمكن أن يحمله لها هذه المرة. كان هادئاً ولا يبالياً. قال لها:

- آسف لإزعاجك، لقد جئت لأخذ أحد الكتب. وسار إلى زاوية الكتب الحديثة التي ليست من اختصاص «فانيسا». راقبته وهي تتعيني أن ينتهي بسرعة ويعادرها كي تعود إلى عملها. وصل إلى الرف المقصود وسحب أحد الكتب بعد أن بحث في المجموعة كلها. سمعت «فانيسا» تنهيدة ارتياح منه عندما عثر على الكتاب. وفجأة التفت إليها وقال بنبرة هادئة مؤدية:

- يجب أن تخبريني كي أنزل مجموعة الجرائد من غرفتك عندما تنتهي منها. وجاءت «فانيسا» كي تخفى آثار الصدمة التي أثارها فيها ذكر مجموعة الصحف. فمنذ أن وجدت الورقتين لم تعد قادرة على لبس أية صحيحة، بل أعادت المجموعة إلى الصندوق ورمتها في إحدى الزوايا بعد أن غطتها بمجلات نسائية حديثة.

- لم... لم أنظر إليها بعد بسبب ضيق الوقت. خفق قلبها بشدة بحيث شعرت

به وكأنه يريد الخروج من صدرها. ترى هل أثار موضوع الصحف عامداً؟ هل عرف القصة؟ ثم تابعت:

- يمكنك أن تنزلها وقتما شاء، فسأنظر إليها في وقت لاحق بعد أن أنتهي من العمل هنا. وأشارت بيدها إلى مجموعات الكتب المصفوفة خلفها. همهم صامتاً ثم استدار:

- سأذهب وأحضرها الآن. تردد أمام الباب قليلاً وقال:

- آسف، ألسنت قادمة معى؟

- بلـى. وضعـت «فـانـيسـا» الـبطـاقـةـ منـ يـدـهـاـ وـاتـجـهـتـ نحوـ الـبـابـ. عـضـتـ شـفـتهاـ السـفلـىـ وـهـيـ تـفـكـرـ، لـقـدـ أحـسـتـ تـوـبـيـخـاـ مـقـصـودـاـ فـيـ كـلـ كـلـمةـ أوـ حـرـكـةـ أـقـدـمـ عـلـيـهـاـ، كـمـ أـحـسـتـ شـكـاـ عـمـيقـاـ وـقـلـقاـ مـرـعـباـ. فـتـحـ لـهـاـ الـبـابـ وـأـفـسـحـ الـمـجـالـ كـيـ تـمـرـ، نـمـ سـارـ مـعـهـاـ بـاتـجـاهـ السـلـالـمـ. قـلـبـهاـ مـازـالـ يـخـفـقـ بـسـرـعـةـ، لـكـنـ لـيـسـ بـعـامـلـ الخـوفـ بـلـ لـأـنـ يـسـيرـ إـلـىـ جـانـبـهـاـ. قـطـعـاـ الـبـهـوـ وـالـسـلـالـمـ وـالـمـرـاتـ بـصـمـتـ مـطـبـقـ، لـمـ تـرـدـ أـنـ تـحـطـمـهـ لـثـلـاـ بـيـدـاـ بـطـرـحـ أـسـئـلـةـ الـاسـقـزـارـيـةـ الـمـعـادـةـ. وـصـلـاـ إـلـىـ بـابـ غـرـفـتهاـ، فـانـتـظـرـ «ـكـالـ»ـ حتـىـ فـتـحـتـ «ـفـانـيسـاـ»ـ الـبـابـ وـدـخـلـ خـلـفـهـاـ:

- هناكـ، فـيـ الصـنـدـوقـ أـسـفـلـ النـافـذـةـ. لـقـدـ وـضـعـتـ بـعـضـ الـمـجـلـاتـ فـوـقـهـاـ. لـحظـةـ منـ فـضـلـكـ. رـفـعـتـ الـمـجـلـاتـ الـخـاصـةـ عـنـ الصـنـدـوقـ وـرـاقـبـتـهـ وـهـوـ يـحـمـلـهـ بـسـهـولةـ.

ثم التقت عيناه عينيها وقال بعنونة:

- هلـ المـجـمـوعـةـ كـلـهاـ هـنـاـ؟

- أـجلـ، كـلـهاـ. وأـدـرـكـتـ فـجـأـةـ أـنـ الـورـقـتـيـنـ الـلـتـيـنـ سـبـبـتـ لـهـاـ كـلـ المـتـاعـبـ نـاقـصـتـانـ. أـغـمـضـتـ عـيـنـيـهاـ لـلـحـظـاتـ وـكـانـهـاـ تـعـتـصـرـ الـأـلـمـ الـذـيـ اـنـتـابـهـاـ. آهـ لـوـ أـنـهـاـ لـمـ تـعـثـرـ عـلـيـهـاـ. فـتـحـتـ عـيـنـيـهاـ لـتـجـدـ «ـكـالـ»ـ يـحـدـقـ إـلـيـهـاـ وـكـانـهـ عـرـفـ كـلـ شـيـءـ. أـحـسـتـ بـالـمـحـارـ بـأـلـمـ يـطـعـنـهـاـ فـيـ صـدـرـهـاـ وـيـقـطـعـ أـنـفـاسـهـاـ. لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـحـتـمـ الـأـمـرـ أـكـثـرـ، سـتـجـنـ إـذـاـ لـمـ تـهـرـبـ مـنـ هـذـاـ الرـجـلـ. اـسـتـدـارـتـ بـسـرـعـةـ وـاتـجـهـتـ

نـحـوـ الـبـابـ غـيرـ مـبـالـيـةـ إـذـاـ كـانـ سـيـلـحـقـ بـهـاـ لـاـ، فـهـيـ لـاـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـبـقـيـ

عـهـ فيـ الـغـرـفـةـ نـفـسـهـاـ. أـغـلـقـتـ الـبـابـ خـلـفـهـ بـهـدـوـهـ، وـانـتـظـرـتـ حـتـىـ اـبـعـدـ قـلـيـلاـ

ثـمـ لـحـقـتـ بـهـ. سـارـتـ بـبـطـهـ كـيـ تـبـقـيـ عـلـىـ مـسـافـةـ بـيـنـهـمـاـ. وـجـاهـتـ حـتـىـ لـاـ يـبـدوـ

الأمر متعمداً، وفي الوقت نفسه حتى لا تسير إلى جانبه. وصل إلى المكتبة قبلها بوقت طويل، بينما تباتهات هي قليلاً في القاعة الرئيسية.

- لقد أعددت الصندوق إلى المكان الذي كان فيه.

- شكرًا لك، أغلقت الباب خلفه بسرعة. لفت نظرها الفراغ الذي تركه عندما سحب الكتاب قبل قليل، وقبل أن تتجه إلى رف الكتب ألت نظرة خاطفة على الباب كي تتأكد أنه لن يعود. مجموعة الكتب على الرف كانت متشابهة في أغلفتها وطبعتها. حملت الكتاب المجاور لذلك الذي أخذه فوجدت أنه يتعلق بالسياحة والأسفار. عادت إلى ذهنهما على الفور حقيقة أن «كال» يكتب كتاباً عن الرحلات، لربما احتاج إلى مرجع لذلك. اسم المؤلف هو «كالوم كيل». ولاحظت «فانيسا» أن الاسم الأول للمؤلف هو نفسه اسم «كال» الكامل. قلبت الغلاف الأخير لتنظر إلى صورة المؤلف فوجدت رجلاً كث اللحية أسودها، ثم أمعنت النظر أكثر، وكم كانت دهشتها كبيرة وعميقة عندما تأكدت أن الرجل ليس إلا «كال» نفسه. إذن «كال غرين» هو نفسه «كالوم كيل»، الكاتب والرحلة والإذاعي المعروف. حدقت إليه وهو إلى المائدة وتساءلت في نفسها: كيف لم تعرف شخصيته من قبل؟ كانت قد قرأت له كتابين واستمتعت بهما، خاصة أنه يمتلك بتنقلاته صافية في أسلوبه بحيث يشعر الإنسان الذي يعضاً ساعات في القراءة بأنه مسافر معه فعلاً، في الصحاري، ومع الرعيان في الجبال. لم تكن تتصور هذا الأمر. هذا الرجل هو «كالوم كيل». من السخرية أن يتهمها باستعمال اسم مستعار بينما هو يختبئ خلف شخصية أخرى. هناك اختلاف بالتأكيد، فاسم المستعار كان لأغراض الكتابة. ولعل هذا هو السبب الذي جعله حساساً تجاه أسماء الآخرين. مدت «فانيسا» يدها للتناول قطعة من الحلوى وهي تسأله عما إذا كان بإمكانها الهرب. بدأت تحس بأنها مقيدة في هذا البيت، لذلك قررت الذهاب في نزهة قصيرة، خاصة أن الأمسية دافئة ومحمرة ومنعشة.. وهي تحتاج في جميع الأحوال إلى مجال لتقليل أمورها. وبينما هم يغادرون غرفة الطعام سالت جدها قائلة:

- أرغب في القيام بنزهة قصيرة حتى الباب الخارجي، فهل هناك مانع؟

- بالتأكيد لا، اذهبي حيث ترغبين.

- شكرًا لك، أنا محتاجة إلى بعض الحركة، والأمر مناسب في هذه الليلة. سوف أصعد لإحضار معطفى الربيعى. ولم تنتبه، عندما استدارت خارجة، للنظرية التي وجهاها جدها إلى «كال». سارت نزولاً باتجاه الباب وهي تستنشق بعمق النسيم المائي المنعش. قسم من المطر كان مظللاً بأغصان الشجر، أما القسم الثاني فقد زينته الزهور المنوعة. ما حدث لها كان الأسوأ، ومن غير المتوقع أن تقع أشياء أكثر سوءاً. لقد بدأت طاقتها تخفت بالتقريج وزاد توترها العصبي، كما تلاشت شهيتها حتى للأطباق اللذيذة التي تعدتها السيدة «بانكس». الآن، وقد أصبحت بعيدة عن البيت، يمكنها أن تفكر بهدوء و موضوعية. ففي الداخل كانت الضغوط تزيدها توبراً، خاصة في وجود «كال»، وجدها الذي تبين لها يوماً بعد يوم أنه ليس الرجل القاسي الذي وصفه لها أبوها. صحيح أنها لاحظت عنده نزعة إلى القسوة في بعض الأحيان، لكنه إجمالاً الرجل الحنون والمحب واللطيف. لقد اهتم بها يوم الأحد بحيث ظل مع «موظفته» يروي لها القصص الطريفة عن أسفاره وأعماله ويرفع عنها على حساب أعماله الخاصة. هذا الجانب من شخصيته بالإضافة إلى شيء، عدته دائمًا إلى تناصيه وطمسمه أدبياً إلى تغيير نظرتها. لقد كان أبوها ضعيفاً وغبياً... والآن محتالاً أيضاً. وصلت إلى الباب الخارجي وتوقفت عنده، ثم أطلقت نظرها إلى الطريق المترعرع المتدكشريطي رمادي يلتف حول التلال والوديان. وعلى تلك بعيد... التمعت مساحات من الثلوج الناصع. ركزت «فانيسا» عينيها في هذه المساحات دون أن تراها بالفعل... وأخذت قرارها النهائي. يجب ألا تكتفي بالهرب. عليها قبل ذلك أن تكتب إلى جدها رسالة تخبره فيها بالخدمة الخبيثة التي خططت لها انطلاقاً من فكرة الانتقام الخاطئة. إنها مدينة له بهذا الإيضاح. وسوف تنهي رسالتها بطلب المغفرة منه دون أمل في الحصول عليها. ليست هي ابنة أبيها؟ ألم يخدع أبوها أباً أيضاً؟ فـ«أندرو ماكلين»، لا يمكن أن يقبل حقيقة توسر على النهج الخاطئ. حبسـت دمعات حارة في عينيها. لا بقاء بعد اليوم، فقد انت Hibit بما فيه الكفاية. «كال غرين» سيشعر بالارتياح، لأنه كان محقاً حول

- كلا يا «لوري» أنا آسفة، هل لك أن تقوم بالتسجيل بدلاً مني اليوم؟ ابتسם بهدوء:

- يظهر أنك تريدين تدريبي؟

- أنا آسفة. لم أقصد أن يبدو الأمر كذلك. آه يا «لوري» إبني حاثرة وضائعة. وضعت يدها على خده، فتقدم منها قائلًا:

- أرجوك يا «فانيسا»، أرجوك لا تحزنني. لا يمكن أن أقوم بأي شيء... أي شيء لمساعدتك؟

- لا، لا يمكنك عمل شيء. فكرت في الرسالة المكتوبة والمح拓مة في درج طاولتها، والتي تنتظر التسليم عندما يحين الوقت. رفع «لوري» ذقنها بأطراف أصابعه بحركة شبيهة بحركات «كال»، وقال:

- لا أظنك ستقدمين على البكاء الآن؟ لاحظت تعابير وجهه القلقة فقالت على الفور:

- لا، أبداً هي تعرف أنها غير قادرة على البكاء حتى لو أرادت.

- الحمد لله. مر يده العريضة خلال شعره الكث وقال وهو ينهض بارتياح واضح:

- ما رأيك لو أحضرت لك فنجانا من القهوة أو الشاي؟

- يا إلهي! السيدة «بانكس» سوف تقم الأرض ولا تغدها!

- أعرف ذلك، لكنني مستعد لإغضابها ومواجهتها إذا رغبت في فنجان.

- لا أريد ذلك. فقد تناولت فطوري قبل قليل. كانت الوجبة مرعبة فعلاً، إذ تواجدت هي و«كال»، وحدهما حول المائدة. هو بيروده وهدوئه ونظراته الحادة، وهي بأفكارها وشروحها... والنتيجة أنها لم تأكل سوى قطعة صغيرة من الخبز. فقد كانت متوترة الأعصاب بحيث إنه لو أثار أي موضوع لتركت المكان على الفور. لكنه لم يفعل، لعله لاحظ مزاجها المتعكر ورأى المرأة التي تملؤها والتي لا يمكن أن تنتهي إلا بعدما تركب سيارتها وتغادر هذا المكان دون عودة.

- حسناً. إذا أردت فنجانا فقط قولي لي. فمن أجلك أنا على استعداد لمقاتلة الأسد... أقصد الليو.

شخصيتها. وعلى الرغم من كل شيء تساءلت «فانيسا» عما إذا كان سيرتاح فعلًا. كان يبدو على «كال» الإعجاب الشديد بـ«أندرو ماكلين». وفي حال إقدامه على الزواج بهيشر، وإقادم «أندرو» على الزواج بـ«آن ماكري»، فإنهما سيصبحان ذوي قرابة. شدت «فانيسا» قبضتها على خشب الباب وهي تستعيد منظر الأربعية في غرفة الطعام. كانوا يتحدون ويضحكون ويقسمون بينما هي الغريبة بينهم. استدارت عائنة إلى البيت. لعل «هيشر» بدأت الآنأخذ دروس في الجودو، ولكن «فانيسا» لم تتصور أنها ستسمح لشعرها المصفف بعنابة أن تتبعثر الحركات والسقطات. وكيف يمكن أن ترتدي بزة التدريب على حساب الفساتين الأنثوية الباهظة؟ ارتسمت على شفتي «فانيسا» ظلال ابتسامة وهي تتصور المشهد، لكن المؤسف أنها لن تكون هناك لتشاهد نفسها... فثلاثت البسمة بسرعة. أسرعت عائنة إلى البيت... وبعد أن حزمت أمراها حول الرسالة، عليها أن تكتبه بأسرع وقت ممكن. كانت الأضواء تششع في معظم غرف المنزل. توقفت «فانيسا» للحظات تتأمل هذا البيت الكبير الهادئ. لا غرابة في أن «كال» قدّه لإنجاز كتابه، فإية أجواء أفضل يمكن أن يتوقعها المؤلف؟ ولا غرابة أيضاً في أن جدها يعود من أسفاره دائمًا - كما أخبرها يوم الأحد - وشعور بالراحة والسعادة يملؤه فور رؤية البيت. إنها تدرك الآن ما قدّه من خلال الجو العابق بالسكينة الذي يحيط بالبيت من جميع جوانبه. عفت شفتها السفلية بشدة. فالقدر يمكن أن يكون قاسياً في بعض الأحيان. لقد أعطتها لمحه عدماً سيكون. والآن عليها أن ترحل بعيداً... ولابد من ذلك سريعاً. واصلت سيرها إلى المدخل الرئيسي، صعدت الدرجات الحجرية وفتحت الباب على مصراعيه... فسمعت الرجلين وهو يضحكان لشيء ما في البهو. ركضت «فانيسا» إلى غرفتها وتناولت قلماً ودفتر الرسائل والأظراف واستعدت للكتابة.

جاء «لوري» يوم الخميس كعادته بعد التاسعة بقليل. نظر إلى «فانيسا» فور دخوله المكتبة وقال:

- ألم تغيري رأيك بعد؟ هزت رأسها بالنفي:

- شكرًا لك يا «لوري»، فأنت لطيف جدًا. استدار بحبيه، قائلاً:

- من الأفضل أن نبدأ العمل. فماذا سنفعل الآن؟

- سأعيد ترتيب هذه الكتب حسب التسلسل. وأشارت بإصبعها إلى مجموعة من الكتب التي سبق لها أن سجلتها. بدأ العمل الذي يقومان به يعطي ثماره، وكانت تشعر بالارتياح وهي ترى الكتب مرتبة في أماكنها. خلال أسبوعين سيكون كل شيء على أتم وجه في المكتبة... لكنها لن تكون هنا لتزكي اكتمال ما قد بدأت فيه. غاص قلبها في صدرها عندما خطرت لها هذه الفكرة: ««لوري» سيكون هنا أما أنا فلا». أسرعت إلى العمل في محاولة لطرد هذه الأفكار المؤلمة. وهكذا مضى الصباح متباينا دون أن يكون لهذا اليوم أي معنى. فجدها «كال» سittناولان العشاء في الخارج، أما هي فستحضر لها السيدة «بانكس» الطعام إلى غرفتها... وهذا الترتيب يناسبها تماماً في هذه الظروف. لو أنها تستطيع أن تأكل دائماً في غرفتها، حتى لو وجدت السيدة «بانكس» ذلك متعباً وغريباً. وضعت الكتب التي كانت تحملها في مكانها والتقت إلى «لوري» الغارق في عمله بجد ونشاط. أحسست ببعض العزاء لأنه استطاع أن يستوعب العمل ويقوم به على أفضل وجه. ومن الأكيد أن جدها كان سيطلب منه ترتيب المكتبة لو أنه عرف سلفاً قدرته على ذلك.

كان بعد الظهر هادئاً بغياب «لوري». أنهت «فانيسا» عملها في حدود الخامسة، ثم أقتلت نظرةأخيرة على المكتبة قبل أن تتجه إلى غرفتها. تسائلت كيف ستكون العلاقة بين «كال» و«لوري» عندما سترحل هي. ربما أحلاها بضرورة لا يتدخل في شؤون بعضهما البعض. لاحظت مرة أخرى الرف الذي سحب منه «كال» الكتاب قبل مدة، هناك الكثير من الكتب للقراءة، لكنها وجدت نفسها راغبة في قراءة أحد كتبه على ضوء اكتشافها لحقيقة وشخصيته.

خرجت من المكتبة وأغلقت الباب خلفها بعدها ثم أسرعت إلى غرفتها. كانت غرفة «كال» تقع في الجهة الأخرى من الممر، ومنها سمعت صوت ضربات الآلة الكاتبة، وهو الصوت الذي تردد كثيراً خلال الأيام الماضية. ثم تجاوزت الممر ودخلت إلى غرفتها. عندما بدأت نشرة أخبار الساعة السادسة مساءً على

شاشة التلفاز، سمعت الرجلين يغادران البيت. وبعدهما، تأم توجهت إلى المكتبة لترى جدها يدخل في سيارة «كال»، «الجاجوار»، ثم أقلعا معاً باتجاه الطريق الرئيسي.

بعد ساعة ستحضر لها السيدة «بانكس» عشاءها المكون من وجبة خفيفة، خاصة أن الرجلين غائبين. وعلى كل فإن شهيتها للأكل خفت كثيراً خلال الأيام القليلة الماضية. انحنت على المكتبة تراقب السهول الممتدة حتى الأفق وقد غرق قلبها في لجة الحزن العميق. عاد إليها وجه السيد «مورتون» الراهن لخططها فتخيلت نفسها أمامه تعرف له بقليلها، فهي مدينة له بذلك على الأقل. بعد ذلك ستترك شقتها الخاصة في «لندن»، بل ربما تغادر «لندن» كلها، إلى خارج البلاد... فهي لم تعد تحتمل حياة القلق بعد الذي جرى لها هنا. أحسست ببرودة إطار المكتبة تلسع رأسها فتساءلت عما إذا كانت ستصاب بالرشح أو الإنفلونزا. كان جسدها متعباً، ووجهها ملتهباً بالحرارة الشديدة مع أن موجة من البرودة كانت تسري في أوصالها. ابتعدت «فانيسا» عن المكتبة، فوقيع عينيها على كتاب «كال»، تناولته وأفقلت جهاز التلفاز ثم أقتلت نفسها على المهد الوثير. أعجبتها المقدمة التي تحدث فيها عن كيفية تحويله سيارة «لاندروفر» إلى بيت على عجلات، واستعمالها في رحلة طويلة إلى مجاهل إفريقيا. أعجبتها، لأن الكتاب ليس مجرد رقم على أحد الرفوف، بل هو من تأليف الرجل الذي أتقنها من اثنين من الرعاع... والذي يشك فيهما ولا يحبهما. توقفت «فانيسا» فجأة عن القراءة وقلبت الكتاب لتعيد التأمل في الصورة المنثورة على الغلاف الآخر. إنه يبدو مختلفاً في اللحية، ومع أنها لم تعجب به إلا أنها اعترفت بأن اللحية تناسبه تماماً. أحسست بعينيه، حتى في الصورة، وهو ترمقانها وتسخران منها بغموض شديد. تنهدت بعمق وأعادت فتح الكتاب على الصفحة التي كانت تقرؤها. ومع ذلك ظل خيال المؤلف يهاجمها بالحاج على الرغم من أنها بذلك جهداً للتركيز في الموضوع. لقد لمسها صاحب الكتاب واحتضنها، بل وعلمها كيف تسقط بأمان... كما أنه كان لطيفاً في أحيان قليلة. وأحسست «فانيسا» بدفع، يتدفق في كل جسدها وهي تتذكر ذراعيه

القوتين وعينيه الحادتين.... أغلقت الكتاب بعنف وتوجهت مرة أخرى إلى النافذة. ودون أن تدري أحسست بأصابعها تلامس شفتيها. لقد عانقها بقوة... إنه الرجل الأول الذي يفعل ذلك دون أن يbedo عليه التأثر. وعلى امتداد نظرها ترا مت الحدائق والسهول لتتفق في النهاية على اعتاب تلال رمادية اللون مكللة بالثلوج البيضاء التي لن تذوب أبداً، لأن الحرارة هناك لا يمكن أن ترتفع إلى الدرجة التي يذوب فيها الثلج. سمعت قرعاً على الباب فاستدارت لاستقبال السيدة «بانكس»، وارتاحت لأنها جذبتها من أفكارها المتضاربة. وبعد أن تناولت الطعام بدا لها كأن الليل يتمطى إلى ما لا نهاية. ولترير الوقت، انزلت صينية الطعام إلى المطبخ ثم عادت لتشاهد مسلسلاً كوميدياً يعرضه التلفاز... وظلت هكذا حتى حان موعد الأخبار. أدركت أنها لن تستطيع النوم بسبب فكرها المشوش، لذلك قررت القيام بنزهة قصيرة في المساء البارد والمنعش، لعلها تتعب نفسها قليلاً فتعود إلى النوم فوراً. ارتدت «فانيسا» معطفاً صوفياً ثقيلاً، وأطفأت جهاز التلفاز ثم خادرت المنزل. في الخارج كان الهواء بارداً ومنعشًا. سارت حول المنزل باتجاه المدخل الخلفي، ثم نهاية الممر الذي أصبح أكثر حلاوة. توقعت أن تصلك إلى موقف سيارات البيت إذا ما أكملت سيرها بالاتجاه نفسه، وبعد دقيقة شاهدت مجموعة من البيوت المسقوفة التي كانت في يوم من الأيام إسطبلات للخيول. كانت مواقف السيارات مضاءة بنور ساطع معلق على سطح أحد البيوت. وقف تحت النور تتأمل المكان. شاهدت سيارتها خلف باب نصف مغلق، وإلى جانبها مكان خال حيث توقف سيارة «كال»، عندما يكون في البيت. وتساءلت عما إذا كان الرجلان سيتاخران في العودة. هل يفهمها هذا الأمر فعلاً؟ واستغربت كيف جاءها وجه «هيثر» الجميل وعلى ثغرها تلك الابتسامة الموجهة إلى «كال». حتى «فانيسا» خطواتها مسرعة، وقد صدمت على اكتشاف نهاية هذا الممر قبل مغادرة البيت. وكلما توغلت في الممر، كانت الأشجار تزداد كثافة، والطريق يتعرج ويضيق، والظلام يشتد حلاوة. ولم تكن تسمع سوى وقع خطواتها على الحصى... وزقة عصافور أزعجه وجودها في ذلك الوقت. وأخيراً وصلت «فانيسا» إلى البحيرة. كانت

صغريرة المساحة وفي وسطها جزيرة متصلة بالبر بجسر خشبي جميل تزييه صخور رصفت بشكل هندي بديع. وعادت إلى ذهنها صور غامضة عن مكان معين حدثها عنه أبوها كصالة أمضى فيها طفولته الجميلة. لا شك في أن هذا هو المكان. البحيرة والجزيرة ملعب خصب لخيلة طفل غض. طفرت الدموع من عينيها، لأن الذكرى أعادت إليها كل الماضي بأحزانه وألامه. اقتربت من الجسر حتى وطلت عقباته الأولى. الخشب عتيق ويحتاج إلى دهان جديد، لكنه ما زال صالحًا للاستعمال. جربت بقدمها قدرة الخشب على الاحتمال، فسمعت صريره في سكون الليل الدامس... ومن مكان ما حمل الصدى نعيق يوم بعيد. استدارت مبتعدة عن الجسر. لن تقدم على زيارة الجزيرة الليلة، لعلها تفعل غداً ولكنها تدرك في قرارها ذاتها أنها لن تطأها أبداً، لا اليوم ولا غداً... ولا بعد غد. وفي مكان مطل على البحيرة عثرت «فانيسا» على مقعد خشبي تظلله نباتات عالية. جلست عليه لتراقب بعض الزهور التي أينمت أزهارها على سطح البحيرة الساكن. ووسط السكون الطاغي انهمرت ذكرياتها بشكل ملح، ذكريات عن والدها عندما كانت أصغر سنًا وأكثر انطلاقاً وفرحًا... هكذا تصورت تلك المرحلة التي كانت تعتقد أنها أفضل سنوات حياتها. وبعد ذلك جاءت المأساة التي دفعت «فانيسا» إلى هذا المكان سعيًا إلى الانتقام. لقد انتهت الرحلة تقرباً إلى القشذريع. وحيدة؟ صحيح أن لديها العديد من الأصدقاء من الجنسين، لكن هؤلاء كلهم لا يحلون المشكلة. فهي قد سُمِّت من الاستقلالية المطلقة وباتت تحتاج إلى من تعتمد عليه. خيمت الوحدة على عينيها ووجهها وهي تحدق إلى الظلام اللامتناهي. وفي هذه الأثناء، بدأت نجوم ستفرقة تلمع في السماء الصافية وقد أزدادت بروادة الهواء. لم تشعر «فانيسا» مرة في حياتها بالوحدة والضياع كما تشعر الآن. داهنتها موجة مفاجئة من البكاء واليأس فدفت وجهها بين راحتيها وأخذت تتنحّب بصمت. كانت على هذه الحال عندما عثر عليها «كال»، بعد عدة دقائق. لم تره في بادئ الأمر، بل لم تر شيئاً، لأن عينيها كانتا غائبتين خلف راحتيها المتمسكتين. وعندما شاهدته، رأت على وجهه تعابير جدها نفسها عندما عثر عليها وهي تتنحّب في غرفتها.

تهذلت كتفاها باعيا، حتى بدت وكأنها ستمهار تحت وطأة الهم والتعب، في حين وقف «كال غرين» قبالتها يراقبها بصمت واهتمام دون أن يبدي وجهه أية تعابير أخرى، وكأنه يرتدى قناعاً، وأخيراً تقدم منها ولمس كتفها بلطف:

- «فانيسا»؟ نظرت إليه فزعة وقالت:

- ارحل عنِي! خرجت العبارة من فمها دون أدنى تفكير، إنها لا تريده الآن، بل لا تريده أي إنسان في هذه اللحظات. لكنه موجود إلى جانبها سواء أرادت أم لم ترد.

- لن أرحل. لقد تأخر الوقت وخيم الظلام، وربما ضاعت في الحدائق! تضيع يا له من تعبير طريف! لو أنه يعرف فقط كم هي ضائعة فعلاً.

- لا أريد الذهاب. أنا أعرف طريق العودة وحدي. فدعني على انفراد، أرجوك. نظرت إليه مباشرة غير مبالية بما يمكن أن يلمسه في وجهها. لا شيء يهم الآن، فقط تريده أن ترحل بعيداً... بعيداً.

- هنا بنا، فالبرودة أصبحت قاسية وقد بدأت ترتجمين. كانت ترتجف بالفعل مع أنها لم تحس بذلك. مررت راحتها على ذراعيها فشعرت بقشعريرة البرد. وبينما هي كذلك سمعت حفيظ قطعة ثياب. ثم شعرت بدق سترته السميك على كتفها. مدّت يدها تلامس السترة الجلدية وهي تقول:

- لكنك.

- أجل، ويمكن أن أظل الليل كله في هذا المكان مرتدياً قميصي فقط. فهلا أتيت معي؟ وجدت «فانيسا» نفسها واقفة على قدميها دون أن تدرى ما إذا كان قد ساعدتها على النهوض أم أنها استطاعت ذلك بمفردها. سارا باتجاه البيت وقد عاد الدف، يسرى في جسدها وقد شدت السترة بيديها الاثنين. قالت بعد لحظات من الصمت التثبيط:

- شكراً لك لأنك أغرتني السترة. نظرت إليه وهو يسير إلى جانبها في حين ظهر قميصه الأبيض واضحًا في ذلك الظلام الحالك:

- لكن هل أنت متأكد...؟ قاطعها قائلاً:

- أنا لا أتأثر بالبرد. ومد يده ملامساً يدها وأضاف:

- هل تشعرين؟ كانت يده دافئة. لم تستمر اللمسة إلا لحظات قليلة، لكن «فانيسا» ظلت تحس بدقفها حتى بعد أن سحب يده... ثم انتقل هذا الدف، بسرعة بحيث شعرت بأن جسمها كله يشتعل. وقالت بسرعة في محاولة لإخفاه اضطرابها:

- لم أعتقد أنك ستعود باكرا!

- كلا. نحن إجمالاً لا نعود باكرا، لكن السيدة «ماكري» لم تكن على ما يرام لذلك... ثم توقف. وفكرت «فانيسا» بسرعة: من الأكيد أن «هيشر» لم تكن مسروقة لذلك. وغير مجرد الحديث قائلاً:

- لم يكن النور مضاءً في غرفتك، وقد أبلغتنا السيدة «بانكس» أنها سمعت تغادرين البيت منذ مدة طويلة. هل صحيح أنها أمضت زمناً طويلاً في الخارج؟ لقد بدا لها أن الوقت لم يكن سوى لحظات فقط.

- لذلك فكرت في أن ألقى نظرة لأرى ما إذا كنت قد ذهبت بسيارتك، ولها وجدت السيارة في مكانها تأكّدت من أنك في نزهة ليلية.. وهكذا وجدها. لم يكن هذا هو «كال» الذي تعرفه. شيء ما غير عادي موجود في تصرفاته، لكن «فانيسا» لم تستطع أن تحدد بأي شكل هو مختلف. لقد أحست بالتغيير، وظلت حائرة حتى أتوت إلى فراشها فبدأت تعيد رسم الصورة بوضوح. بعد ساعة كانت تجلس في فراشها تتناول فنجاناً من الشوكولاتة الساخنة، استعادت رحلة العودة مع «كال» من البحيرة، وفكّرت فيها بهدوء وروية. لم تكن قادرة على أن تفعل ذلك عند وصولها، لأن جدها كان بانتظارها قلقاً، وفور رؤيتها قال:

- هانت قد رجعت. هيا ادخلني يا عزيزتي... هيا ادخلني.. واحتضنها بين ذراعيه وأدخلها إلى الصالة. ولسوء حظ «فانيسا» زاد هذا التصرف الأبوي من حدة أفكارها المتناقضة فيما يتعلق بال موقف من جدها كما هو في الواقع وكما رسمه لها والدها من قبل. تمكنت من الانسحاب بعد قليل مدعية بأنها متعبة، وطلبت منها الإذن بالانصراف، فأذنا لها. لكن تعابير «كال» ظلت مسيطرة عليها حتى وهي مستلقية في فراشها الآن تشرب فنجان الشوكولاتة اللذيذة التي أعدتها السيدة «بانكس». إنها تدرك مغزى التغيير الذي حصل،

لقد كان يتصرف بطريقة مختلفة تماماً، بل إنه ينظر إليها بأسلوب مختلف عن تلك الطريقة الباردة التي كانت تشعرها بعد الارتياب. كان كمن اكتشف شيئاً جديداً. لكن ما هو هذا الاكتشاف؟ وظل السؤال يحير «فانيسا» لفترة من الوقت، ثم جاءها الجواب ومعه الشعور بالانزعاج: «لا شك في أنه عرف من هي في الواقع!» وضعت الفنجان من يدها خوفاً من أن تسكبه على نفسها بفعل الاخطاء. «آه يا ربي» نطقت هذه العبارة بصوت عالٍ رغمها عنها، إنه يعرف. لم تكن تعلم كيفية اكتشافه للحقيقة، لكنها تأكدت الأمر، ولهذا السبب عليها أن ترحل في أسرع فرصة، عليهما أن تقادر «دينستون هاوس» إلى الأبد.

## - 8 -

استعادت «فانيسا» هدوءها في صباح اليوم التالي؛ وتوجهت لتناول فطورها وهي على أتم الاستعداد لكل الاحتمالات. لو أراد «كال» أن يثير موضوع شخصيتها مجدداً لكان فعل ذلك مساءً أمس عندما كانت ضعيفة ومنهارة وقابلة للهزيمة، لكنه لم يفعل. هل يعني ذلك أنه يخين المعركة إلى وقت لاحق؟ لم تجد «فانيسا» جواباً، الشيء الأكيد أنها يجب أن ترحل بسرعة. لذلك ستقادر «دينستون هاوس» غداً السبت، بعد أن تضع الرسالة بشكل تستطيع السيدة «بانكس» أن تغير عليها فوراً. وخلال النهار، راقت «فانيسا» «لوري» وهو يعمل في المكتبة فهي ترید أن تتأكد أنه قادر على إتمام العمل على الوجه الأكمل قبل مغادرتها. لن تخبره بموعده رحلتها، لكن وداع الغداء هذا اليوم سيكون الوداع الأخير دون أن يدرى. كان مرحباً كعادته وأكثر، وكأنه أراد أن يبعد عن فكره حقيقة كونها راحلة. وعند الساعة الحادية عشرة تناولاً القهوة معاً. وقد كان من الواضح أن «لوري» يمتعن بعمله؛ إذ إنه ممضى في حديث لا ينتهي عن الكتب ومحفوبياتها وسجلاتها. ارتاحت «فانيسا» لهذا الجو، لأنها لن تضيف عقدة ذنب جديدة بسبب المكتبة إلى العقد العديدة التي تشعر بها حالياً. عند الساعة الواحدة نظر إلى ساعته وانتصب واقفاً وهو يقول:

- حسناً سأذهب الآن، فعلّي إنجاز بعض الأعمال في الحديقة. إنني أحب هذه الحياة: المكتبة... وأنت عند الصبح، والحدائق بعد الظهر. ابتسمت «فانيسا»:  
 - أنا مسؤولة لذلك. فقط أستغرب كيف أنك لم تكتشف قدرتك في هذا العمل قبل الآن وتتقدم له... فأنت قادر عليه أفضل مني؟ هز رأسه قائلاً:  
 - مستحبيل. فما كنت لأقبل العمل في المكتبة أساساً لو لم ألتقي بك في المر ذلك اليوم. ابتسامت:  
 - شكرًا لك يا «لوري»، ووداعاً. وكانت ترید أن تضيف شاكراً إيهاه على المساعدة التي قدمها، لكنها خشيّت أن يشك فيها، لذلك اكتفت بالصمت وراقت به وهو يتجه نحو الباب. قال:  
 - سأراك إذن يوم الاثنين... وأغلق الباب قبل أن تهمس:  
 - لا... لن تراني بعد اليوم. انتظرت في المكتبة للحظات كي تتأكد مغادرته البيت، ثم خرجت بدورها. كان «كال» بمفرده في غرفة الطعام، فأخذت «فانيسا» نفساً عميقاً واتجهت إلى مقعدها:  
 - أرجوك.. لا تزعج نفسك بال الوقوف. نطقت بهذه العبارة عندما حاول الوقوف ليرحب بها. جلسّت وهي تنظر إليه ببرود، إذ إن شيئاً ما تغير في علاقتها بعد أحداث الليلة الماضية قرب البحيرة. كانت تتوقع أن تشعر بالخوف من الحقائق التي يعرفها، ولكن لاستغرابها الشديد لم تخف، ولم تعرف السبب في ذلك. فكرت وهي تتناول الحساء: «لعل السبب يمكن في أنها ستغادر المكان قريباً ولن تراه بعد ذلك أبداً». وقفت يدها بملعقة الحساء قريباً من فمهما. لن تراه أبداً... أبداً! ثم نظرت إلى أعلى وتساءلت بصمت: «هذا أغبر وقت ممكن أن يكتشف الإنسان أنه يحب الشخص الذي اعتقاد أنه يكرهه». أعادت الملعقة إلى طبق الحساء، فنظر «كال» إليها قائلاً:  
 - ما الأمر؟ هل الحساء سيئ؟  
 - كلا، كلا.. فقط.. كم سيبدو الأمر مضحكاً إذا أبلغته الحقيقة وقالت في نفّها: «لقد أدركت لتوي أنني لا أكرهك أبداً، بل أعتقد أنني أحبك كثيراً».

تأمل الطبيعة لاختزان بعض جمالها للأيام الصعبة الآتية. إن قلة من الناس يقصدون هذه الناحية. إلى اليسار منها تناولت مستنقعات وبحيرات لا حصر لها، أما إلى اليمين فقد كانت التلال موزعة دون ترتيب. أعجبت «فانيسا» بعزلة هذه المنطقة عن العالم، وتساءلت عن كيفية العيش بعيداً عن كل الناس، وسط الأشجار والنباتات والمياه والتلال التي تعطيبها الثلوج في معظم أشهر السنة. عبرت المر باتجاه ساحة خضراء قريبة، ثم أوقفت محرك السيارة. خيم صمت شامل لم يقطنه سوى صوت المذيع... قبل أن تسكته «فانيسا» أيضاً، وتبدأ نزهتها على التدمين. تريد أن تفك في الاكتشاف الماجني الذي داهنها بشأن مشاعرها تجاه «كال»؛ إذ حتى الموسيقى كانت تتآمر عليها، فالأغنية العاطفية التي كان يبئها المذيع انسابت بموسيقى شجيبة آسرة بحيث لم تستطع «فانيسا» إلا أن تتذكر «كال» عندما جاءت كلماتها التالية: «لكن لماذا أحبك؟ أتمنى لو أستطيع الهرب من قسوتك وجفانك»... لذلك أسلكت المذيع ينزو وأغلقت باب السيارة خلفها بقوة. إنها مصادفة. همست لنفسها تردد كلمات الأغنية «لكن لماذا أحبك؟». لم تستطع مقاومة وجه «كال» عندما طفى على مشاعرها وأفكارها، والصورة التي عادت إلى ذهنها هي صورته، اللقاء الأول في المقهى حين رفع عينيه عن الصحيفة واحتلنس نظرة خاطفة إليها، وكذلك صورته عندما تغلب على الشابين بسهولة عجيبة، ثم تقاشهما الحاد في أكثر من مناسبة. وتذكرته لطيفاً في عناقه، قاسياً في ت Saulاته اللحة، وأخيراً الاهتمام البالغ كما حدث اليوم. ولكن الحدث الأهم كان مساء أمس عندما أحست بدفعه سترته تلامس كتفيها البارديتين. كان طريق العودة إلى البيت مختلفاً تماماً أمس، والآن فقط أدركت لماذا. فلا شك في أنه عرف الحقيقة. أخذت نفساً عميقاً وجلست على أطلال حائط زراعي مهدم ثم مدت يدها إلى نعجة كانت تراقبها بخوف. همست لها: «تعالي!»، لكن النعجة هزت رأسها واستدارت بعيداً. الصمت في كل مكان. ومن بعيد كانت تأتي بين الحين والآخر أصوات بعض الحيوانات. لا سيارات ولا ناس، فقط سكون هذه الأممية الصيفية الدافئة التي كانت نقطة تحول في حياة «فانيسا». فلم تكن

وتخيلت الفحكة المجلجلة التي سيطلقها عند سماعه كلامها.. لذلك قالت: «لا أريد هذا الحسام! أما هو فقد رفع حاجبيه استغراباً. لكنك منذ مدة لا تأكلين أي شيء. هل أنت مريضه؟» لا.. لست مريضه. وأضافت لنفسها بابتهاه: «أرجوك دعني وحدى... أرجوك دعني وحدى». الآن فقط عرفت سر حفظها لتفاصيل وجهه الكاملة منذ اللحظة الأولى التي طالبها فيها بمعرفة اسمها. لم يعد في اليد حيلة، عليها أن تعيد النظر إلى ذلك الوجه ذي الملامح الداكنة، المليء الآن بالقلق. «كال» قلق؟ من الصعب أن تصدق، لذلك قررت مغادرة الغرفة. وفجأة: «أرجوك أن تعود إلى غرفتي، أرجوك أن تعذرني وتبليغ السيد «ماكلين»... وكادت أن تقول جدي دون وعي: «بلغه أنني متيبة قليلاً. وخطت باتجاه الباب دون أن يحاول «كال» إيقافها أو حتى النطق بكلمة واحدة. وشكرت «فانيسا» ربهما، لأن «كال» لم يحاول منها، فلو فعل لكانت انفجرت باكية. انتظرت حتى سمعت جدها يدخل إلى غرفة الطعام، فتسلى من غرفتها وغادرت البيت. سارت دون هدف، فقط تريد الابتعاد عن المنزل لفترة قصيرة. أسرعت إلى موقف السيارات فوجدت الباب مفتوحاً و سيارتها تنتظر. عبّقت أصابعها في حقيبة يدها حتى عثرت على مفاتيح السيارة، ثم عبرت بسرعة إلى الموقف، لم يدر محرك السيارة في بادئ الأمر، إلا أنه زenger أخيراً بعد محاولات عدّة. إنها تحتاج إلى نزهة قصيرة تعيد الوضوح إلى ذهنهما والطمأنينة إلى نفسها، هي تعرف إلى أين تقصد. فالطريق يمتد متعرجاً بين التلال باتجاه ما كان في الماضي قرية صغيرة منعزلة. أما الآن فلم يعد هناك إلا جدران شبه مهدمة صارت مأوى للقطط蔓 عندما تهب الرياح العاصفة. صحيح أن المنطقة خالية جداً إلا أنها تبعث الطمأنينة في النفس. قادت سيارتها باتجاه الباب الرئيسي، فاللقيت بـ«لوري» الذي لوح لها بيده. ربما من الأفضل أن تكتب إليه كلمة قصيرة، فهذا حق الصحابة عليها. سار الطريق متعرجاً في ذلك المساء البارد المنعش، فأنزلت «فانيسا» شباك سيارتها تاركة الهواء ينساب ناعماً على وجهها وشعرها. حان وقت

تصور نفسها في علاقة حب، ولم تكن تتصور أنها ستتمنى إلى رجل ما وتحسن هذا الخدر الذي ينشأ عن الشعور بالحب.

يا إلهي ! كم كنت غبية ! أطلقت هذه الصيحة بصوت عالٍ مطمئنة إلى أن أحداً لن يسمعها. منذ انطلاقها من «لندن» إلى «اسكتلندا» وهي تتساءل عما إذا كانت ترتكب خطأ جسماً بمعامرتها هذه. والآن جاء الجواب بالإيجاب؛ إذ بعد أن التقت جدها وتعرفت إليه ولو بشكل غير كامل، فإنها حصلت على صورة أشمل من تلك التي قدمها لها أبوها. نظرت «فانيسا» إلى أحد البيوت المجاورة دون أن تستطيع الرؤية، فقد كانت أفكارها مع والدها الذي أحبته بجنون... والذي أدرك الآن أنه ارتكب أخطاء وسيئات مثل أي إنسان آخر، ولربما أكثر من أي إنسان آخر. وأكثر ما آلمها معرفتها بأن الإنسان الذي أحبته بعمق ليس كاملاً. عليها أن تتلف الورقتين الشاهدين قبل رحيلها؛ وذلك من أجل أبيها وجدتها على حد سواء. ثم ستبني حياة جديدة بعيداً عن آلام الماضي، والزمن كفيل بالجراح العميق، وستجد بعد حين أن «ديفينتون هاوس» والناس الذين يعيشون فيه ليسوا سوى ذكري لا تتحرك في نفسها شيئاً. ربما... وقفت «فانيسا» فجأة واستأنفت السير.. ما تحتاج إليه الآن أن تهتم على وجهها في الريف دون هدف ودون إزعاج من أحد. خافت في الحقول الخضراء الندية وهي تشعر بسعادة غامرة لاحتياكها بالطبيعة الهادئة الجميلة، وابتعدت عن الطرق المطرقة فلم تعد تجد إلا الأشجار والصخور وبعض الأغنام التي ترعى في ذلك الريف المنعزل. ظلت تصعد التلال حتى وصلت إلى جدول مائي ينحدر عذباً رقراقاً وقد انعكست عليه أضواء المساء الخافتة. وقفت «فانيسا» قليلاً وأخذت تربط يديها ووجهها بالملاء البارد المتعش، ثم شربت بعض قطرات منه... وتابعت مسيرتها. ازدادت الأشجار كثافة، ولاحت أمامها بداية غابة واسعة من أشجار الصنوبر والسنديان. عما قليل ستدخل هذه الغابة الغامضة وتضيع في لانهائيتها. دخلت بين الأشجار المتتشابكة فأحسست بالبرودة تشد بحبيت أخذت ترتجف، لكنها وصلت تقدمها وكأنها مسحورة بالخبرة الطاغية المحيطة بها وبصوت تكسر أغصان الصنوبر اليابسة تحت قدميها.

الهواء مليء بالرطوبة الباردة، فالشمس لا تصل إلى داخل الغابة بل تكتفي بلامسة رؤوس الأشجار التي تزداد تطاولاً وضخامة. وقفت «فانيسا» في مكانها لحظة وأطلقت نظرها إلى أعلى، حيث جذوع الأشجار تمتد وتمتد. شعرت بأن الأغصان تطبق عليها والأشياء تدور حولها بسرعة غريبة مفاجئة، فاستندت إلى أقرب شجرة لتدارك السقوط. وعرفت على الفور أنها جائعة جداً فهي لم تتناول في العشاء إلا عدة ملاعق من الحساء، قبل أن تنظر إلى «كال» وتكتشف أنها تحبه... وبعد ذلك فقدت شهيتها. بدا لها أن الغابة أصبحت أكثر برودة وأشد ظلاماً. فقررت عدم مواصلة التقدم، لم تعد تنفعها الأفكار والتحليلات، الشيء الوحيد الباقي لها هو أن ترحل بعيداً... بعيداً... عندما تعود إلى «ديفينتون هاوس» سوف تجهز حقبيتها للغادرة. سمعت صوتاً خافتاً يشبه حفيظ أوراق الشجر اليابسة عندما تدوسها الأقدام، وعندما خرجت من البطل، بل رفعت وجهها إلى السماء لستقبل رذاذ المطر المنعش على بشرتها. عادت باتجاه سيارتها وقد أخذت الأرض تحول تحت قدميها. دخلت السيارة وأدارت محركها. علا الزئير وسط الصمت الطاغي، لكن العجلات دارت في مكانها دون أن تتحرك السيارة قيد أملة. أطفأت المحرك ثم جربت مرة أخرى وقد اعتراها القلق. ففزت السيارة خطوات إلى الأمام قبل أن تفرق عجلاتها مرة أخرى ولم تراوح مكانها. أطفأت المحرك وخرجت لتفحص العجلات، فوجدت العجلتين الخلفيتين غارقتين تماماً في الوحل. «يا لهذا الحظ السيئ !»، فبعد كل الذي حصل، يحدث هذا. لو أنها انتبهت لالمكان قبل أن تتوقف فيه؟ لا فائدة الآن من الوقوف تحت المطر دون معنى... بحثت «فانيسا» حولها عن أغصان أو أحجار أو ما شابه مما يمكن أن يوضع تحت العجلتين الخلفيتين لمساعدتها على الإقلاع، لكنها لم تجد شيئاً على الأقل بالقرب منها. وأدركـت أن عليها العودة إلى الغابة لإحضار بعض الأغصان اليابسة. فالملـطـر يـزـدـادـ غـزـارـةـ والـظـلـامـ يـشـتـدـ، وكـلـماـ أـسـرـعـتـ فيـ الـذـهـابـ كـانـ الـأـمـرـ أـفـضـلـ. وـمـعـ أـنـهـاـ لـمـ تـرـحـبـ بـفـكـرـةـ العـوـدـةـ إـلـىـ الـغـاـبـةـ الـمـلـمـةـ الـرـطـبـةـ، إـلـاـ أـنـهـاـ مـضـطـرـةـ إـلـىـ ذـلـكـ. تـوـجـهـتـ عـائـدـةـ إـلـىـ الـغـاـبـةـ بـخـطـىـ مـسـرـعـةـ جـداًـ.

فالأمر ملحوظ، والمطر لا يرحم. ركضت نحو أول شجرة وانحنت تجمع الأغصان البابسة والجندو المساقطة... وفجأة سمعت صوت محرك سيارة يزداد وضوها كلما اقترب من الغابة. سيارة في هذا المكان؟ وللحظات، وقفت «فانيسا» في مكانها تصغي غير متأكدة أن أذنيها لا تخونانها. ليس في الأمر خطأ فصوت المحرك أصبح واضحًا وقربياً. أسرعت نحو طرف الغابة ونظرت إلى سيارتها غير البعيدة.. وهناك شاهدت سيارة «كال غرين» تقف إلى جانبها. تجمدت في مكانها، وخليط من العواطف المتصاربة يعصف بها. ماذا يفعل هنا؟ من الأكيد أنه لم يأت مصادفة إلى هذا المكان بالتحديد! هل هو وحده؟ وشاهدته يخرج من سيارته ويتجه إلى سيارتها باحثًا عنها. على الأقل إنه ليس مع الجميلة «هيثر» فهي لا تحتمل رؤيتها معاً. تذكرت أن حقيبة يدها في السيارة، ترى هل يفتحها ويعيش بها؟ سمعت «فانيسا» صوت إغلاق باب السيارة بقوّة. لا فائدة من الوقوف هنا، بل عليها أن تخرج للاقاته خاصة أنها تحتاج إلى مساعدة... لا شك في أنه سيقدم يد المساعدة بالتأكيد ممزوجة بالسخرية، ولكنها اعتادت منه ذلك. غادرت الغابة وأخذت تعدد باتجاه السيارات، كانت مستعدة لتحمل سخريته وتهكمه، ولكن لن تتحمل غضبه أبداً... وأنه يستثيرها ويراقبها وهي تقترب. وما إن دنت منه حتى سمعت ما عكس لها طبيعة مزاجه. قال بصوت غاضب آخر:

ـ ما تظنن نفسك فاعلة في هذا المكان؟ جمدتها الصدمة في مكانها:

ـ ماذا؟

ـ قلت: ما تظنن نفسك فاعلة هنا؟ كانت عيناه مشتعلتين بالغضب... هذا الغضب الذي يؤثر كثيراً في «فانيسا». فجأة انفجرت ضاحكة. لعل التوتر الزائد أطلق هذه الضحكة الهisterية التي سرعان ما تحولت إلى دموع منسكبة على وجهيها. أمسك «كال» بذراعيها وهزها بقوّة:

ـ كفى! توقفت فجأة وكأنها أ sisera ذلك الصوت العميق الغاضب. ظل ممسكا بها وهي تتساءل في نفسها عن ردة فعله لو قالت له: «إنني أحبك يا «كال»، فأرجوك ألا تمسني.. لأنك لو فعلت فإبني أريد أن أعانقك طويلاً». ووقفت

تنظر إليه شاحبة الوجه، وقلقة من جراء الأفكار التي تجول في ذهنها. فجأة ارتحت عضلات وجهه وأطلق سراحها قائلاً بهدوء:

ـ حسناً، اعتذر لأنني صرخت فيك. لكن اسمعيوني للحظات. لقد اخترت دون أن تتناولي شيئاً في العشاء، ذهبت بسيارتك إلى مكان لا يعلمه إلا الله... ول ساعتين كاملتين لم يبد أي أثر لك... ساعتان! كانت تحس أنها أمضت عدة دقائق فقط في الغابة، لكن نظرة سريعة إلى ساعة يدها أكدت لها صدق كلامه.

ـ نظرت إليه وقالت:

ـ أنا أستطيع أن أذهب في نزهة مسائية عندما أريد - ثم أضافت بهدوء - لست أرى سبباً لكل هذا الغضب من قبلك!

ـ الغضب؟ بالتأكيد غضب. فقد اعتقدت أنك هربت. اتسعت حدقاتها بفعل الصدمة... أما هو فقد نظر إليها بابتسامة سخرية وأضاف:

ـ لقد ذهبت وتحدثت إلى «لوري». توقف قليلاً. وانتظرت «فانيسا» ممسكة بأنفاسها، لأنها تعرف ما سيحدث... ولا تستطيع فعل شيء لإيقافه.. وتتابع قائلاً:

ـ سألته عما إذا كان يعرف مكانك، إذ لا فائدة من البحث عنك إذا ما كنت تقضين أو قاتل معه. وكان من الواضح أن سؤالي صدمه وجعله يضطرب. استدارت «فانيسا» بعيداً عن نظراته الحادة، إلا أنه وضع يده على ذراعها بلطف وقال:

ـ لقد حصلت على الحقيقة منه بشكل أو آخر. إنك تختلطين للريحيل... وصاحت بألم مشوب بالغضب:

ـ مسكين «لوري».

ـ لا تلوميه. فما كنت لأتركه دون أن يخبرني بكل شيء... ردت بمرارة واضحة:

ـ لا شك عندي في ذلك أبداً.

ـ صحيح.. ولكن لم يخبرني بمن تكونين. لم تكن هناك ضرورة، فقد عرفت وحدي. شعرت وكأنها ستغيب عن الوعي. نظرت إليه بتساؤل:

- هل يعرف هو أيضاً؟ لم يكن من الضروري أن تذكر اسم جدها، فالامر واضح تماماً لهما معاً.

- لا أحد غيري يعرف الحقيقة.

- كيف... كيف عرفت؟ خرجت كلماتها بصعوبة بالغة. وفجأة بدا لها العالم مكاناً مرعباً لا مجال للهرب منه، وأحسست بالأرض تميد تحت قدميها وكأن زلزالاً مدمرًا ضربها. أما «كال» فقد كان هادئاً صامتاً ولا مبالياً. بدأت ترتجف رغمها عنها، فاضطر إلى إمساكها من ذراعها قائلاً:

- ادخلني إلى سيارتي.

- كلاً. وحاولت أن تخلص ذراعها من يده، لكن قبضته الحديدية لم تتمكنها من ذلك.

- بلى. لن نظلي هنا تحت هذا المطر، فأنت مبللة تماماً، وإذا ما أصبت بالإنفلونزا فلن يكون بإمكانك الرحيل إلى أي مكان. قادها نحو السيارة وفتح لها الباب، فألقت نفسها على المقعد منهوكه القوى. استدار وجلس بالقرب منها، ثم أدار التدفئة الداخلية، فعلاً الهواء الساخن جو السيارة الباردة. أنسدت «فانيسا» ظهرها إلى مقعد السيارة وأغمضت عينيها طليباً للراحة. قال شيئاً لم تسمعه لكنها أحسست بكلمة أوراق بين يديها، فنظرت إليه وهو يقول:

- امسحي وجهك وشعرك. هيا افعلي ما أطلبه منك الآن. لعل من الأسهل أن تنفذ أوامره بدلاً من الجدال اللامعجمي. قال وهو يراقبها:

- تسامياني كيف اكتشفت الحقيقة؟ كانت قد بدأت تتنفس شعرها الطويل. طلب منها أن تخلع معطفها المبلل، لأن السيارة صارت دافئة. فعلت بإذعان وانحنى لمساعدتها في تخليص ذراعيها ثم رمى المعطف على المقعد الخلفي. تابع قائلاً:

- لقد خمنت ذلك. في البداية كنت غير مرتاح لشخصيتك. شعرت بوجود شيء غريب لم أعرف ما هو... إلى أن كانت الليلة الماضية. لم تتبس «فانيسا» ببنت شفة، تركته يروي القصة كما يشاء. لم تعد مهمتها بشيء... فقد انتهى الأمر.

- رأيت الليلة الماضية صورة لابن «أندرو ماكلين» في بيت «هيثر». فقد أحضرت «هيثر» صندوقاً مليئاً بالبطاقات والخرائط والصور التي جمعتها منذ كانت طفلة... وبينما هي تقلب الأوراق شاهدت صورة لـ«أندرو» مع ابنه عندما كان طفلاً. لم أسأل عن سبب وجود هذه الصورة في الصندوق، بل اكتفيت باخفاذهما في سترتي - ثم أضاف مداعباً - أنا ماهر جداً في التسلل إذا أردت ذلك. هل تريدين رؤية الصورة؟

- كلاً.

- يجب أن تريها. الشبه واضح بينكمَا. أستغرب فقط كيف أن جدك لم يلاحظ ذلك. استدارت إليه وقد طفح بها الكيل:

- حسناً. ماذا تريد أن تفعل الآن؟

- أنا؟ - ضاقت عيناه وهو يقول - أفعل؟ لا شيء. كبرت في فمها صرخة عالية، ثم قالت بهدوء:

- لا تعطني هذا الجواب السخيف. أنت مسروراً لاكتشافك هذا؟ ابتلعت ريقها بصعوبة مصممة على لا تضعف أمامه:

- أليس هذا ما كنت تنتظره؟ حسناً، اذهب وأخبره، فالأمر لم يعد يهمني قط قال بهدوء:

- أعتقد أن عليك إخباره بنفسك. أما الآن فسأعود بك إلى البيت قبل أن تصابي بالبرد.

- لكن سيارتي عالقة.

- أعرف ذلك. أدار محرك السيارة وهو يقول:

- أنت غير قادرة على القيادة الآن، وسأعود غداً مع «لوري» لإحضارها. انفجرت في وجهه في محاولة لتأخير العودة:

- إنه يكرهك. بدا مندهشاً وهو يسأل:

- هل يكرهني فعلًا؟ هل أخبرك لماذا؟

- أجل.

- ماذا قال؟

- المنطقة آمنة هنا - ثم التفت إليها مبتسمًا - على كلٍّ ساحضرا الليلة، فلا تقلقي.

- شكرًا لك. ظل هناك شيء واحد، يجب أن تحصل على مفاتيح السيارة حتى تغادر البيت باكراً.

- وهل يمكن أن ترك لي المفاتيح في البهو عندما تعود، فقد أكون نائمة؟ - كما ترغبين، فانا لن أخيبها. لم تشا أن تقول له إنها لم تفك في هذا الأمر... وهكذا أمضيا القسم الأخير من رحلة العودة صامتين. أوقف «كال» السيارة أمام الباب الأمامي، وفتح الباب لـ«فانيسا» قائلًا:

- هيا إلى الداخل. سأطلب من السيدة «بانكس» أن تجهز لك العشاء بعد أن أبلغ... السيد «ماكلين» أثرك عدت بسلام. سأقول له إن سيارتك علقت في الوحل وإنك حاولت إخراجها بنفسك. راقبته وهما يصعدان إلى البهو الداخلي.

لا شك في أنه عنى شيئاً عندما ختم كلامه بالقرب من السيارة قائلاً بنعومة واضحة:

- هذا كل ما سأ قوله له.. أما الباقي فمن مسؤوليتك أنت ياـ«فانيسا». ودخلاء معا، عبرت «فانيسا» القاعة متهملة باتجاه السالم. وكانت من التعب بحثي اضطرت إلى الاستناد إلى الجدار. بذلك جهداً كبيراً في تبديل ملابسها والاستحمام واللجوء إلى دفء السرير. لم تجرؤ على مباشرة حزم حقائبها خوفاً من أن تكشفها السيدة «بانكس»، لكنها ستفعل ذلك فور الانتهاء من عشائهما... فهي تحتاج إلى استجمام قوتها إذا ما أرادت الرحيل باكراً. كان النعاس على وشك أن يغلبها عندما سمعت قرعًا على الباب.. جلست في سريرها وقالت:

- ادخلي. لم تكن السيدة «بانكس»، بل كان «كال» حاملاً صينية الطعام.

فاجأها منظره فسحبت الغطاء إلى كتفيها ونظرت إليه باستفسار وقلق.

- لا تخطري.. فأنا لا أنظر إليك - ثم أضاف مبتسمًا - كادت السيدة «بانكس» أن تطردني من المطبخ؛ لأنها مشغولة بصنع قالب من الجاتو، لذلك تبرعت بإحضار الطعام بنفسها. وضع الصينية على ركبتيها بعناية، ثم نظر إليها وكأنه يريد أن يقول شيئاً.. لكنه استدار واتجه نحو الباب. قال وهو يغادر الغرفة:

- لن أخبرك، بل لن أناقش أي شيء معك.

- إذا أخبرك عن شقيقته فلا شك في أنه لون القصة قليلاً، لذلك سأحكي لك قصتي أنا، وبعد ذلك أنت حررة في تصديق الجانب الذي يعجبك، وأؤكد لك أنني غير مهم بما ستتصدقين. أطفأ محرك السيارة وتتابع قائلاً:

- القصة سهلة بحيث تبدو غير معقولة، لكنها الحقيقة كاملة. لقد أعجبت شقيقة «لوري» بي. صحيح أنها فتاة لطيفة، لكنني لم أعجب بها شخصياً، مما أدى إلى غضبها مني وحقدها عليّ لكونها مدللة ومغفورة؛ لذلك أخبرت أحاهما بأنني حاولت التحرش بها، فما كان منه إلا أن تصدى لي في إحدى الليالي وحاول ضربي. لم أعرف حينئذ سبب غضبها، ولكنني -لسوء حظه- أعرف الكثير من الجودو... وهكذا واجهته وتغلبت عليه دون أن أؤذيه. فقط دافعت عن نفسي وأجبerte على إخباري بسبب غضبها. لم يصدقني عندما أكدت له أنني لم أقترب من أخته فقط. ولا شك في أن كبرياته انجرحت، لأنني اكتشفت فيما بعد أنه بطل هاو في الملاكمه في هذه المنطقة، وهذا ببساطة هو سبب عدم إعجابه بي. وبعد ذلك حزرت شقيقته حقائبها ورحلت إلى أضواء المدينة في «أبردين» حيث يمكن أن تجد ما يناسبها.. وهنا تنتهي قصتي.

أدأر محرك السيارة مجدداً، في حين ظلت «فانيسا» صامتة. لقد صدقت قصته، كما أن الحديث عن شقيقة «لوري» ساعدها للحظات على نسيان القصة الأساسية التي تدور حولها شخصياً. نظرت إليه وهو يقود السيارة في المر الذي يوصل إلى الطريق العام، فشعرت باضطراب شديد: كيف يمكن أن تحب وتكره الإنسان ذاته في الوقت نفسه؟ يجب أن يكون الأمر مستحيلاً، لكنها تحبه وتكرهه في آن واحد. قبعت «فانيسا» في مقعدها منهكة، وأنقت رأسها إلى الخلف وهي تحس بجوع كبير. لقد وعدها «كال» بأنه لا ينوي إخبار أحد عن حقيقة شخصيتها، وهي تميل إلى تصدقه. وفجأة عادت إلى ذهنها صورة الرسالة القابعة في غرفتها، وتذكرت أن عليها الرحيل في الصباح الباكر. سألته بهدوء وتعاطف:

- هل يمكن أن تحضر سيارتني هذا المساء، ففي غير مقللة؟

- تصبحين على خير يا «فانيسا».

- تصبح على خير أيضاً. ثم أضافت بعد أن أغلق الباب:  
 - وداعا يا «كال». انتهى الأمر. لن تراه مرة أخرى أبداً. تنهدت بعمق...  
 وبدأت في تناول طعامها. تأخر النوم في المجيء إلى عينيها... وعندما جاء كان متقطعاً ومقطرياً ومليناً بالأحلام والكوابيس المزعجة التي أيقظتها مرات عدة. نهضت من فراشها بعد أن أرعبها كابوس رأت نفسها فيه شائعة في غابة كثيفة الأشجار وشخصاً غريباً يلاحظها. لم تستطع أن ترى ملامحه، فقط ظلت تسمع صوتاً يتتردد باستمرار: «فانيسا».. «فانيسا». كان جو الكابوس مرعباً وخانقاً بحيث وجدت صعوبة في العودة إلى النوم؛ لذلك تسللت من سريرها واقتربت من الساعة لتعرف الوقت دون أن تضيّع النور خوفاً من أن يراها أحد. كانت الساعة حوالي الخامسة صباحاً، نظرت إلى السرير الدافئ وتمتنت لو تعود إليه، لكنها تعرف أن النوم سيغليها إذا فعلت وبالتالي ستفوتها فرصة الهروب؛ لذلك يجب أن تتحرك الآن. كانت حقيقتها معذبة ومخباتين في الحمام بانتظار الرحيل. عليها فقط أن ترتدي ملابسها وتأخذ مفاتيح سيارتها... وتهرب. وبالتالي يجب لا تنسى ترك الرسالة على الصينية لتجدها السيدة «بانكس» في الصباح. وبهدوء، بالغ ارتدت فستانها تركته للرحلة عندما حزمت حقيبتها، ثم وضع الرسالة على الصينية وقلبها يعتصر ألم من جراء إحساسها بالحزن العميق، لأن الرسالة هي آخر خطوة في هذه الرحلة التعيسة. تسللت على رؤوس أصحابها وهي تحمل الحقيقتين، وعندما وصلت إلى البهو الداخلي وضعت إحداهما على الأرض لأأخذ مفاتيحها الموضوعة على الطاولة. لقد صدق «كال» في كلامه، فيها هي المفاتيح موجودة في المكان المتفق عليه. شهقت «فانيسا» بالدموع المكتومة وهي تفتح الباب. لم يحدث قط أن أغلق أهل البيت الباب الخارجي. وقد صدمتها هذه المسألة عندما وصلت إلى «دينستون هاوس»، لكنها تشعر الآن بالارتياح لذلك. خرجت وأغلقت الباب بهدوء، ثم حملت حقيقتها وسارت نحو موقف السيارات. في الخارج، صدمها الهواء البارد الطلق في حين كان الضباب يغطي العشب والأشجار والبيت كلّه. ارتجفت

باضطراب وهي تلقي نظرة الوداع على البيت. فلقد كان نائماً مثل الناس الذين ينامون فيه. استدارت وحثت خطاتها نحو موقف السيارات. وخوفاً من أن يسمع أحد وقع قدميها على حصى الممر، انتقلت للسير على العشب المجاور وظلت عليه حتى الأمطار القليلة الأخيرة. لا شيء يتحرك في البيت، حتى ستائر الطبيخ ما زالت مغلقة والأضواء مطفأة. وضع حقيقتها في المعد الأمامي واستدارت إلى مقعد القيادة وأغلقت الباب بهدوء ثم أدارت مفتاح المحرك. زأر المحرك عدة مرات دون أن يتحرك. وبقلق شديد كررت المحاولة مرة أخرى، ولكن شيئاً لم يتغير. هل البرودة هي السبب؟ همست لنفسها بغضب: «اللعنة على هذا الحظ. هل كان من الضروري أن يحدث ذلك الآن؟ فتحت الغطاء وخرجت بهدوء لتفحص المحرك. حاولت جهدها إلا تصدر أية أصوات. رفعت الغطاء وألقت نظرة شاملة دون أن تدري فعلاً عما تبحث، باستثناء حدس يقول لها إن شيئاً ما غير طبيعي. إنها تعرف بعض المعلومات العامة عن المحرك، وقد أكدت لها نظرتها العابرة أن كل شيء في مكانه. كانت على وشك أن تعيد الغطاء إلى مكانه عندما لاحظت أن إحدى مضخات الوقود غير محكمة الرابط، ولما تفحصتها وجدت المضخة الأخرى غير محكمة أيضاً مما زاد في شكوكها. ولما رفعت غطاء توزيع الوقود وجدت أن المضخة نفسها غير موجودة. وعرفت على الفور المسؤول عن هذه اللعبة القذرة. إنه «كال» بالتأكيد. فقد جرب هذه اللعبة بعد إحدى السهرات على سبيل المزاح، عندما أخفى المضخة من سيارتها بحيث اضطرت إلى مرافقتها في سيارته عائدين إلى البيت. قبلت المزحة في المرة الأولى، وضحت كثيراً عندما أخبرها «كال» بالحقيقة على العشاء في اليوم التالي. أما الآن فالمسألة تختلف، ولا شيء فيها يثير الضحك. أغلقت الغطاء بهدوء وعادت مسرعة إلى البيت. وبما أنه أخذ المضخة من سيارتها فستذهب إليها فوراً لاستعادتها منه، والأرجح أن يكون محظوظاً بها في غرفته. لكن لماذا؟ قلبت هذا السؤال في ذهنها وهي ترکض على العشب عائدة إلى البيت الذي ودعته قبل قليل. كانت منزعجة جداً، وكلما اقتربت من البيت تحول حذرها إلى غضب شديد. فتحت الباب بسرعة ثم أغلقته

بشدة وركضت باتجاه السلام. كانت تحس بموجة عارمة من الفحش في صدرها وبالنار تشتعل في عينيها. كيف يجرؤ هذا الرجل العنيد على التصرف معها بهذا الشكل؟ وصلت إلى غرفة نومه... ترددت لحظات قبل أن تفتح الباب وتدخل عليه بقوة. كان «كال» غارقاً في نومه ولم يظهر منه سوى شعره الأسود الغامق، في حين امتدت يده اليمنى خارج الغطاء الدافن. نظرت «فانيسا» إليه وهي تفكّر فيما يجب أن تفعله الآن. ولم يستمر ترددتها طويلاً، إذ انحنت إليه وهزته بعنف. استيقظ على الفور وفتح عينيه واسعاً وهو ينظر إليها باستغراب شديد. ثم قال بصوت مازال ناعماً:

- ما الأمر؟ ماذا جرى؟ قالت بحزن: - أين هي؟ حاول أن يمسح عن وجهه آثار النعاس ثم جلس في مكانه، ونظر إلى الساعة صارخاً:

- يا إلهي.. هل تعرفين كم الساعة الآن؟ - أجل. أين المضخة التي أخذتها من سيارتي؟ تنهد بعمق وعلى وجهه تعابير الاعتراف باللعبة:

- إذن هذه هي المسألة؟

- أجل. هذه هي. شدت قبضتيها بقوة وجادلت لتمنع نفسها من ضربه، فالامر لن يعود عليها بأية فائدة، ومن الأكيد أنه سيرفض إعطاءها المضخة بعد ذلك. هدأت نفسها وقالت:

- أرجوك أن تعطيني إياها. كان «كال» قد استيقظ تماماً الآن وجلس في السرير بشكل مريح. نظر إليها ثم هز رأسه وقال:

- لا...

- ولم لا؟

- لأنك ستهربين بعد ذلك. قاطعته بغضب:

- وماذا يعنيك في هذا الأمر؟

- يعنيني كثيراً. فأنا لن أسمح لك بالهرب مثل... قاطعته مرة أخرى:

- اذهب إلى الجحيم أنت وأفكاكك. ثم استدارت قليلاً في محاولة لكتبة جماع غضبها المتزايد. وفجأة لمحت مفاتيح سيارة على الطاولة.. إنها مفاتيح سيارة «الجاجوار».. ودون أن تفكّر فيما تفعل اختطفت المفاتيح غير عابثة بأن ذلك قد يعتبر سرقة. ولم لا؟ فهو الذي أخطأ في الأساس. قالت:

- إذا سأخذ سيارتك، فوداعاً، ساكتب إليك في وقت لاحق لإبلاغك عن المكان الذي ستتجه فيه سيارتك. استدارت وخرجت راكضة من الغرفة، ثم أسرعت في المعر نزولاً إلى السلام باتجاه القاعة وهي تدعوه إليها ألا ينبعض «كال»، ويلحقها. ركضت من الباب باتجاه الممر غير مهتمة بصوت الحصى البعيتر تحت قدميها، فقد انتهى الأمر الآن. أطلقت العنان لساقيها مدفوعة بالخوف واليأس. ليس هناك الكثير من الوقت. عليها أولاً أن تنقل حقيبتها من سيارتها إلى «الجاجوار». فسيارة «كال» قريبة من سيارتها والأبواب كلها مشرعة. فقط عليها أن... وصلت إلى الموقف وأسرعت بفتح باب سيارتها وانحنت لترفع الحقيبتين عندما وقع عليها ظل شخص ما. رفعت عينيها لتجد «كال» واقفاً بالقرب منها وهو حافي القدمين. تنفس بعمق وهو يقول:

- إنك بالفعل قادرة على الهرب. انتصبت واقفة وقد أسقطت من ذهنها كل شيء، ما عدا الهرب من هذا الرجل. قالت وهي ترفع الحقيبتين:

- ابتعد عن طريقي فوراً.

- لا شك في أنك تمزحين. ضعي الحقيبتين وهيا إلى البيت بهدوء، فقد انتهى زمن المرح والألعاب يا حبيبي. لم تتنبه للكلمة الأخيرة التي استعملها، فقد كان يشد على يديه القويتين اللتين انتزعتا الحقيبتين منها. وعند هذا الحد طفح الكيل بها وأخذ صدرها يغلي كمرجل، وبلا وهي هجمت عليه بكلتا يديها، أما هو فقد أرخي الحقيبتين من يديه وأطلق ضحكة مجلجلة ثم أمسك بها وجمدها في مكانها.

- لقد حذرتك مما سيحدث لك إذا ما أقدمت على ضربي. ولدهشتها البالغة لف حولها ذراعيه وعانقها. وبدا له «فانيسا» أن الزمن قد توقف وأن الكون كف عن الدوران وأنهما وحدهما في هذا العالم الواسع. وفجأة انتهى العناق وابتعدا عن بعضهما البعض... وسادت لغة العيون بينهما. كان وجه «كال» داكناً في

ذلك المكان المعتم، أما وجه «فانيسا» فكان ساكناً وهادئاً. تكلم «كال» بهدوء خوفاً من أن يحطم السكينة المسيطرة، فقال:

- «فانيسا»... آه يا «فانيسا». ماذا أفعل بك الآن؟ خرج صوتها مرتجاً:

- دعني أذهب يا «كال»، دعني أذهب فوراً. همس بنعومة فائقة:

- لا.. ليس الآن.. وليس فيما بعد.. هيأ ادخلي إلى السيارة فأنت ترتجفين. لم تستطع مقاومته هذه المرة. جلس إلى جانبها وأدار جهاز تدفئة السيارة ثم وضع ذراعه حول كتفيها:

- لا تتشاجر معي يا «فانيسا»، فأنا لا أستطيع احتمال ذلك.

- لست أفهم.. لست أفهم ما تقصد. وتابعت وقلبها يتحقق بشدة:

- نحن لا... أنا أكرهك وأنت تكرهني.

- لا.. هذا غير صحيح. وتابع كلامه وهو يداعب خدعاً برفق:

- كنت قادرة دائمًا على إزعاجي أكثر مما تتصورين... ولم أدرك السبب إلا في الليلة التي اعتقدت أنك هربت فيها... يا الله، لا يمكن أن تتصروري مشاعري عندما أخبرني «لوري» بهريك واعتقدت فعلاً أنك رحلت. وقتئذ عرفت... عرفت ماذا أشعر نحوك وعرفت ماذا تشعرين نحوه، فلا تحاولي التغفي الآن.

- أنت لست سوى حيوان مخادع. خرج صوتها ضعيفاً هامساً، لكنه وصل إلى سمع «كال»، فضحك طويلاً.

- حيوان مخادع؟! يعجبني هذا الكلام. وفي الحقيقة أنا لا أبالي بالأوصاف التي تتعجبيني بها. لقد رأيت كل شيء في عينيك الليلة الماضية، ولا يمكنك إخفاء الواقع يا «فانيسا». أزدادت خفقات قلبها وهي تنظر مباشرة إلى عينيه. وعندما رأت مشاعر الحب فيها مدت يدها تلامس وجهه القاسي.

- آه يا «كال». أرجوك ساعدني. أنا هاربة من... اعتراف قاس جداً، ولكن زمن الأكاذيب قد انتهى. لم تعد قادرة على اختلاق القصص، على الأقل ليس الآن وليس معه بالتحديد. تابعت كلامها قائلة:

- جئت إلى هنا لأعرف جدي على حقيقته. وبعد الذي أخبرني به والدي

كرهت جدي، وأتيت؛ لأنني عرفت أنه يبحث عن حفيده. وكنت سأجعله يحبني ثم... ثم أرحل وأتركه وحيداً.

- لا ترحل لي. لست مضطرة. همست بحدة:

- بلـى، يجب أن أرحل؛ لأنني أكره نفسي، يجب أن أرحل. وأنت ستكرهني أيضاً بعد أن أنتهي من رواية قصتي. لقد التقى جدي وبذات أحبه.. قطعت كلامها فجأة وأغرقت رأسها بين كفيها عندما داهمتها الدموع المنهممة. أحسست بيد «كال» تتدلى إلى رقبتها وتلامسها بلطف ومحبة. لم تعد تستطع الاحتمال، وبحركة غريبة استدارت ودفت رأسها في صدره، في حين احتضنها هو بذراعيه وراح يهددها ك طفل صغير.

- لا تبكي يا حبيبتي. أرجوك لا تبكي.

- لا أستطيع.. لا أستطيع.

- اسمعي يا «فانيسا». ولكن قبل أن يكمل أخذ نفساً عميقاً وصمت للحظات بحثت توقفت «فانيسا» عن النحيب:

- اسمعي. إنه يحتاج إليك. لا تلاحظين ذلك. إنه يحتاج إلى وجودك، وهربك من حياته عمل قاس للغاية. أنت ستظلين هنا حتى لو اضطررت إلى استعمال القوة. ستبقين هنا وسنرى جدك معاً ونخبره بالحقيقة. ردت بصوت تخنقه العبرات:

- لا.

- بلـى. أنا أحبك أيتها المجنونة ولن أتركك ترحلين الآن. فاجأتها العبارة، فأبعدت رأسها عن صدره وقالت:

- مـاذا؟

- قلت إنـى أـحبـكـ. فـهـلـ أـنـتـ عـمـيـاءـ بـحـيـثـ لـاـ تـرـىـ مـشـاعـرـ الـحـبـ فـيـ عـيـنـيـ؟

- أـنـتـ.. أـلـكـنـ مـاـذاـ عـنـ «ـهـيـشـ»ـ؟

- «ـهـيـشـ»ـ؟ لـقـدـ حـولـتـنـيـ إـلـىـ مـجـنـونـ فيـ غـضـونـ سـتـةـ أـشـهـرـ فـقـطـ. فـهـيـ لـاـ تـهـمـ بـشـيـ، إـلـاـ بـنـفـسـهـاـ وـبـمـظـهـرـهـاـ الـخـارـجـيـ. إـنـاـ تـصـلـحـ لـلـقـاءـاتـ مـوـسـعـةـ فـقـطـ، أـمـاـ أـنـتـ يـاـ جـمـيلـيـ فـتـسـتـطـعـيـنـ تـجـاـوزـهـاـ فـيـ كـلـ شـيـ، حـتـىـ دـوـنـ أـنـ تـحـاـولـيـ. وـلـمـ

تحرر «فانيسا» جواها على الرغم من عشرات الأفكار التي تراودها الآن، وهكذا تابع كلامه وهو يحكم ذراعه حول كتفيها وكأنه يطمئن إلى أنها لن تهرب مرة أخرى.

- أنت لن ترحلني عنني بعد اليوم، إلا إذا أردت أن الحق بك أينما كنت.  
- لا، عرفت أنني أحبك مساء أمس في العشاء. ابتسمت وهي تتذكر المناسبة وأضافت تقول:

- وبالتحديد عندما تناولنا الحساء. نظرت إليك حسناً... صعقني الشعور بشكل مفاجئ.

- يا إلهي، هل هذا هو السبب في انقطاع شهيتك عن الأكل؟ -تابع ضاحكا-  
أهذا هو التأثير الذي أتركه عليك؟ اتسعت ابتسامتها وهي تقول:  
- أعتقد ذلك - ثم أضافت بنعومة - آه يا «كال». لماذا حدث هذا؟ وكيف؟ لم يكن يحتاج إلى سؤالها عما تقصد:

- لأن بعض الأشياء -يا صغيرتي المجنونة- تحدث هكذا. هل تذكريين يوم دخلت المكتبة وعرفت أن «لوري» عانقك؟ حسناً، لقد جاهدت نفسك كثيراً كي لا أهجم عليه. لم أستطع أن أفهم سبب غضبي... لعلي كنت غبية، ثم أخذ هذا الشعور ينمو ويزداد وأنا أحاول طرده؛ لأنني كنت أعرف أنك مزورة إذا صحت التعبير. كان الشك يكبر يوماً بعد يوم دون أن أفهم السبب، وكانت تنمو معه رغبتي في احتضانك والبقاء إلى جانبك. والحقيقة أنني كدت أفلع ذلك في أحد دروس الجودو. وكم كنت حسناً احتاج إلى السيطرة على النفس التي تبنيها رياضة الجودو. سالت بنعومة:

- لقد كنت قاسية معك، أليس كذلك؟

- كيف يمكن أن أوفق على ذلك؟ أعتقد أنني كنت فقط معك يا عزيزتي، على كل انتهاء الأمر، أعني أننا نعرف حقيقة مشاعرنا. آه أيتها الحبيبة «فانيسا» كم أنا سعيد لأنني أخفيت المضخة من سيارتك!

- صحيح، على فكرة، أين وضعتها؟ سألته بلهجة آمرة، لكن عينيها لم تلتقط بالغضب هذه المرة.

- إنها مخبأة في صندوق صغير موضوع في مكان ما هنا بحيث لا يمكنك اكتشافه مهما بحثت. فقد انتابني إحساس بأنك ستحاولين الهرب، وأنا لم أتوقع أن تقتفي غرفتي. يا لك من امرأة عصبية جداً! همست بحرياً:

- أنا آسفة يا حبيبي.

- يجب أن تغيري تصرفاتك، فأنا لا أقبل مثل هذا الموقف من زوجتي.

- ماذما؟

- هل هذا كل ما عندك لتقوليه؟

- أجل... وحتى أستعيد أنفاسي المتقطعة. لست متأكدة مما سمعت! نظر إلى ساعته وقال:

- تعالى يا حبيبي، إنها السادسة تقريباً. ما رأيك لو نتسلل إلى المطبخ ونرتشف بعض القهوة المنعشة، فالسيدة «بانكس» لن تستيقظ قبل الساعة السابعة؟

- لا يأس، ولكنها أرادت أن تضيف شيئاً آخر الآن وقبل أن يغادرا السيارة.

- «كال»...

- نعم!

- أرحب في رؤية جدي على انفراد. أرجوك، فأنا أريد إبلاغه الأمر بنفسى.

- هل أنت متأكدة.

- نعم، يجب أن أخبره بنفسى. أظنك تفهم الوضع! ابتسم لها وهما يسيرون عائدين إلى البيت. كانت عيناه ووجهه وكل ملامحه تنطق بالحب العميق:

- أنا أفهم موقفك تماماً يا حبيبي، لكنني سوف أنتظرك. لا تغضبي، يكفي أن تخبريه بطريقتك الجميلة الطيبة، وسيفهم على الفور.

- أتفهم ذلك. أغلقت عينيها برقة ثم تابعت:

- لقد تركت له رسالة مع أن الكتابة كانت صعبة. أما الآن، فأنا سعيدة لأنك منعشت من الرحيل... لا يمكن أن تتصوركم أنا سعيدة! وضع ذراعه على كتفيها بحنان، ثم أشار إلى الأفق قائلاً:

- هل ترين ذلك التل بعيد؟ نظرت «فانيسا» إلى بعيد فشاهدت تلاً كبيراً

- تكتنوه الثلوج. أما هو فتابع يقول:
- سأظل أحبك ما دامت الثلوج موجودة على قمة هذا القل. ابتسمت بدلال  
وقالت:
- إنها لا تذوب أبدا... إنها هناك إلى الأبد.
- أجل.. إن حبي لا ينتهي أبدا.. وضمّهما بين ذراعيه وغابا في عنان طويب.